إذا زاد الوُدّ

رواية

إذا زاد الود
رواية

تأليف :
مريم سبع

تصحيح لغوي:
أحمد سعيد

تصميم الغلاف:
أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/7039
الترقيم الدولي: 978-977-820-011-9

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

إذا زاد الوُدّ

مريم سبع

رواية

إهداء

إلى كلّ من وعدته أمانيه بنهاية سعيدة
لبداية سعيدة
فبين يديه تلوّى قلبه حينًا، تخبّط تارة..
ثمّ مات، في النهاية..
إلى كلّ من انتظر..
ربّما إلى الأبد،قلبًا..
ربّما، زال إلى الأبد.

عندما يجمع الحب بين التوبة والانتقام،

و يجمع الحب، بين الإنتظار والإنتظار

قد تخفى عن الأزهار بعض الأسرار..

فيا معاشر الأزهار!

هاكِي الأخبار..

وحدها الجبال تدوم.. فيما ترحل الأنهار.

الوصال

هما أمران في الحياة، كلاهما أمرٌّ من الثاني

أن تحبّ فتُخذل..

أو يعود حبّك الذي خذل، وقد انقضى الأجل.

تنبّأت بـه الأرصـاد الجوّيّـة سـيكون يومـا مشمسـا رغـم أنـف ديسـمبر.

لكنّه ديسمبر..

فمـا كان غـير مكفهـرّ السـماء، مغتـاظ الغيـوم، قـارس الأنفـاس، تمامـا كمـا تحـبّ وتـرضى عنجهيّتـه.

سـمعت مزامـير السـيارات تقـترب، التفتـت نحـو النافـذة الـتي تترقـب قدومهـم لمّـا دُفـع بـاب الغرفـة بحمـاس:

-لقد وصلوا! لقد وصلوا!

-أعلم..

ردت «جـوري» عـلى «شِـفاء» أختهـا، الـتي مـا لبثـت عـادت من حيـث جـاءت، وعـادت جـوري إلى مرآتهـا، يغازلهـا رأيهـا فيهـا.. فعـلا، لا يمكـن لامـرأة أن تفـوق جمالهـا إلا في يـوم عرسـها.

سـمعت بـاب سـيارة أُتْـرِس، التفتـت ثانيـة نحـو النافـذة، قامـت إليهـا تجـر ذيـل الطـاووس، نظـرت عـبر زجاجهـا فرأتـه أول مـا رأت، لـم تفهـم شـعورها ورأيهـا فيـه أنـه أجمـل مـن مرآتهـا..

عبست..

كادت تشـعر بالغـيرة، أو هـي شـعرت بهـا ولا تـدري ممـن؟! فاشـتبهت بالبدلـة السـوداء الـتي كانـت تضـم جسـمه الـذي أوتي

بسـطة..

ابتسمت..

هـو لـم يحلـق ذقنـه نـزولا عنـد رغبتهـا وإكرامـا لمسـتحبها، يبـدو لـم يعـد مـن داعٍ لغيرتهـا لا مـن بدلـة ولا مـن غيرهـا، إذ عـلى مـا يبـدو صـار لهـا..

تنهدت..

تعجز عن التصديق أنه صار لها..

فُتح باب الغرفة مجددا:

- لا تدعـي عريسـك ينتظـر طويـلا، انـزلي نراجعـك لعلنـا نحـدث بعـض التعديـلات الطفيفـة، هيـا يـا ابنـتي..

نظـرت عـبر نافـذة -الـتي كانـت- غرفتهـا آخـر مـرة قبـل أن تلحـق والدتهـا، رأتـه يضحـك مـلء فيـه حـين كان القلـق يقرضهـا كقطعـة خشـب بـين فـكّي قنـدس، تمنّـت لـو كان في وسـعها أن تتركـه ينتظـر عشريـن سـنة!

كمـا تركهـا كل تلـك السـنوات، تنهـدت.. حتمـا هـو أوفـر حظـا منهـا، وسـارت خلـف والدتهـا إلى الصالـون.

***

انقضضـن عليهـا وتعالـت الزغاريـد، ورحـن واحـدة تنفـض عـلى وجههـا مزيـدا مـن مسـحوق الأسـاس، وأخـرى تتأكـد مـن تماسـك سـنام الشـعر عـلى رأسـها، وأخـرى تشـد نهايـات الثـوب، حـتى أسـدلت شِـفاء الطرحـة عـلى وضـاءة وجههـا وهـي تنـادي فرحـة مرحـة:

- شهاب! شهاب! نادِ صهرك يأخذ عنا زوجته!

وانفجرن ضاحكات، كل الوصيفات.

أمّـا جـوري فمـا بـدت إلا مـترددة الفرحـة، كلما همّـت أن ترتخي وتضحـك تشـنّجت واخـتُزِل الأمـر محـض بسـمة بـاردة متصنَّعـة. كانـت لحظـات لا شـك سـيخلدها تاريـخ حياتهـا، تلاطـم بـين أمـواج المـاضي والحـاضر والمسـتقبل، وكأنّ كل أبحـر العالـم هاجـت لهـا، أو في داخلهـا.. تزوجـت الـتي ارتابـت في أمرهـا أنهـا قـد تجـسر كافيـا يومـا وتخطـو هـذه الخطـوة، أو.. تقفـز قفـزة هكـذا.

هـي مـرة واحـدة ووحيـدة تلـك الـتي وثقـت فيهـا مـن رغبتهـا في توريـط نفسـها في شـباك الـزواج، ورضيـت قفصـه بديـلا عـن سـماء عزوبيتهـا، كان ذلـك لمّـا أحبـت «أُحُـدا».

- أُحُد آت!

صاح رأس شهاب يطل على مدخل الدار.

فـورا رفعـت النسـوة خُمُرهّـن مـن عـلى أكتافهـن وألقـين بهـا عـلى رؤوسـهن، وهنـاك شـعرت جـوري بـأنّ قلبهـا يعمـر صدرهـا

حقّا.. حين دخل عليهم من لم يخرج يوما من قلبها.

- هيا أدّوا الأمانات إلى أهلها، ناولوني عروسي!

قال أُحُد متهلل الوجه في نبرة مازحة وقد صار بعد الباب.

نظرت إليه عبر أستار وجهها الشفافة البياض، كان باسما مشرقا حدّ هدّأ من انفعال قلبها التحديق فيه، إنها لمحظوظة به مرتين، مرة أنّ من بات زوجها هو بكل هذه الروعة، ومرة تجعل منها ملكة المحظوظين في مملكة المفطورة قلوبهم، أنها عاد إليها حبها.. وعودة قوية.

اقترب منها وهمّ بالكشف عن وجهها، فردّت بيديها بلطفٍ يديه وهي تهمس:

- ليس الآن، ليس هنا..

تنهّد خائبا وأشار عليها بذراعه أن تمسك به وهو يقول:

- ماذا يقول شكسبير أيضا؟ «ما أشقى من لا صبر لهم»، فما أشقاني يا ساعات صبري ما أشقاني! يا باب الصبر!

أمسكت بذراعه وهي أقل لطفا هذه المرة، ماذا يعرف عن الصبر هو؟ وكيف يجرؤ ويجيء على ذكر باب لا تحسبه إلاّ أُوصد بعدها! «ساعات صبره» تهكّم الصوت المقلِّد في داخلها، أليس الأحرى بهذه أن تركع لسنوات صبرها؟!

شعرت لآخر الأفكار التي راودتها بغضب مجنون أيقظ

جراحها حتى كادت تفلت ذراعه، لولا أنها نفّست عن شحنائها في مشهد في خيالها تقتلع فيه خاتمه وترمي به على وجهه وهي تقول: لا أريدك!

عادت إلى صوابها بعد آخر كذبة، آه كم تمنّت في الخوالي لو كانت صادقة هذه..

هذا الرجل في كفّة وكل زينة الحياة الدنيا في الكفة الأخرى، وكل زينة الحياة الدنيا.. لا ترجح كفتها.

عذبتها سنوات فراقه وأذاقتها وجعا ذا كمّ وكيف حتى لكَم استرحمت الليالي أن «لا أريد أن أريده بعد الآن».

***

اهتزّت داخل برنوسها الأبيض لدويّة بارود استقبلت أوّل خطوة لها هي آخر عهدها بالحياة في بيت والدها، غلبتها دمعتها عندما خطت زيادة على تلك الخطوة الفاصلة بين حياتين لها.. بين إنسانتين منها.

شكرت الله أنّها مغطاة كلها، من قبل منبت الشعر وإلى ما بعد أخمص القدمين، كان كل ذاك الرداء عليها يشعرها بالأمان، ولولاه أبدا ما كانت استطاعت مواجهة جميع ذلك الوابل من الهرج والمرج يحيط بها ولا يبالي بسواها، وبفضله أيضا لم تضطر إلى خنق مجرى قنواتها الدمعية، بل أذنت لسوائلها أن تتدفق بأشجانها.

قصيرة الحياة، حتى لو كانت قصيدة لكانت من بيت واحد، وها هي تغادر بيت الشطر الأول، بيت طفولتها وأيام دراستها وأحب ناس هذه الدنيا وأقربهم إليها، الذي يضمّ غرفتها و مساحتها الخاصة، بعد اليوم لن يكون هناك من مساحة خاصة، وهذا أمر لا يبعث على الارتياح والانشراح، من سوى أنّها أمست في قلب الحدث، والمتاح الوحيد الوارد هو أن تتقوقع السيارة التي جعلوا منها عروسا هي الأخرى.

ساعدها أُحُد وساعدته شِفاء على ثوبها، ثم انطلق الموكب مزمّرا كما جاء.

وضع يده على يدها، فكأنّما من غرز سبابتها والوسطى على أنهما لقابس داخل مقبس وذاك أخطأ في هويّتهما فلم يبخل بالتيار عليهما، وكمنعكس شرطي أكسبها إياه كيف تُنَشَّأ البنات عندهم، كادت تخطف يدها تماما كما لو كانت يده صعقة كهربائيّة، لكنها تذكرت.. وكيف نسيت وهي عُقر جلبة مفتعلة على شرفها أنها صارت من حقه.

بدأت أنامله تتراقص على ظهر يدها كأنّه يراجع عليها معزوفة بيانو، يريد أن يقول شيئا، بلى كان يقول شيئا..

التفتت إليه ورفعت عن بصرها تمادي غطاء الرأس، فرأته يبتسم ابتسامة لا عهد لها بها، بعينيه.. برشّة مكر نثرها على نظرته، ففهمت أنه يهيئها لمشروع السهرة.

والموكب البهيج يجوب بها شوارع المدينة وأحياءها، يجري

سعيدا نحو قاعة الحفلات، راحت تتفرّج عبر نافذة وسيلة نقلها الجميلة، كل شيء بدا مختلفا، كل الصور.. حتى أبسط البسيطة منها عادت تبدو مؤثّرة.. مرّوا أمام كافيتريا «خاتم الخطوبة»، وكان صاحبها هكذا كنّاها تشجيعا للعدد الكبير من أزواج المتحابّين الذين كانوا يقصدونها على أن ينتقلوا بعلاقتهم إلى مرحلة أكثر جدية وأصدق احتراما، ثم اثنان يغادرانها، كأنّ نظرتاهما لبعضهما يدان تتشابكان الأصابع، ومضيا في سكون وهدوء.. بركة لا يمنحها غير الحب.

سرحت جوري تبصرهما حتى سهت عن عرسها، حتى كادت ترفع عن وجهها لمّا ابتسمت الحبيبة لخطيبها وهي تذكّره وتتذكّر معه روعة خاتمه الذي بفضله أتمّ حسن يدها، وهو يومئ برأسه ويبتسم بأغلب حواسّه، لو لم يوقظها أُحُد بجرها إليه شبه غاضب:

- لا بأس أن تُبدي زينتك للمارة، أمّا أنا فلا!

استدارت جوري إلى الزجاج الخلفي للسيارة، إليهما وقد صارا خلفها، وابتسمت تمتمة:

- ما أجمل الحب عندما يكون صادقا!

تسمّر أُحُد في مكانه وادّعى أنها لم تصله تمتمتها، لأول مرة في حياته شعر بخوف خاف منه، كان يعلم أنها لم تسامحه إلاّ شكليا، وأن الله سبحانه من قال لها «كوني له»، وإلا والله ما كانت! يدرك تماما أنه ليس لأنه تزوجها فهو فاز بها، النتيجة لم تُحسم بعد، ومباراته معها يحسبها

تحتمـل بعـض الأشـواط الإضافيـة.

إنـه لتحـدّ السـعي للفـوز بقلـب سـليم معـافى، لـم يُطعـن ولـم يُغـدر.

أمّـا طلـب القـرب مـن قلـب عليـه ندبـة هـي أثـر جـرح أدمـاه يومـا.. فهـذا المقـدم عليـه بحـق فـارس أليـث.

***

حطّـوا أخـيرا أمـام القاعـة قُبيـل المغيـب، نـزل أُحُـد مسرعـا وأسرع إلى بـاب عروسـه يفتحـه لهـا، ثـم مـد يديـه إليهـا ليقتلعها إذ كانـت عالقـة داخـل ثوبهـا العالـق داخـل السـيارة، مـدت يديهـا إليـه فصـارت في الخـارج، أسرعـت شِـفاء إليهـا تسـوّي طيّـات الثـوب الـتي تسـبب بهـا طـول الجلـوس، واسـتقبلتهما حماتهـا ترشّـهما بمـاء الزهـر، حينـا جـوري وتـارة أُحُـد، حـتى بلغـوا جميـع الموكـب ومـن خرجـوا لاسـتقبالهم أبـواب القاعـة فجوفهـا، وكل ذاك والبنـادق تسـتفرغ أجوافهـا صـوب صـدر السـماء الـذي لـولا أعـلى، لأردوه مصفـاة.

كان هنـاك كرسـيان عظيمـان، يقـول الناظـر إليهمـا بشـأنهما أنهمـا لملـك وملكـة، مـشى أُحُـد بجـوري إليهمـا، وعندهمـا مباشرة، أنزلـت عنهـا برنوسـها بمسـاعدة مـن والدتهـا، ورفـع هـو برقعهـا عـن وجههـا، فتجلّـت أمامـه كاللؤلـؤة خـارج صدفتهـا، سـاطعة متألّقـة.. انبسـط القطـر العمـودي لعينيـه وترجـرج

الأفقـي، ووثبـت نظرتـه عـلى كل مـا تجهـل منهـا، ثـم أخـذ بيدهـا إلى عرشـهما، وجلـس بجانبهـا.

نظـرت إليـه نظـرة حـسرة، وانقطـع سـمعها عـن كل تلـك الطربيّـات المدفوفـات الـتي تـكاد تعـرّي القاعـة مـن سـقفها، لمّـا ردّ عليهـا بنظـرة عـين السـلام تشـهد ألاّ شريكـة لهـا عـلى قلبـه، ثـم اقـترب مـن أذنهـا وهمـس، وكانـوا التقطـوا لهـم مـن الصـور، وحنّطـوا تلـك اللحظـات المشرقـات سـعادة عـلى شريط فيديو عنونوه لاحقا عرسهما.

- ألاقيكِ فيما بعد...

وغمزها بعد أن قبّل يدها شبه راكع والملأ يشهدون.

لحقـت نظراتهـا خطواتـه تغـادر قاعة النسـاء، وقبـل أن يتوارى كليّـة عـن الأنظـار اسـتوقفته مخترقـة لبـاب القاعـة داخلـة إليهـا لمّـا كان هـو كذلـك يخترقـه لكـن خارجـا، ظهـر عليـه أنـه سُرّ لرؤيتهـا وبـدأ يـردّ عـلى تهنئتهـا، كانـت تلتحـف بعبـاءة سـوداء وتضـع عـلى رأسـها خمـارا أسـود كذلـك، إذ عندهـم هكـذا تغطـي النسـاء أثـواب حفـلات الأعـراس والتسريحـات، ولمجـرد أنهـا لمحـت خلـف المنضمّـة الجديـدة إلى الفـرح، نسـيت جـوري غلـوّ قوانـين اللباقـة المفروضـة عـلى العـروس، كأن تهـدأ هـدوءا هـو أقـرب مـا يكـون إلى الجمـود، وثـارت عـن كرسـيها غـير متمالكـة نفسـها إلاّ نـزرا، صاحـت: «آسـتر»!

التفتت آستر إليها عن أُحُد، وهو ابتسم لها وغادر.

خطت جوري إليها خطوات متلهّفات ولو كارهٌ زيّها ومقامها في تلك الليلة، لكن آستر أدركتها أوّلا، ربّما لكونه أخف حسن هندامها، ربّما لجيشان عاطفي أعنف، وانقضّت الأذرع تتنافس الضمّ.. قالت جوري قبل مضمومتها:

- ما ظننتك آتية.

تحرّرت آستر وحرّرتها من ضمّتيهما، نظرت في وجهها وقالت بعينيها قبل لسانها:

- ما أجملكِ، عين الخالق تحرسكِ من عين المخلوق.

ساقتها جوري من يدها إلى الكرسيين، جلست وأجلستها كرسي أُحُد ثم قالت:

- كبتُّ شدّة حاجتي إليك في مثل هذا اليوم، وعملت جاهدة على كتمانها فلا يتراءى لك منها ما يكلّف نفسك غير وسعها.. ما أحببت أن أحمّلك ما لا طاقة لك به ، لكنني رجوت، أكذب لو قلت ما رجوت، رجوت أشدّ ما رجوت أن تأتي، ورغما عن كل الاعتبارات!

برّرت آستر نادمة:

- لو تعلمين كم آسفة أنا أختي، لكنني ما ظننتني قادرة على رؤيتهم.. فتبيّن أنّني غير قادرة على ألاّ أراك أنتِ وأشاركك فرحتك مهما كلّفني ذلك من غصّة وكدر.

تذكّرت جوري فاستعجلت استفسرت:

- وهل صادفته؟

طأطـأت آسـتر رأسـها فمالـت دمعتهـا ومـلأت عينهـا وكادت تـنزل:

- نعم.

ثمّ أفلتت منها الدمعة:

- لكنّه تجاهلني.

أخـذت جـوري مـن عـلى عينهـا يدهـا تـردّ بهـا دموعـا التحقـن ويطالـبن بالحريّـة، احتضنتهـا بيديهـا:

- لا يسـتحق عنـاء حبـك حبيبـتي، وآه آه لـو كنـت أعلـم! مـا كنـت سـمحت لأُحُـد يومهـا أن يأخـذ مكانـك فتأخـذي أنـت مكانه قـرب «نيـل» هـذا.. هـذا القلـب الفرعـوني!

عـادت الشـمس أطلّـت عـلى وجـه آسـتر مجفّفـة مقلـة عينهـا، ابتسـمت وحطّـت يدهـا الثانيـة عـلى ضمّـة صديقتهـا ليدهـا الأولى:

- وإذن ربّمـا مـا كنـت الليلـة لأنـال حظـوة أن أشـهد وصـال أجمـل إنسـانين قلبـا وقالبـا رأيتهمـا في حيـاتي، وأعـزّ أصدقـائي.

ابتسمت جوري فواصلت آستر:

-أُحُد يستحق، جوري.. أُحُد يستحق..

أكّدت وهي تربّت على يدها.

اللّقاء

مبكّرة بعض الشيء، وصلت جوري إلى قاعة أوّل محاضرة، قبل آستر التي كانت اتصلت بها وأعلمتها أنّها قد تتأخر بسبب بطء يوشك على أن يكون ركودا في حركة المرور، وهذا أمر ليس بالغريب ولا بالمتجاوز رتبته داخل صف التسلسل المنطقي للأحداث، فقط مترتبة حتمية عن الانفجار الديموغرافي، أنّ سعة الطريق غدت لا تحتمل كثافة مركبية نامية نمو الكثافة السكانية.

حجزت على مقعدين، لها ولصديقتها الملتحقة، لا هما في الواجهة ولا هما في الأقاصي، وجلست تنتظر أمامها دفترها وعلى غلافه كانت اختارت لها شعارا: «على قدر حب المرأة يكون انتقامها»، وذلك استجابة لإعلان الأستاذ المحاضر الذي كان طلب فيه ألّا يقدم طالب إلّا وقد اتّخذ له على دفتره شعارا، ثم وهي كذلك جالسة تنظر وتنتظر، التفتت إلى المدخل ترقب حلول آستر، وإذا بشاب وسيم مهيب جلس خلفها مباشرة، وكان قبلُ نظر إليها نظرة أثنت عليها، قال لها مبتسما بعد أن تنحنح لتحريك صوته وبعثه من مرقده وهي تهمّ بأن تعود إلى وضعيتها الأولى منسحبة عن التفاتها:

- شكسبير...

انسحبت عن انسحابها وردّت غير متأكدة أنها من خاطب:

- عفوا؟

قال وقد تخفف ابتسامة من بعض غلوّه:

- المقولة على دفترك، إنها لشكسبير..

وكأنّ شدة تبسّمه الأولى الطائرة عنه طارت إليها وحطت عندها شبه ضحكة دافئة، رمقت وجه دفترها وأقرّت:

- فعلا.. إنها له.

ثم كردّ فعل عن فعله، عاينت دفتره الذي بين يديه، وقرأت سرا ما على غلافه «لا يهمّني متى وأين سأموت»، فتعرّفت جهرا:

- تشي جيفارا!

ابتسم وقد غض بصره عن شديد التحديق فيها..

علّقت، فقد كان بما نقش أثار فضولها:

- لكنني أظنّ المقولة مبتورة هكذا!

رفع إعجابه إليها أخرى ووضّح وجهة نظره:

- عندما وقعت عليها أول مرة استفزّني منها ما نقشت، ومذ ذاك اتخذته هدفا أن أعثر لهذه الكلمات القلائل والتي على الرغم من ذلك فقصّة بحدّ ذاتها.. عن نهاية.. لا أنكر أنّني انحنيت تقديرا لتتمّته، رجل همّه الفقراء والبائسون والمظلومون.. لكنّها تبقى تتمّته، فاستفزّني للبحث عن تعريف لنفسي، عن ملخّص لطموحي.. وأقصد هنا استفزازا إيجابيا طبعا، من ذاك النوع الذي يحفّز عملية التفكير..

فعـلا، مـا هـو الـشيء الـذي بعـده سأشـعر بأنـني لـو رحلـت عـن هـذه الحيـاة، فـلا بـأس بذلـك؟ شيء يجعلـكِ تشـعرين بالاكتفـاء، بالرضـا.. وأنـا صدّقيـني مـذ صدّقـت المقولـة في بحثها عـن غايـة صادقتهـا، وإنّ خَلَـدي ببحـثي لفـي كبـد ونصـب.

ابتسم وبادرعندما لاحظ انغماسها في كلامه:

- كأنّني نسيت الأصول.. أنا أُحُد.

انصرف انبهارها عن قوله نحو اسمه، ابتسمت في فكاهة:

- الجبل أم المعركة؟

اخشوشنت نظرته مازحا:

- ما رأيك؟

ثـمّ تابـع غـير تـارك لهـا مجـالا للـرد، سـؤاله لـم يُـدرج كجـواب ولا انتظـر جوابـا، فقـط صـدر عـن خفـة روح وحـس دعابـة ينصـح بهمـا سـلوك راق كتجـاوب مـع متحـدث فاكـه:

- إذن أنـت مـن الذيـن يبحثـون عـن نهايـة أو بدايـة لإشـكالية البيضـة والدجاجـة؟

لـم تفهـم.. فلـم تقـل شـيئا، وهـو فهـم ذلـك مـن نظـرة اسـتغراب غطّـت عينيهـا، وأصـلا كان سـؤالا مبهمـا بـدا خارجـا عـن الموضـوع.

توضّح واثقا:

- لـن يعـترض المنطـق عـلى قولنـا لمّـا نقـول أنّ البدايـة مـع الأصــل والنهايــة مــع الفــرع.. ليــس منطقيــا أن تعتقــدي أن التمـرة كانـت قبـل النخلـة.. بالمثـل يجـدر الاعتقـاد أن الدجاجـة كانــت قبــل البيضــة، وقياســا عــلى ذلــك فـ«أُحُــد» نســبة إلى الجبـل لأن المعركـة ذاتهـا نسـبة إلى الجبـل.. لا تتوهـي كثـيرا، هـي قاعـدة بسـيطة: إذا أردت أن تعـرفي الأول فهـو الأصـل وإذا أردت الأصــل فهــو الأول.

شـعرت كأنـه نسـيم ذو شـذى مـرّ عـلى إحساسـها وداعـب قلبهـا، قالـت وأسراب قلـوب خافقـة عـبرت سـماء نظرتهـا انبهـارا بذلـك الرجـل الوزيـن:

- إثراءٌ التعرف إلى مثلك أُحُد.. وأنا جوري.

فهـم وفهمـت بـأنّ الاسـم الجديـد المضـاف تـوا إلى قائمـة المعـارف سـيكون لهمـا معـه شـأن أعظـم مـن مجـرد المعرفـة والزمالـة والصداقـة جميعـا.

التحقـت آسـتر لهـثى، وقاطعتهمـا ترفـرف حولهمـا فراشـات موسـيقية شـفّافة اجتذبتهـا أزهـار نبتـت في ريـاض نظرتيهمـا، فلـو صادهـا عـازف وأطعمهـا آلتـه لصـاغ منهـا قطعـة كلاسـيكية قـد تكـون الأكـثر شـاعرية ورومانسـية عـلى الإطـلاق، عـلى وقعها كانـت عينـه تدعوهـا، تعـرض يدهـا وتقـول: «هـل لي شرف هـذه الرقصـة؟»، عـلى وقعهـا همّـت عينهـا أن تنـاول يدهـا...

- تدحرجي أو دعيني أمرّ.

قالت آستر غير مستوعبة المشهد.

قامت جوري من مكانها لا تريد أن تبدّله فيتبدّل لذلك الجوار، قالت:

- مرّي.

ثم لأُحُد وهي تشير إلى آستر:

- آستر، أعزّ صديقاتي.. أو قل أختي التي لم ينجبها والداي!

ولآستر المبهوتة قليلا:

- أُحُد.. زميل لنا.

قالت ذلك وهي تتفادى نظرته.

في تلك اللحظة التحق بأُحُد شاب آخر لا يقلّ مظهره أهمّية عنه، فضحك الأوّل وقال:

- وهذا نيل، ابن عمّي.

ولنيل مشيرا إلى من تعني له وبعدها من تعني لها:

- جوري وصديقتها آستر.

ثمّ وهو ينظر في عيني جوري:

- وأرجو أن تصيرا أكثر من زميلتين.

ابتسموا أربعتهم وكل واحد منهم يحرك ملامح وجهه وفقا للذي ترجمته اللغوية كلمات ترحيبية من قبيل تشرفت

ولي كل الشرف، ثم مزق أُحُد إحراج صمت يصيب عادة مثل ذلك الموقف بأن توجه إلى آستر برجاء:

- ألا تعيرينني مكانك آستر؟ لهذه المرة فقط.

نظرت آستر إلى جوري كأن لتستأذنها، فأذنت البسمة، لكنها بالمقابل ترددت أكثر عندما تعلق الأمر بأن تجلس هي قرب نيل، صارت تدور بعينيها في القاعة، وكان واضحا أنها تبغي من ذاك العثور على مكان بديل، فأبى أُحُد أن يكون السبب في نفيها بعيدا، خاصة وأنّ القاعة كانت امتلأت مقاعدها عموما من سوى التي لن يسمع جالسها ولن يبصر كافيا، قال لها مازحا مشجعا إياها على أخذ مكانه:

- ليس عليك أن تقلقي أبدا أو تخشي شيئا، أضمن لك أنّ هذا الكائن لا يعضّ!

ولم تكن نكتة سامجة.

بعد أن وُضعت أمام الأمر الواقع، شعرت آستر بالإحراج وفقدت من ارتياحها، ذلك أنّ نيل لم يكن أقل وسامة من ابن عمّه، بل في الحقيقة كان يقربه خَلْقا لدرجة أنّ أول وهلة لرائيهما كانت تكفي كي يقول يقربه دما.

تفهّم نيل ما شعر بأنّ جارته تشعر به، فقدّر أن عليه تلطيف الأجواء المشحونة بالقرب منه. نظر إلى دفترها بجانب دفتره لمّا كانت هي ترمق وجه دفتره كذلك، قرأ لها ما مدوّن على غلافها: «الحب هو تاريخ المرأة، وليس

إلاّ حادثا عابرا في حياة الرجل»، ردّت هي لا شعوريا أسمعته مكتوبه، وقد صرفها التركيز والتفكير عن وجلها: «هناك عدّة طرق لمقاومة الإغراء، والطريقة المثلى أن تكون جبانا»..

عاد طرف الكلام إليه:

- مارك توين.. أنتِ؟

فهمت أنه يريد مقولته ومقولتها فردّت:

- مدام دو ستايل..

ابتسم مازحا:

- تشرّفنا!

ضحكت فارتخت فعلّقت وهي تتوسّم الحسنة التي أوتيها خَلقه :

- لا أصدق أنك قد تكون جبانا، أيها النهر العظيم! لأنّي.. لا أراك إلا جارفا.

تواضع مجراه لإكبار تلك المهرة العربيّة الأصيلة، يعدو جمالها البوكاهانتسي على ضفّته بعنفوان أغرى عنفوانه، فبالكاد فاه:

- «آستر».. اسمك أنغام.

شكر ابتسامُها إطراءه، بعد أول الأمر أين كانت منقبضة، الفرق واضح، صارت متحمّسة فأخبرته ما تعلّمه به معنى

تلـك الأنغـام:

- إنها زهرة الصبر.

تحمّس لحماستها:

- نهر هادئ وزهرة جميلة إلى جانبه، ما أجملها من لوحة..

ثـم كأنّـه اعـتراه ضعـف مـا أصـاب مـن نظرتـه ونـبرة صوتـه معـا، فانزلـق مـن شـفتيه عـرض متـسرِّع:

- مـا رأيـك لـو نرسـمها، هكـذا نحكـم عـلى كل منهمـا بالآخـر إلى الأبـد؟

مالـت بنظرتهـا المرتعـدة إلى مـدام دو سـتايل.. كانـت تعلـم أنهـا لـن تحظـى بمباركتهـا تلـك، فأشـاحت عنهـا سريعـا حـتى لا تذهـب مواعظهـا بنشـوة اللحظـة، صـار عقلهـا في قبضـة قلبهـا:

- إلى الأبد..

انضـمّ المحـاضر أنهـى بحضـوره كل الدردشـات، كي يعـمّ الهـدوء قاعـة الفلاسـفة. ثـمّ مـن وقـت لآخـر طيلـة زمـن المحـاضرة، كان أُحُـد يفلـت مقطعـا منهـا أو مقطعـين دون قصد منـه، ذاقـت عيناه حـلاوة جمـال مختلفـة، هـو عاشـق الجمـال.. فرجـع بحاجـة إلى جرعـة جديـدة مـن تلـك الصـورة القريبـة كلمـا نفـد مفعـول سـابقتها، ومـا كان مفعولهـا بطويـل الأمـد.. شـعر بالسـعادة، بقلبـه يرقـص بـدل أن ينبـض، مفعمـا بأمـل بهيـج جبـار غريـب..

ما هذا؟ هل يُعقل أنّه...؟!

على الأقل إنها هي ما من شك!

هذه المهرة البربريّة النمشاء.. هي فتاة أحلامه.

***

بعد بضع ساعة ونصف، وقع أذان العشاء على وليمة العشاء، يدور المدعوّون على هنيئها ومريئها تزخر بأصنافه الطاولات. هو أمر غير أكيد لكن محتمل جدا نظرا للإقبال الذي لاقته المعروضات من الأطباق: أنّهن يا لهن من شيفات الطباخات! فكرت جوري، أو ربما مستوى الأنسولين انخفض في الدم من شدة ما اهتزّت الأجساد واضطربت، فأيّة زلازل تلك التي كانت تضرب المعزوفات عليها؟ طاقة! لن يطيقها سلّم ريختر.. لكنّ الأكيد أنهن حرقن من السعرات الحرارية ما لو على بساط تمارين رياضية كنّ تعبن ومللن عُشُره.. إنّه جبروت المتعة!

شعرت بالبرد، هي لم تأكل شيئًا منذ الصباح، منذ بعض سلطة الفواكه تلك التي ظلّت أختها وبنات خالاتها وأخوالها وعمّاتها وأعمامها، يحرّضنها على فيتاميناتها أنّ بشرتها وسائر جمالها بحاجة إليها في مثل ذاك اليوم الجلل. أمكن منها برد تلك الليلة بالرغم من أنّ التدفئة ما كانت القاعة صفرا منها، لأنّ جسدها من كان صفرا من الطاقة، بل كأنّه كان

يرفـض النـوع المعتـاد مـن الطاقـة، معتمـدا عـلى اشـتعال أعصابهـا في تزويـده.

مـن وقـت لآخـر كانـت تقـوم، تقصد غرفـة مخصصـة للعروس في تلـك القاعـة، تعيـد النظـر في مكياجهـا، تحسـو شربـة مـاء، تسـهو عـلى ملامـح وحـركات آسـتر في المـرآة، وتلـك سـعيدة لسـعادتها وتنعـش لهـا بعـض الـذي اهـترأ مـن زينتهـا.

صداقتهمـا لـم تكـن حديثـة.. هـي تعـرف آسـتر مـذ أيـام الثانويـة، مـذ أوّل سـنة فيهـا، كانتـا اسـمين متتاليـين عـلى قائمـة الحضـور لواحـد مـن الأقسـام العلميـة، ثـم في السـنة الثانيـة افترقتـا عـن نفـس القسـم، حيـث بقيـت آسـتر لمّـا وُجِّهـت جـوري إلى شـعبة أخـرى، وعندمـا حانـت البكالوريـا، قـرّرت جـوري أن تتبـدّل شـعبتها بشـعبة أدبيـة، يقينـا لنفسـها نجاحـا في تلـك كمـا تأكّـدت لهـا رسـوبا في الأخـرى، ذلـك أنّهـا كانـت تحـب الأدبيـات لرفقهـا بعقلهـا، في حـين كانـت العلميـات تعصـف بـه، ومـا كانـت تنجـح في هـذه الأخـيرة إلاّ لأنّهـا كانـت تعمـل عليهـا بطريقـة أدبيـة، شيء كحفظهـا دون اسـتيعاب مراميهـا حقـا. ونجحتـا كلتاهمـا، وهمـا لـم تفتـر علاقتهمـا طيلـة الفـترة الماضيـة.

ولأنهـا كانـت ثوريـة الشـخصية متمـردة، لـم تـرض جـوري لنفسـها دور العـنزة الـتي لا تحيـد عـن القطيـع،

أرادت أن تخالـف الدهمـاء الـتي كانـت تتدافـع عـلى اللغتـين الأجنبيتـين بـأن تجـرب شـيئا جديـدا لا يجـازف بمثلـه إلاّ جـرىء،

فاختـارت –وكان أسرهـا عمقهـا قبـلا- «الفلسـفة».

آسـتر لـم يكـن مجموعهـا أتـاح لهـا واحـدا مـن الاختصاصـات الثلاثـة الـتي حكـر عليهـا الميداليـات، فأشـارا عـلى تدارسـها الاحتمـالات الأخـرى باحتمـال يفـتن غموضـه اختيـار صديقتهـا وشـخصها الفريـد الميّـال إلى كلّ جديـد، أحبـت إلى جنـب ذلـك لـو تعـودان معـا كمـا في أول سـنة في الثانويـة.. تحمّسـت كافيـا، فقفـزت مـن ورائهـا.

***

في الجهـة الأخـرى مـن القاعـة حيـث الرجـال، لـم يكـن مـن صخـب سـوى ذاك المنبعـث مـن جهـة النسـاء، كان الجميـع يتحادثـون بشاشـة حـول طـاولات العشـاء، وأُحُـد يـروح ويجـيء بينهـم، يتأكّـد أنهـم حظـوا بالخدمـة عـلى أكمـل وجـه، لا يريـد تقصـيرا في الضيافـة أو عيبـا في الكـرم، فهـؤلاء لبّـوه ليفرحـوا فرحـه، ولمّـا اطمـأنّ أنّ الرضـا سـيد الجـو، تسـلل مـن القاعـة طلبـا لبعـض الانفـراد شـعره فجـأة بحاجـة إليـه.

في الخـارج، لـم يرحّـب بـه الـبرد، اسـتقبله بصفعـة كادت تعـود بـه أدراجـه : لـولا أن ضـمّ سـترته إليـه, فـردّت عنـه بعـض تلـك الفظاظـة الـتي لا يطـاق منهـا وتحمّـل هـو البـاقي، انتابـه أنـه ربمـا أخطـأ عندمـا سـمح لجـوري باختيـار موعـد العـرس حـتى أخّرتـه ضـدّا لرغبتـه إلى آخـر شـهور السـنة وأشـدّها بـردا، وقـد كان يفضّـل شـهرا ربيعيـا باسـم الشـمس يتمـاشى ومناسـبة

سعيدة، لكنها رفضت وعاندت متخذة عدم فراغها من تجهيز نفسها ذريعة، وهو يعلم جيدا أنها ما كانت إلّا تماطل. رضخ لإرادتها حتى لا تنقلب تلك الذريعة إلى واحدة تبرر بها فسخ الخطوبة.. فلعله في آخر الأمر ما كان له من خيار آخر سوى الموافقة.

استدعى القمر بصره إلى السماء، وألهمه بعض المراجعة..

في الحقيقة، هو لم ينتق الفلسفة ذات يوم، هي من انتقته قبلا وفهمته، وحدها.. فهمته.

تجلّى أُحُد منذ أولى السنوات التي انتقلت به من الطفولة إلى الشباب مراهقا لا يرهق إلاّ في سبيل والدته وأخواته ودراسته، فشبّ صائبا سديدا.. لعل وفاة والده صقلته، فقد كان رحل عنهم مبكرا مفوضا مكرها مشعل المسؤولية لأخيه الأكبر «أوْراس»، وطبعا بذرة الرجل الجبل فيه أبت إلاّ أن يتقاسم العبء مع أخيه ويحمل عنه من أثقاله، فكانا خير خلف لوالدهما الفلاّح القويّ المجدّ، ونعم الابنان والأخوان.

في دراسته، يذكر أن الفلسفة كان لها وقع مختلف عليه، لم تكن متابعة حصصها محض واجب ولا مراجعتها بحت لازم، اتفق معها كثيرا حتى علم أنها التي سيتبع سمتها لاحقا بعد أن انتقل إلى الثانوية أدبيا، وهناك تخصص فيها كأوّل إجراء، وكانت رغباته لا توجيهات مفروضة عليه، إذ مردوده الدراسي كان ليمنحه شعبة اللغات كما كان الختامي لمرحلة التعليم المتوسّط ليعطيه الحق في الانتساب إلى

الشعبة العلمية مختارة نيل، من لم يلبث سئم المجال العلمي، فلو كان ينجح فيه فالفضل لشقّ النفس، ثم كم أعياه قبل أن يوافق عليه طالبا جامعيا.. البكالوريا أعادها ثلاث مرات، والثالثة فقط التي كانت الثابتة، فقرّر أن يواصل مشواره التعليمي مع ابن عمّه بعد أن التقى النجاحان، كان يريد أن يؤنسه ويعلم أنه قادر على ملء رأسيهما في نفس الوقت، فذاك طرح الامتحان أرضا من المحاولة الأولى.. كما كانت لأُحُد طريقة جذابة مغرية في الحديث عن التي يهوى أمّ العلوم ومسعّرة الفكر، على حدّ قوله، فكان ما كان، وتسجّل نيل مشروع فيلسوف هو الآخر.

قدما من منطقة جبلية إلى وسط المدينة لأجل مزاولة دراستهما الجامعية، ومتانة علاقة أُحُد بذاك التوجه العلمي والاتجاه الفكري أحكمت قبضتها عليه في كلية الفلسفة.. يوم أهدته جوري.

عاد خطوتين إلى الوراء، اتّكأ بظهره على الحائط ونظرته القاتمة تتحدّى السماء القاتمة، تلمع لمعان نجومها، معلّقة بها تعلّق رضيع بثدي أمّه، تسألها.. هل سينجح في استئصال ورم طعنته من قلب حبيبته؟ هل سيستطيع محو كل تلك المسافة التي رسمها هجر كل تلك السنوات؟ هل سيستعيدها؟

تلك المرهفة التي كانت حسبها من الحياة كلها.. طلّته.

ابتعد عن الجدار وهو لا يدري، : أحبيبات الجامد من

ذاك الجماد بدأت تتسّرب إلى داخله مخترقة حاجز سترته؟ أم أنّه آخر ما راوده من أفكار؟ بث رعبا باردا، اصطكّ له ظهره.

***

بدأت الحمولة عن ظهر القاعة تخفّ شيئا فشيئا، حتى ما بقي عليه غريب، إلاّ أقرب قريب أمست جوري ترى، دخل شهاب واقترب من تجمعهن حولها ثم قال:

- تجهّزي أختي، أُحُد بانتظارك.

لبس وجهها صفرة أفقع من تلك التي يصبغ بها شحوب البرد مخلوطا بانخفاض سكر الدم، حانت لحظة التغيير الكبير والميلاد الثاني.. ابتلعت ريقها وهي تشعر بارتباك ضيَّقَ على قلبها، صارحت والدتها بنظرة متردّدة، تضعضعت بين يديها، فرّت إليها تحضنها وتطلب حضنها، وهناك قفزت دموعها من على شرفات العين العالية، لم تكن متفائلة ولم تكن تتعمّد ذلك التشاؤم.. إحساس مُرّ يلاحقها أينما من التناسي والتجاهل حلّت هاربة منه، من الآن فصاعدا واجب عليها أن تحب هذا الرجل طوعا وهي تحبه كرها، عليها أن تنسى ما لا يُنسى من الوجع، أن تغضّ الطرف عن جراح جليّة، أن تعفو، والعفو لا يكون إلاّ عند المقدرة.. هل هي من حمّلت نفسها كل هذا؟ أم أنّه قدرها من يحمّلها كلّ هذا؟ كيف ستبلي؟ وروحها كسيرة وقلبها عليل؟ وعلى الرغم من أنه مَن وراء كسر روحها وعلّة قلبها،

فإنها لا تريد أن تكون تكفير ذنبه، ولا أن تأخذ بثأرها لنفسها منه بنفسها، لا تريد أن تقتص منه، لا تريد أن تحاكمه أو تحكم عليه، الله على الظالمين! الله مع التائبين! هي أضعف من أن تعذّب، هي أضعف من أن تسامح، تخشى لو عذّبت أن تهلك بعذابها، تخشى لو سامحت أن تتبرّأ منها جراحها وتنفر من جسدها روحها.. يا الله! ما هذا الذي ورّطت نفسها فيه؟ لماذا وافقت؟ ادّعت أنّها كانت مكرهة بطريقة غير مباشرة، المجتمع والأهل والسنّ.. وكانت مكرهة حقا وبطريقة غير مباشرة حقيقة، لكن لا دخل للمجتمع فيها ولا للأهل ولا للسنّ، لأنّها كانت مكرهة قلبها.

دنا بكاؤها من أن يصدر صوتا، فانعتقت منها والدتها بلين، وابتسمت لها وهي تمسح دموعها، وتطلق من تلك الضحكات التي خلفها من الشجا ما مؤجّج سخونة قلب أمّ تهب ابنتها، التي حملتها وولدتها وأرضعتها وربّتها حتى نمت امرأة زاهرة، وهي تقول:

- ياي على مدلّلتي، ماذا صنعت منك أنا؟ من يراك يقول لن ترينا بعد اليوم أبدا!

أحضرت لها شِفاء برنوسها وساعدتها آستر على جعله عليها، فيما كانت والدتها غابت دقائق معدودات كي تعود وفي يدها وشاحها، مدّته لها قائلة: هذه ليلة باردة، ستحتاجين إليه.

تناولته جوري حتى وهي لا ترجّح احتمال حاجتها إلى مثله

فسيارة أُحُد مجهّزة بتدفئة، لكنها أمسكته لحاجة أخرى، عاطفية ربّما.. وهو أفلت دموعها مجدّدا.

أطلّ شهاب:

- هيّا أختي..

تأمّلت وجه والدتها قبل أن تغيب، رأته أجمل من بدر تلك الليلة الشتوية القارسة البرد المستعيرة من الصيف صفاء سمائه، فغنيّة نجوم مشعّة..

كان يوما غريبا حقّا، متناقض السماء بين نهاره وليله.

قبّلت يدها وتوسّلت رضاءها واستجدت دعاءها، والحنونة ما حرمتها، وأسبغت عليها من نعم الاثنين.

التفتت إلى أختها تريد تقبيلها وأن ترجو لها ليلة سعيدة وأحلاما هنيّة، فالليلة لن تكون بجوارها ولن تشهد نومها ولا سِنته، لكنّ شِفاء كانت مشاكسة الطبع لعوب طريفة، ابتسمت لها خبيثا ثم والأخرى تقبّلها همست في أذنها: أريد تقريرا مفصّلا..

فضربتها على ذراعها مازحة الباكية، وتلك انفجرت ضاحكة مضحكة المشجونة معها. استلمتها آستر، تعانقتا زمنا دون أن تنبسا ببنت شفة، فالكلام احتقن ووحده الصّمت أذعن للشجا.

رافقنها إلى فتح الباب حيث داهمهنّ الزمهرير، فاستنجدت جوري بوشاح والدتها وضمّته ضمّة القبر على أعلى جهاتها

الأربـع. كان والدهـا أوّل الوقـوف المنتظرين، أخـذ بيدها وضمّها إلى صـدره بأقـوى مـن الـذي كانـت تضـمّ بـه طيـب والدتهـا حـتى نسـيت غطاءهـا في دفء حضنـه، وضمّتـه كما كانت تضـمّ الأوّل. ثـمّ بنفـس مـزاج أختـه شِـفاء، ربّـت شـهاب عـلى كتـف أختـه الكـبرى قائـلا في نـبرة كاسرة للأحـزان:

- هيّـا هيّـا أيّتهـا المجنّـدة، هـل كنـت تحسـبين أنّـك معفيـة مـن الخدمـة العسـكرية؟ سـترين هـذا الهـداد إلامَ يتحـوّل في ثكنـة المـلازم أُحُـد!

تحـرّك أُحُـد مـن خلـف والدهـا إلى الواجهـة، ونطـق وهـو يضـمّ ابتسـامة عطوفـة إلى ضحكاتهـم:

- بل أُطبق عليها جفناي سكنى لها.

رفعـت جـوري عينـين تناسـلت حولهمـا قطـرات مـن مـاء فكأنّهما زهرتـان فاتحتـان فاتنتـان مملوءتـان نـدى، إلى قمّـة ذاك الطّـور المُنيـف قُبالتهـا، فقـرأت في لحظـة واحـدة في عـين واحـدة كتبـا بـل مجلّـدات عـن الحـب وطـرّ أسـمائه، وشـاهدت لهـا تعاريـف أخـرى، في عينـه الأخـرى.

سـاق والدهـا يدهـا إلى يـد صهـره وقـال قبـل أن يودعـه الأمانـة:

- طلبـتَ يدهـا وهـا أنـا أعطيكهـا، ولا أحـبّ إلى قلـبي منهـا تبقـى في يـدي أبـدا مـا بقيـت.. هـل رأيـت يـا بـنيّ كـم أحببتـك وكـم آثرتـك؟ فاحفـظ أمانـتي كمـا حفظتُهـا وأحببتُها هبـة من الله

ربّي، ولا تكن يدك إلاّ لها فترى فيها يدي، فإلّا تكن فاحفظ أنّ لها أبا، واذكر أن له يدا! خذ يا ولدي، خذ.. لقد حظيت بثقتي، فابنتي.

طأطأ الجبل قمّته اعترافا بكمال عطاء جبل أجلّ، وردّ وكلّه عزيمة على الشكر:

- حسن ظنّك له عندي جدوى، ولن يضيع سدى، ثق ولا تقلق أبدا يا أبي.

وفي تلك اللحظة الشاعرية الصادقة، صارت يدها في يده.

التحق أوراس، ألحّ على أخيه إذا كان متأكّدا أنّه لا يريده أن يتولّى القيادة عنه، وأُحُد كان صارما في رفضه الشكور وغير الكفور عرْض الخدمة، فدعا له ولعروسه بالسعادة والهناء، وردّ أُحُد بأنّ سعادته لن تكتمل إلاّ يوم يراه عريسا هو الآخر.

ومضى العريسان، ممسك أُحُد بيد جوري بقوّة يد أمّ تقطع بيد صغيرها الطريق وتخشى عليه سيّاراته، فتح لها الباب، وراحت هي تلخّص كوكب ثوبها عليها لأجل أن يستوعبها مكانها، فلمّا احتواها وألجم هو الباب عليها، مشى إلى مقصورته، وكانت الوالدتان والأخوات وبعض القريبات الأخريات خرجن بعد أنّهنّ تحجّبن وتدثّرن، تجمهرن حول الوالد والأخوين وبعض المقرّبين، حتّى عندما شغّل أُحُد مفتاح السيارة، بدأ الجميع يلوّحون بأيديهم ويبتسمون ويدعون ويودّعون المركبة المنطلقة.

نادت والدة جوري على ابنها وسط النّفر المودّع:

- شـهاب ولـدي، خـذ معـك شِـفاء واذهـب اصطحـب أختـك آسـتر إلى بيتهـا.

كان أوراس عـلى مقربـة، إذ يتحـيّن فرصـة كهـذه، التقـط الطلب جـوّا قبل شـهاب:

- في وسـعي ذلـك خالـتي، عـلى أيّ حـال لا بـدّ لي مـن إقـلال بعـض صديقـات أخـواتي، وطبعـا سـتكون إحداهـنّ معـي.. ثـمّ حتمـا أنتـم بحاجـة إلى شـهاب لأمـور أهـمّ.

وكانـت الأولى مـن بـين أخواتـه الثـلاث الـتي وقعـت عليهـا عـين بحثـه كبراهـنّ «هـلا»، فصـات في ندائـه لهـا إذ كانـت بينـه وبينهـا مسـافة لا بـأس بهـا، رجاهـا مرافقتـه لمرافقـة صديقـة عروسـهم، ولتـأت بصديقتها أو أخـرى تنتظـر توصيلـة لـو تشـاء ذلـك، غـير أنّهـا اعتـذرت منـه أنّهـا منهكـة تمامـا وصديقتهـا المقرّبـة سـتبيت عندهـم، ثـم وجهتـه إلى «حـلا» الـتي بعدمـا دار ببـصره في الأرجـاء المحيطـة دورة كاملـة مـا وجدهـا حـاضرة مجالـه البـصري، ولأنّ الصغـرى «غـلا» كانـت عـلى مقربـة حـتى وهـو لـم ينتبـه لهـا، سـمعت كلام أخيهـا وأختهـا وتعلـم عـن أراضي أختهـم حـلا أنّهـا ذهبـت منـذ وقـت قليـل رفقـة عمّهـم لإيصـال صديقتهـا، انقضّـت عـلى عـرض أخيهـا ووافقـت عـلى مرافقتـه شريطـة أن يقـلّا صديقتهـا هـي.

وإبّـان كلّ ذاك، لـم تكـن آسـتر غائبـة، سـمعت كلّ مـا دار بينهـم مـن أحاديـث تعنيهـا، ولـو أنّهـا فضّلـت في قـرارة نفسـها

أن يكـون شـهاب مُقلّهـا، فإنّهـا لـم يكـن لهـا الخـيرة مـن أمرهـا مـن بعـد أنّ ذاك مـا انتظـر إلحـاح أوراس وتنـازل لـه عـن المهمّـة عـن طيـب خاطـر، فقـد كان ينتظـره مـن المشـاوير الكفـاف، ومـا لبـث أن طـاروا بـه، وبهـذا اضطـرّت أن تقبـل كـرم أوراس متوصّلـة إلى نتيجـة.. أنّهـا إن جلسـت قـرب رجـل وكان في ذلـك بعـض الإحـراج، فهـي جـوري بطريقـة أو بأخـرى.

صـارت العلاقـة بـين أوراس وآسـتر حسّاسـة.. ملعـب وعـرٌ عسـيرةٌ ممارسـةُ العفويّـة عليـه بأريحيّـة، مـذ تقـدّم لهـا ورفضته ورفـض رفضهـا، للسـبب الأخـير هـي تعلـم جيّـدا أنّ مثـل هـذه الحـركات إنّمـا هـي محـاولات أخـرى لاسـتمالة عواطفهـا، لعلّهـا وعسـاها.

- بـارك اللـه فيـك أوراس.. : لقـد جـاء والـدي لمرافقـتي لكـن في وقـت مبكـر، فـأصرّت جـوري عـلى أن أظـلّ معهـا حـتّى نهايـة السّـهرة عـلى أنّ شـهاب مـن سـيقلّني فـــ..

قاطـع أوراس تكلّفهـا في تبريـرات مـا عـدّ لهـا مـن لـزوم، هـو مـا ابتهـج بـشيء في كل ذلـك الزفـاف ابتهاجـه بخدمتهـا وشـكرها:

- أرجـوك آسـتر، ومـا الداعـي لأن تشرحـي؟ أو عـلامَ تشـكرين؟ أنـتِ مـن الأهـل، وبيتـك في طريقنـا.

قـال مـا قـال وصرف وجهـه لآخـر مـا قـال تلقـاء السـيارة، وإلاّ كانـت نظرتـه فضحـت أمـره، فـكل الطريـق افتعلـه لأجلهـا.

***

تكاد الطريق تخلو من مستعمليها، وأوراس يسير بالفتيات.

بين الفينة والفينة، كانت نظراته تخرج عن طوعه، تراود مرآة السائق الصغيرة فوقه، فتلك كانت تعكس إغراء، والإغراء وإن لا بد مقاومته، فالإغراء عاصفة مقاومته.

كم تمنّى لو أنّ الحظ حالفه في هذه الجالسة خلفه، أظفره إياها ورضًا يا رب! ثمّ الطوفان على ما عداها بعدها، حالفه حظه أم حاربه.

لقد أحبّها حبا غريبا.. اشتعلت فسيلته الأولى كبذرة قُبِرت في أرض بور، ولكنّها بأمر كالمعجزة تنفجر فيها الحياة ولا سبب للحياة، وتنمو ولا سبب للنمو، حتى تطلع وتتصب على وجه الأرض شجرة باسقة مورقة مثمرة يانعة عميقة الجذور المتوغّلة، لا أمل في أن تقتلع. ففي ذلك الوقت كان يعلم بأنّها لرجل آخر، رجل ما هو إلاّ ابن عمّه في الحقيقة، وهي تهيم به أيّما هيام ومتيّمة به أيّما تتيّم، حتى أنّه يذكر جيّدا أوّل مرّة تعرّف عليها فيها، كانت تبكي تقلّبات نيل المزاجية على كتف جوري بجانب أُحُد، وهو يومها شعر تجاه دموعها بمتناقضين: رقّة قلب وحنوّ عظيم خالهما في بادئ الأمر مجرّد انعكاس لروحه الإنسانية أو صرف نتيجة حتميّة لنبل أخلاقه وشديد احترامه للمرأة ورفقه بجانبها اللين، وفي نفس الوقت انتابه عتب غليظ على من كان سببا في ذرفها.

بالمقابل لم تكن آستر تزيغ ببصرها عن زجاج نافذة باب

مقعدهـا ناحيـة المـرآة أبـدا، خشـية حصـول احتمـال وارد.. تصـادم نظرتيهمـا.

لـم تكـن تجهـل مشـاعره تجاههـا، لكنّهـا مازالـت غـير قـادرة عـلى تجاهـل مشـاعرها.

هـي تحترمـه كثـيرا، معجبـة بـه كثـيرا أيضـا، حـدّ التمـنّي لـو كان في وسـعها أن تخـرج مـن ظلمـات حبّهـا لنيـل، إلى نـور حـب أوراس لهـا.. تمـنّي وفقـط، لا سـبيل إلى تحقيقـه باجتهـاد مـا.

ومنذ متى تسمع القلوب من أصحابها؟

إنّه مغلوب على أصحابها في أمرها.. تلك الطّائشة.

أوراس رجـل مـن فئـة في انقـراض، مـن ذلـك النـوع مـن الرجـال الذيـن لا يمكـن ولا بحـال مـن الأحـوال أن يكـون معهـم في القلـب شريـك، ولا حـتى بقايـا شريـك، ولا حـتى شـبحه يجـوب أرجـاء قـصر القلـب المهجـور.

مثلـه في وظيفـة عاطفيـة لا يصلـح إلاّ رئيسـا أو أقلّـه مديـرا، والجـوْر عينـه تعيينـه مسـتخلفا أو نائبـا..

مثله يُتوّج، لا يستدعى عزاء في يوم تشييع.

أثـارت فيهـا أفـكارا ممجّـدة لـه عاطفـة مـا، فاختلسـت نظـرة عـلى وجـل، بـدا غارقـا في أفـكار ربّمـا تشـبه أفكارهـا، فـشردت تتأمّلـه..

هو ما كان أوسم من نيل، كان أشرف منه..

فبمجـرّد مـا تخـلّى عنهـا ذاك وانتـشر بعـد قليـل مـن ذاك بـين معارفهـم خـبر زواجـه، نشِـط أوراس إلى والدهـا يخطبهـا منـه، ووجـدت هـي في ردّة فعلـه تلـك ردّا لاعتبـار مسـلوب وجـبرا لكرامـة مكسـورة وبعـض التخفيـف، أمـور شـارفت بهـا خطـيرا عـلى أن تصـير زوجـة لـه، إلاّ أنّهـا انتهـت أفكارهـا الـتي فاضـت عـن رأسـها وخواطرهـا الـتي جـاش بهـا صدرهـا، انتهـت بردعهـا عـن موقفهـا المتهـوّر، فتراجعـت عـن تسـويةٍ اقترحتهـا عـلى قلبهـا المخـدوع كي يهـدأ، مسـاومة تقرّبـت بهـا إليـه كي تنجـو مـن بطشـه بهـا.. اتّفاقيّـة سـلام مـزوّرة عنوانهـا الـزواج برجـل لنسـيان رجـل آخـر.

وقتهـا كانـت أزمـة خيبـة مشـاعرها في أوجهـا، وتعـاني جرّاءهـا كآبـة مفرطـة، وهـذه كالحالـة المرضيّـة لـن ينصـح نطّـاسي بالـزواج استشـفاء لهـا.. أرادت أن تتعـافى أو كحـدّ أدنى أن تشـعر بأنّهـا عـلى طريـق العافيـة تمـضي بخطـى لا تعـرف مـا الرجـوع إلى الـوراء، مرقبلـة لا إدبـار منقـوش عـلى معجمهـا.. أن تسـتعيد قلبهـا فتعـود بـه قدرتهـا عـلى التعامـل مـع القضايـا العاطفيـة، عـلى السـباحة في بحـار المشـاعر الهائجـة.. كانـت بحاجـة قبـل حـب جديـد إلى الوقـت.. شيء كقطعـة زمنيـة فاصلـة.. مسـافة بـين الرجلـين.. أمـر لـم يسـتوعبه أحـد ممـن كانـوا عـلى درايـة بقصّتهـا، وجـاءت التعليقـات اسـتخفافا بالـذي كانـت فيـه مـن آلام، وإهانـة لأحاسيسـها الغبيـة عـلى حـد قولهـم، فرفضهـا لرجـل جديـد مغـزاه وفـاء للرجـل القديـم، وكيـف تبقـى وفيّـة لمـن باعهـا ليـس بالفـول ولا حـتى بقشـوره؟ إنّمـا بـلا شيء.. أو لعـل بيعـا بـلا شيء يحتمـل تكلفـة أكـثر، إذ مـن يبيـع بالمجّـان

يحمـل السـلعة ويـنزل بهـا إلى السـوق ويعرضهـا وينتظـر أن يجـد لهـا راعيـا.

شـخص تخطّاهـا كمـا لـو كانـت إرب أرض طولـه ١٠ سـم.. أو ٥.. أو عشـبة بريـة.. كمـا لـو أنهـا مـا كانـت..

كما لو أنّ شيئا لم يكن. كيف استطاع ذلك؟

صاعقـة الطريقـة الـتي يقلـب بهـا بعـض النـاس.. صفحـة بعـض النـاس.

غامض أمر الحياة، مبهم أمر الحب..

هـذا يحـب ذاك، وذاك يحـب آخـر، وآخـر يحـب غـيرًا، وغـير يحـب مغايـرًا.. لكأنّـه خـط مسـتقيم، كل نقطـة مـن نقاطـه قُـدّ قميصهـا مـن دبـر، ويمتـدّ المسـتقيم وتـدبّ النقـاط، والمسـتقيم لا ينتهـي والنقـاط لا تتوقـف، ومـع ذلـك لا تلتقـي نقطـة بنقطـة أبـدا.. ذلـك أنّـه ولا واحـدة منهـا تلتفـت للـتي آخـذة بطـوق قميصهـا معلّقـة بأسـتارها.. ولـو فعـل البعـض، لتضاعـف الكسـب.

شـعر بتحديقهـا فرفـع بـصره إليهـا أوقـف بذلـك حلقـة أفكارهـا، ارتبكـت فعـلا سـمار بشرتهـا الرمـلي حمـرة أزهـر لهـا وجههـا الوديـع، هربـت نظراتهـا إلى الزجـاج الأوّل، لكنهـا مـا عـادت تعـي المناظـر خلفـه، حـان دور عيونـه المحرومـة الملفوحـة بحـرّ البعـد، بحـرِّ القـرب! أن تسـتظلّ تحـت أغصانهـا المترفـة لتلـك الشـجرة الوارفـة الظـلال.

كـم كبـت نفسـه وقمعهـا كلمـا مثـل بـين يديهـا حـتى لا تثـور في حضرتهـا، لكـن في ليلـة العـرس تلـك..

إلهي كم كانت جميلة!

مـن غـير تكلّـف في زينتهـا، قلـم أسـود يرسـم الحـدود الدنيـا لعينهـا البنيـة الشـكولاتيّة، فيمـا كثافـة رمشـها الأعـلى الـتي تكفّلـت بالعليـا تعمـل عمـل القلـم عليهـا، ملمّـع شـفاه فاتـح لا تمكـن ملاحظتـه إلاّ لمعاينهـا عـن قـرب، إذ مـا كانـت أصرّت بـه عـلى شـفتيها الطفيفتـين ذهابـا وإيابـا، ولا جـدّدت بعـض جفافـه بعـد كل تلـك السـاعات.. قليـل بـدا أضفـى عـلى حسـنها الكثـير، لمـن تعوّدهـا شـفّافة المكيـاج.

اجتذبـت نعومـة شـعرها المصفّـف خمارهـا الـذي أشرقـت لانعكاسـه أرجـاء بشرتهـا الصافيـة، فانزلـق يطاوعهـا تدريجيّـا إلى أن قاربـت عـلى إلقائـه خلـف رأسـها لـولا أن نبّهتهـا مـن شرود جديـد صديقـة غـلا الجالسـة قربهـا، فارتعبـت وعـادت بـه كأنّهـا زاجـرة إيّـاه إلى مكانـه وكل شـعرة متمـرّدة عنـه إلى مكانهـا.. لـن تثـق فيـه مجـدّدا، قيّدتـه بإبهامهـا والسـبابة..

تهيّـأ لـه أنّـه في حياتـه مـا شـاهد ولا شـهد أمتـع مـن تلـك الدقائـق..

يا لزمنها!

يـا ليتهـا كانـت لـه، وهـو كمـا أخيـه الآن مـاض بالفـرج إلى الكـرب..

امتصّتــه أحلامــه فمــا انتبــه إلى الممهــل، قفــزت الســيارة، نطحــت الأرضيــة، فتزعزعــت للاضطــراب أجســادهم، عــادت نفوســهم ســكنت بعــد هنيهــة ، إلاّ هــو كأنّ تلــك النّطّــة كانــت كُفيــة للفــورة.. للثــورة!

للحظــة شــعر بجنــون لا يشــبه رزانتــه وطبعــه العقيل، وســوس لــه الانعطــاف بالســيارة عــن الطريــق، بمبادئــه عــن الطريــق المســتقيم، فليذهــب كل شيء إلى الجحيــم!

لــولا أختــه الصغــرى بجانبــه، ذكــرى.. والذكــرى تنفــع المؤمنــين.

تنهّــد مســتغفرا الله تائبــا إليــه جهــرا، ضارعــا إليــه سرّا أن يمــدّه بالقــوّة، الــتي يشــعر أحيانــا مــا بقــي لــه منهــا جــلّ يُذكــر ولا دقّ.. كمثل ذلك الحين.

***

عــلى طريــق أخــرى، نحــو وجهــة أخــرى، كانــت سرعــة المركبــة الأخــرى عــلى عكــس مخــزون الوقــود نافــد مخــزون صبرهــا، يطير أُحُــد داخلهــا بثلاثتهــم، ينظــر بــين الحــين والآخــر إلى الــتي خلــف حماســته الزائــدة، لا ينــسى أن يقــول ويقــول جميــلا، كإطــراء أو اهتمــام في قالــب استفســار أو مــن الطرائــف الخفيفــات الــتي لهــا أن تُــروّح عــن النفــس مــن الثقيــلات.

جــوري كانــت تنظــر عــبر النافــذة، تجيــب بــلا ســخاء وتتجــاوب

بـلا كـرم، كانـت الطريقـة الـتي تـردّ بهـا عقيمـة لا يمكـن أن يجـري لهـا حـوار، ففـي الغالـب تكتفـي بابتسـامة مـن وراء القلـب.. مـرّة هـي عـلى السـماء، مـرّة عـلى بسـاط الأرض المتحـرّك، ومـا هـو إلا زمـن قليـل حـتى ملّـت وجـه السـماء وملّـت وجـه الأرض وملّـت صـوت أُحُـد وملّـت صوتها يـردّ عـلى صـوت أُحُـد! كانـت غاضبـة، وتبـذل مجهـودا لغمـط غضبهـا هـو أضعـاف ذاك الـذي كان يبذلـه هـو لغويّـا في سـبيل الترفيـه عنهـا، ثـمّ عالجـت أمرهمـا بـأن عهـدت إلى سـدّ مخـارج الحـروف بتـصرّف يفتقـر إلى اللباقـة، سألتـه إن كان لا يزعجـه أن تسـتمع إلى بعـض موسـيقاها عـلى هاتفهـا.. أومـأ برأسـه مبتسـما، حـاول إخفـاء انزعاجـه، لكنهـا أخرجـت توتـره عـن صمتـه، فجـأة صـارت ربطـة عنقـه أكـثر انحسـارا مـن أن يتركهـا وشـأنها، يمسـح رأسـه، يتمسّـح بلحيتـه، يرمـق إطراقهـا، مسـحة الحـزن عـلى ملامحهـا، عـلى بصرهـا التائـه، يعـود يراقـب قيادتـه والطريـق.. هـل يعقـل كل هـذا الانقـلاب؟ ولا كأنّهـا حبيبتـه السـابقة، سـأل نفسـه وأجابهـا عاجـزا عـن إيهامهـا بالعكـس: نعـم يعقـل، ففراقهمـا كان طويـلا، طويـلا جـدّا.. تغـيّرت خلالـه شـكلا، فهـذه امـرأة باهـرة وتلـك شـابّة حلـوة، أمّـا عمقـا فمـا كان مـن تغـيّر سـارّ، فقـط تراجيديـا.

معزولـة السـمع عـن صمـت الليـل الـذي وحدهـا مركبتهـم كانـت تنتهـك حرمتـه باسـتعجال عجلاتهـا، بسـمّاعتي أذنيهـا تنقـلان إلى دماغهـا ألحـان نـاي ناعمـة، وتلـك ألفتهـا تحفّـزه عـلى إفـراز الأندروفـين.. آلـت إلى حـال أهـدأ، وكانـت في خضـمّ هوشـة ذهنيـة اعترتهـا.

الله على القدر وألعابه السحرية!

معـه يسـتحيل التنبـؤ بمصـير الحمامـة تحـت المنديـل، أو المـرأة في الصنـدوق، أو القطعـة النقديـة في قبضـة اليـد..

كل شيء ممكـن، وكل شيء هـذا ليـس للحـصر ولا هـو للإحصـاء..

قـد تبيـض الحمامـة نملـة تضـع نظـارات شمسـية تحـت المنديـل!

كمـا قـد تصـير المـرأة رجـلا داخـل الصنـدوق أو حصانـا أو كتابـا ناطقـا!

فيما تطير القطعة النقدية، تطير!

حـتى تلتحـق بالسـحب في السـماء، ثـم تهطـل غيثـا أو ذهبـا وفضـة أو تجلـس ببسـاطة وسـط السـماء باسـمة منازعة الشـمس في عرشـها، مدّعيـة أنهـا الشـمس نفسـها..

تطلّـب منهـا الأمـر زمنـا هـو أهـل لتكريـم وشـهادة شرفيـة كي.. تنساه.

هذا العائد إليها من بعيد، من مكان بعيد وزمان أبعد..

نسـيان لـو تقدّمـت بـه لرشّـحها لنيـل جائـزة نوبـل، إذ نسـيان خـاص..

نسيان.. بين الحاجة والنسيان.

لـم تقـدر عـلى نسـيان خالـص، حاولـت بـكل الطـرق، احتقرت مشـاعرها، حقّرته لمشـاعرها..

كتبـت عـلى ورقـة مئـة مـرة «لقـد جـزاكِ عـن الحـب والإخـلاص هجـرا ونكرانـا!» وعلّقتهـا عـلى حائطهـا تواجههـا بعينـين شـاخصتين كل ليلـة قبـل النـوم.. كلّ ليلـة!

اتّخـذت لهـا دفـترا صغـيرا سـمّته «الطعنـة» وراحـت كلّمـا شـعرت بأوجـاع الخيبـة تعاودهـا تقـيء فيـه ألمهـا الـذي سـبب في حزنهـا، الـذي سـبب في غضبهـا، وعـلى عكـس آسـتر غصبـت قلبهـا عـلى أن يقـوم مـن فـوره وأن يبحـث لـه عـن خليفـة، فمملكـة بـلا سـلطان مصيرهـا الخـراب.

كانـت تنظـر في كل متقـدّم لهـا جديـد، وتمعـن النظـر وتمنـح الفرصـة أولا ثـم الاعتـذار آخـر الـدواء، لكـن مـا مـن جـدوى، بعـد عديـد محـاولات بائسـة، انتهـت يائسـة.. لقـد علـق في داخلهـا، وصـار لا يتجـزّأ عـن الفـؤاد والحشـا.

لمّـا فهمـت ذلـك أخـيرا، اسـتطاعت أن تحقـق شـيئا، فلـو في معرفـة الـداء نصـف الـدواء، ففـي معرفـة حـدود الـداء وحـدود الـدواء كل الـدواء.

سرّحـت قسـوتها عـلى نفسـها، أليسـت كافيـة قسـوته؟ لـن تعطيهـا الكلمـة مجـدّدا، حـدّدت لهـا غايـة جديـدة ممكنـة قبـل أي شيء آخـر: «التأقلـم».

سـتتعلّم فنـون التأقلـم وتتقنهـا، كي تمارسـها عـلى الوضـع

الراهـن، كي تواجـه بهـا الحرمـان، بـُعـده عنهـا، فكـرة أنـه لـم يعـد لهـا.. وهـذه عـلى وجـه التحديـد، كانـت مـن حديـد.

قدرة الإنسان على التعايش مذهلة..

فالمريـض بعـد قليـل أو كثـير يتقبّـل مرضـه، ولا يـزال يتقبّلـه ويتعـوّده حـتى يـأتي عليـه يـوم لا يـكاد يفرّقـه عـن أيـام العافيـة مزاجـا وحالـة نفسـيّة، وهنـاك مـن فقـد بـصره وتـراه لاحقـا عـلى الرغـم مـن ذلـك يبتسـم ويضحـك ومنهـم مـن ألّـف كتبـا ومنهـم مـن صـار ناشـطا، وآخـر أصيـب بشـلل نصفـي ثـم تلقاه بعـد زمـن لديـه قائمـة مشـاريع أخـرى أنسـب لحالـه المختلفـة عـن ذاك أيّـام سـاقيه، ومـن فقـد عزيـزا ظـنّ أنـه فاقـد نفسـه لفقـده وبعـد أقـل مـن سـنة تسـمع عنـه عـادت ميـاه حياتـه إلى مجاريهـا وقـد تصادفـه في عـرس أو حفلـة.. متأنّقـا متجمّـلا.. وربمـا راقصـا.

أكثر من اقتصارها على بني البشر قضيّة التعايش..

كثيرون لن يستغربوا لَقْطَة القطّة التي تقتات على العشب.

مـا الـذي قـد يدفـع بسـنّوريّة أن تسـلك منحـى المجـترّات غـير قحـط الظـروف المحيطـة بهـا؟

ومـع هـذا فـإنّ جهازهـا العصـبي البسـيط يرفـض الاستسـلام ويحـارب مـن أجـل الاسـتمرارية والبقـاء، وعـادةً الأزمـات هـي الـتي تدفـع بالمخلـوق إلى اخـتراق حـدود قدراتـه العاديـة.

هكـذا تعاملـت جـوري مـع فقـد أُحُـد، بـأن صـارت قطـة

آكلة للعشب، ما دام بلحمه بعيدا عنها، عاشت على عشب تفكيرٍ فيه.. لا يسدّ الرّمق.

***

بلغا النزل وكان منتصف الليل يحتسب على المستقبل القريب، تفصلهما عنه أقلّ من ومضة الساعة. نزل أُحُد نشيطا في كامل لياقته البدنية، هرع إلى باب توقه، وجدها ما انتظرت رقيّ تصرّفه بأن يفتح لها الباب وتهمّ بخروجٍ بدا عسيرا نظرا لحجم نفخة ثوبها مقارنة بفتحة الباب، مدّ إليها يديه يعرض مساعدته، فنطقت أخيرا: «لا بأس، لا بأس»، وضمّت إليها بعد أن تحررت وشاح والدتها.

لآخر مناظرها، فتح الباب الخلفي لسيارته، التقط معطفه وآثرها مزمّلا إياها به، شكرته فابتسم وعاد إلى السيارة استخرج لها حقيبتها من صندوق الأمتعة، حملها بيد وبالأخرى احتوى يدها.

دخلا البهو، كان فارغا إلاّ من رجل في الاستقبال قام لفور مرآهما يمشيان نحوه، من الواضح أنّه كان بانتظار أُحُد، لأنّه أُحُد من حجز الغرفة. رمق العروس، فإذا هي القبعة البيضاء تغضّ رأسها، ابتسم للعريس وهنّأهما، ثم ناوله بطاقة إلكترونية لفتح باب الغرفة المحجوزة وهو يسأله إن كان بحوزتهما أمتعة أخرى فيطلب لأجله بعض الأعوان يساعدونه على نقلها، وأُحُد أمسك البطاقة نافيا في شكر

حاجتـه إلى أيـة مسـاعدة، فالباقيـة حقيبتـه ولا يسـتدعي أمرهـا اسـتدعاء أيّ كان، وجازمـا أنّـه سـيعود بعـد قليـل لأخذهـا.

الغرفة «٧»..

كانـت هنـاك في أقـصى الـرواق مـن الطابـق الأرضي، وكانـت بانتظـار أن يحـلاّ ضيفـين عليهـا.

انبلـق للبطاقـة البـاب، دفـع أُحُـد بالحقيبـة إلى الظـلام ولعله انتـوى بعـض حـركات الغربيـين، لكنّهـا افلتـت عـن نيّتـه، وقالـت معاندة مناشـدة:

- أرجوك أُحُد، دعني تحملني قدماي.

لم ينزعج ولا اقترب من ذلك، ولا بدا قابلا للانزعاج:

- لكِ ما تشائين، فهذه ليلتكِ.

مـال عـن اسـتقامته مشـيرا بمـدّ ذراعـه إلى الداخـل في سلاسـة فرنسـية وفي نفـس تلـك اللغـة:

- après vous madame!

(من بعدك سيّدتي!)

وكان أضاء سماء المأوى الصغير.

دخلت..

أماطـت عـن كتفيهـا فرأسـها فوجههـا.. بانـت ملامـح المحجوزة لملامحهـا: بـاب الحمّـام عـن اليمـين والغرفـة بعـد حـوالي ثلاثـة

أمتار رواق. على إثر ردّ الباب، اقترب منها.. تراجعت عن غير قصد، ضحك فابتسمت في توتّر، اقترب مرّة أخرى، هذه المرّة كان لابدّ أن تصمد مكانها، مدّت نحوه معطفه لعله يصرف انتباهه وإقدامه قليلا، أمسكه غير مبال به البتّة، ربما غير منتبه لذلك من الأساس، اقترب حتى سحبت هواءها من أنفاسه، شعرت بقلبها يتخبّط في صدرها كسمكة فارقوها ماءها، ولم تكن متأكدة حيال ذاك الشعور، أشيء كالانزعاق أم تراكماتُ اشتياق؟ قال وعينه تلمع كأنّها نجمة من تلك سقطت لعينها الحائرة لم تعرف أين تفرّ بها ومجال رؤيتها صار فجأة ضيّقا:

- أحضر حقيبتي وأعود..

خرج فزفرت كل أنفاسها التي حبسها قربه دفعة واحدة، مشت بيدها على قلبها إلى الغرفة، أمرت زرّ نورها بكبسة من إصبعها أن يحذو حذو مصباح الرواق، وكان جلاّه مصباح الرواق، دارت ببصرها في الغرفة تتعرّف عليها، على تفاصيلها، فإنّها تفاصيل لا ريب ستسجنه الذاكرة مؤبّدا.

كانت غرفة بسيطة، يبعث على الطمأنينة لونها الفاتح: أخضر فستقي..

قريبة السقف، متقاربة الجدران، صغيرة الأثاث: سرير قُضم من عرضه لغرض في نفس يعقوب فأصغر من أن يريح نومة اثنين، إلى كلا جنبيه منضدة بها درج، مدفأة في زاوية، ثلاّجة في زاوية أخرى، خزانة على مقربة من الثّلاجة،

تلفاز بين الخزانة والمدفأة قاعد على طاولة، وأخيرا منضدة الزينة عليها مرآة على آخر جدار متبقّ، غير الجدار المكتظّ وغير جدار رأس السرير والمنضدتين الصغيرتين، وغير جدار باب الشرفة.. كان الديكور يبعث على استقرار النفس، والهدوء المخيّم يحرص على شعورها بالأمان، كان اختيارا.. إمضاؤه أُحُد.

خطأ واحد في تناسق الصورة..

باب الشرفة طافرة عن ديكور دار الأقزام السبعة مطبقة الشفاه، تتكتّم على أسرار شرفتها، ساور جوري البيضاء فضول حيال أنبائها.. خطت إليها، أبعدت أستارَها بعد أستارِها على آخر لوح السرير الضامر، أنطقت أوّلها فقالت بردا، أنطقت ثانيها فقالت صرّا، أسرعت ردّت الأوّل وبقيت تنصت ببصرها إلى الثاني، يفشي سرّا..

أعجبها فراغ الأرض من البشر وآلاتهم وما يصدر عنهم من ضجيج يلوّث الفضاء الطاهر الرحراح، لانت لمجرّد أنّها تتأمّل تلك الكتلة النورانية تضيء وجهها الأقمر والعالم بأسره، هذا.. لا أوسم منه.

فتحة بالكونة طافرة

أقصى ما كانت تتخيل أنّ ظروفا نادرة قد تجمع لها أسبابا ماكرة فتُولَد صدفة...

صدفة واحدة، وواحدة فقط على الأرجح... على أرض

ما, ربما نفس الأرض, ربما أخرى...في يوم ما, لعله قريب, لعله بعيد, وتلتقي به مجددا, لدقائق معدودة, أو لأقلّ من ذلك...

في أوقات حنينها كانت تحلم به في قلب الصدفة حرّا كما عرفته ، في أوقات العتب.. تتوقّع غير ذلك.

المستقبل.. كم شهقة، كم إغماءة، لو تُكشف عنه الحجب؟

إنّما أن تستيقظ في يوم من الأيام، تصلّي، تدعو الله فرقا ينفخ الروح في أيّامها ويبثّ الحياة في حياتها، تجلس إلى مكتبها بفنجان من القهوة، تقرأ بعض القراءات، تلقي نظرة على صفحتها على فيس بوك، تنظر في جديدها من إشعارات ورسائل وطلبات إضافة، تحبّ أغلب منشورات آستر التي تمرّ عليها، قد تترك لها تعليقا ظريفا أيضا، لا تلبث طويلا وتنفصل عن الموقع الذي يوما عن يوم تتقهقر رغبتها في استعماله. تقوم نحو المطبخ، تنتقي أكبر ثلاث حبّات بطاطا، تلتقط سكّينة وتجلس لتقشيرها بنيّة قليها لاحقا للغداء، تعمل دون تركيز حقيقي على حبّة البطاطا تنسلخ بين يديها، وعيها استعاره عالمها الداخلي، تتنقّل فيه من فكرة إلى حلم، من حلم إلى رجاء، من رجاء إلى خشية، من خشية إلى يأس، من يأس إلى تفاؤل إلى يأس إلى تفاؤل إلى... أن يستعيد وعيَها عالمُها الخارجي.

وجهها شاحب بعض الشيء، شحوب هالات تقبع تحت

نظـرة باهتـة.. لا ليسـت مريضـة، إنّهـا قبعـة البيـت.

تخرّجـت منـذ سـنوات الآن، عملـت بعقـد مدّتـه سـنتان عمـلا لا يمُـتُّ لاختصاصهـا بصلـة، وهـي وافقـت عليـه لأنّـه إمّـا ذاك وإمّـا.. قبعـة البيـت، ثـمّ لـم يتيسّر لهـا تجديـد العقـد، ومـن حينهـا لا عمـل لهـا محـدّد ولا وجهـة واضحـة.

يدخـل والدهـا، يطـلّ يلقـي السـلام بوجـه طلـق بشـير، يصمـت عالمهـا الداخـلي فـتردّ السـلام خـلال بسـمة ثقيلـة تسـتفيق للتـوّ مـن رُقادهـا عـلى وجههـا، يقـترب ويجلـس إلى طاولتهـا، تلتحـق والدتهـا، يخبرهـا أنّ شـابّا تقـدّم لهـا، يخبرهـا ذلـك في حماسـة لـم تعهدهـا منـه لمثـل تلـك السـيرة، فلـو أنّهـا متطلّبـة وصعبـة الإرضـاء نسـبيا عندمـا يتعلّـق الأمـر بشريـك حياتهـا عـلى وجـه الخصـوص، فوالدهـا ليـس بأهـون منهـا.. مـاذا تغـيّر هـذه المـرة يـا تـرى؟ ثـم في لمـح البـصر ينطفـئ فضولهـا، أصبحـت شـبه مؤمنـة أنّ الـذي يناسـبها لـن يعـثر عليهـا مـن قريـب، السـابقون أفقدوهـا الشـهيّة عـلى الـزواج، وبالرغـم مـن أنّهـا لا تتذكّـر أنّهـا ارتاحـت لمتقـدّم لأوّل وهلـة أو صـاح لـه رضًـا مدبّرهـا ومستشـارها الداخـلي، إلاّ أنّهـا كانـت تمنـح كل واحـد مـا يكفـي مـن وقـت لتقديـم نفسـه، تسـمع منـه حـتى لا تبقـى كلمـة تامّـة الخلقـة في رحـم أفـكاره، ثـمّ تهـب نفسـها رادفـا مـن الوقـت مثـل الـذي جـادت بـه عـلى صاحبنـا الأوّل، أو لعلّهـا كانـت تؤثـر نفسـها بعـض الإيثـار قبـل أن تتلفـظ بحكـم الرفـض. هـذا يريـد امـرأة تعجـن «كـسرة» كل يـوم، يضحـك أنّـه قـد يعفيهـا مـن ذلـك مـرّة في الأسـبوع كـرم

أخـلاق منـه! وذاك يـرى أنّ اسـتثمار حياتـه الأهـمّ ومشروعهـا الأعظـم الـذي يتحـرّق شـوقا لاسـتهلال أشـغاله هـو إنجـاب الأولاد، لذلـك يريـد منهـم كثّـا! وآخـر لا ولـن يقبـل منهـا أن تكـون امـرأة عاملـة! عـلى ألّا مـكان للمـرأة إلّا بيتهـا ولا مشـغلة إلّا خدمتـه وتربيـة أولاده! ويـأتي مـن لا سـلطان لـه عـلى شـهوانيّته الـتي مـا عـاد يسـتوعبها حجـم جثّتـه، فتتدفّـق مـرّة مـن عينـه، وتندفـع أخـرى مـن لسـانه! ومـن لا يهتـمّ بمظهـره، ومـن لا ديـن لـه، ومـن لا بيـت لـه إلا غرفتـه في بيـت والديـه، وهكـذا... وليـت محاسـنٌ تـذوب في رقّتهـا وتسـتحي في طيّاتهـا العيـوب.

قـال إنّـه كان زميـلا لـك في الجامعـة، وكان يـودّ مثـل هـذه الخطـوة وقتهـا، لكـنّ وضعـه المـادي آنـذاك حـال بينـه وبـين أمنيتـه أن يحقّقهـا، قـال أيضـا أنّـه في نفـس تلـك الفـترة تعـرّف عـلى شـابّة فرنسـية عرضـت عليـه الـزواج منهـا لـو يهمّـه الانتقـال إلى فرنسـا، فوافـق وللغايـة أن تـبرّر الوسـيلة، وذهـب إلى فرنسـا واصـل هنـاك تحصيلـه العلمـي واسـتطاع أخـيرا بعـد اكتـداح وإلحـاح أن يكسـب مصـدر كسـبه الـذي بـه أصلـح الله مـن شـؤونه، وهـو اليـوم مطلّـق بـلا أولاد. والحـق الحـق يـا ابنـتي أقنعتـني ملامحـه لمّـا شَـجُعَ وأفصـح لي عـن مشـاعر تجاهـك لـم تنهكهـا السـنوات، سـنوات قـال كنـتُ أتصـبّر فيهـا عـلى وحشـة الغربـة ومـا يكابـد مـن مشـاقّ يسـتدعيها تحقيـق الـذات هنـاك، بعهـد قطعـه عـلى نفسـه، ووعـد وعدهـا بـه أنّـه لـو فـرغ مـن ابتنـاء حالتـه وأنـتِ لازلـتِ لـم ترتبطـي، وهنـا بـاح لي أنّـه كان يدعـو الله ليلـه ونهـاره ألاّ تفعـلي وألّا يجعلـك مـن نصيـب آخـر فهـو الأعلـم بالحـال والأرحـم بـه (وابتسـم والدهـا

لأنانيّة الحبّ) فسيجعل نفسه على أوّل طائرة إلى هنا ويأتي إليّ مباشرة قبل أهله وناسه وقاطبة أحبّائه! يناشدني يدكِ.. وأحسبه أوفى بوعده وما نكث بعهده، فقد بلغني أشعث أغبر، وبالرغم من ذلك فبهيّ، وأهمّ من ذلك فمؤدّب وخلوق، ولو أنّك تطلبين أو تقبلين نصح هذا الكهل الذي لا نفع من كل هذا يرجوه إلاّ سعادتك، ولا يتحرّى من كل هذا الكلام إلاّ مصلحتك، ويعلمك مطمئنّة آمنة إذ تعلمين لن تثقلي عليه إلاّ لو ثقل حمل قلبه على صدره، وأنتِ أخفّ على روحه من روحه على جسده، فإنّي يا وردة أبيها الحبيبة انشرحت له وأراه تسرّب إلى قلبي، فرضيته لو ترضين وأعطيته لو تعطين.

كانت كلّ المؤشّرات تسرده، كل المعقولات تطمسه.. هل يعقل أنّه هو؟

أصاب السكّينة لأيٍّ، ودامت البطاطا في يدها، ستتوكّل على الله وتسأل والدها عن اسمه وتفصل بين المؤشّرات والمعقولات..

- «أُحُد» يا ابنتي، اسمه أُحُد.

شهقت السكينة على يدها وتوغّلت في إصبعها!

لقد عاد..

شعرت بالتساؤلات تُغِير على فكرها كقرويّة بسيطة غافلة ويطرأ عليها طارئ يُجمهر حولها على حين غرّة غفير إعلاميين

ومصوّريهم يتزاحمون يتنافسون عليها لهم عندها ردود..

لم تقل شيئا، قالت دمعتها كل شيء.. أرادت تضليل والدها لكيلا يحزن بعد بِشْرِه، فاتّهمت البطاطا وقالت كاذبة الضحكة:

- تسبّبت لي في جرح عميق..

استأنفت وقد انقضى وقت الضحك:

- على كل حال يا أبي الحبيب.. ما كنتُ لأسخط على من رضيتَ ولا لِأحرم من أعطيتَ، الأمر لك من قبل ومن بعد، فانظر ماذا ترى، ثم انظر ماذا تأمر.

وقامت عنهم، ووالدها بحكم تجاربه وخبرته في الحياة باتت له فِراسةٌ، بَسُرَ بها أنّ البطاطا بريئة من جرحها براءة الذئب من دم يوسف، وأنّ هذا الرجل.. لم يكن بحت زميل.

***

ارتجت باب غرفتها عليها، بقيت وظهرها إلى ظهره حينا قبل أن تهدج إلى سريرها وتجلس عليه حينا آخر.. قامت إلى النافذة تفرّجت على ما تفرّجت حينا.. تولّت عن مناظرها وراحت تذرع الغرفة ذهابا وإيابا.. عادت إلى السرير مجدّدا وقد خبت للحركة نوبة الاضطراب التي أضرمها المستجدّ، فألقت بجسدها عليه.

هما أمران في الحياة، كلاهما أمرّ من الثاني.

أن تحبّ فتُخذل..

أو يعود حبّك الذي خذل، وقد انقضى الأجل.

بقيا سويّة سنتين ونصف السنة، أو ما يكاد يكون ذلك.. كانتا أحلى سنتين في حياتها، النصف الآخَر ما كان بجمال السابقتين لأنّه كان تمهيدا لخاتمة كئيبة.. ولو هناك من تجزم بخصوصه أنّه استمتع بذاك زمن المسرّة متعتها، كي يتجرّع جرعتها من نفس كأس لوعتها، فليس هو ولا نيل.. ولكن آستر.

كانوا شلّة، تلتئم داخل قاعات الدرس، فإذا عفا الدرس ما انشطروا وساروا كوكبتهم إلى المكتبة لمراجعة ما حضروا أو تحضير ما راجعون إلى تحضيره، ثم يخرجون إلى فسيح الحرم الجامعي يتفسّحون ويقطفون للرئتين أزكى باقة هواء.. ربّما قصدوا كافتيريا الجامعة طلبوا بعض الحلوى والعصير، أو في فترة الغداء حجزوا طاولة في نفس الكافتيريا التي خدماتها تغدق أكثر من اسمها، تناولوا بعض البيتزا، وكم شهدت تلك الطاولات من مشاعر ومشاريع موثّقة بأيمان مغلّظة تحمّل الشابّان وزرها في حال عدم الوفاء بها، كأنّه في أقرب فرصة تلوح مؤاتية سيكون هو خلف زيارتها محلاّت كراء الأثواب البيضاء تنظر وتنتقي لها واحدا تصير به له، وأنّه الذي سيرفع يدها اليسرى أمام الملأ وأمامه يختم بنصرها بما معناه من الأمن والأسلم صرف النظر عن

صاحبتـه، وأمـور أخـرى هـي مـن أخـوات تلـك، مثـل بهجـة تـوّ اسـتلام رسـميّة الدفـتر العائـلي أو الوجهـة السـياحية لسـفريّة شـهر العسـل، أمـور.. يسـهل عـلى الرجـال قولهـا، يسـهل عـلى النسـاء تصديقهـا، يسـهل عـلى الرجـال نسـيانها، يسـتحيل ذلـك عـلى النسـاء.

أحبّتـا وأحبّـا، كلّ واحـد أحـبّ الآخـر عـلى طريقتـه، وفقـا لمـا تنصّـه بنـود جنسـه..

النسـاء بقلوبهـن الهـوج، الرجـال بقلوبهـم أيضـا، لكـنّ الأخيرة عمليّـة ومتروّيـة، تخفـق كي تحيـا، فـإن أحبّـت فلـكي تحيـا أيضـا، عـلى عكـس الأولى، الـتي قـد تخفـق كي تحـبّ، وقـد تحـبّ كي تمـوت، وقـد تمـوت فقـط كي تنتقـم، فـإن لـم يـأذن أجلهـا أن يسـتعجل بهـا موتهـا، فباقيـة عـلى ملّـة قلبهـا لا تقلّبهـا حـتى موتهـا.

والعلاقـة بـين الرجـل والمـرأة كمـا كلّ الحيـاة بالنسـبة للمـرأة، غـير منصفـة.. حـرب غـير متكافئـة فيهـا موازيـن القـوى، تخوضهـا المـرأة بأسـلحة يدويّـة الصنـع مثـيرة للشـفقة، ومـع الرجـل القنابـل النوويّـة.

ثـم هـو يعلـم وهـي، عـن رخـاوة حسّـها وهشاشـة بنـاء قلبهـا مقارنـة بـه حائـط أحاسـيس يعـزّ أن يهـتزّ، وقلـبٌ حصـنٌ منيـع يشـقّ أن يُخـترق، ولكـنّ هـذا العلـم لا ينفـع، مـا دامـت لا تتّقيـه ولا يراعيهـا.

أو لماذا عساه يفعل.. هو؟

مادام فضاء احتمالاته يمتدّ مدّ الأفق؟

لماذا عليه أن يقدّرها جوهرة نادرة بما أن هناك دائما إمرأة أخرى

لماذا عليه أن يتقبّل نقصها، ما دامت هناك من لا ينقصها نقصها ؟

لماذا عليه أن يدفع أثمانًا ولو بخسة، ما دامت هناك من ستكلفه المجّان؟

لماذا عليه أن يقنع بفتورٍ لا تنجو من سطوته علاقة معمّرة، ما دام في وسعه دفء اشتعال نزوة غضّة؟

لماذا عليه شيء؟

عندما لا يحبّها.

في الوقت الذي تراه هي احتمالها الذي لا احتمال معه، فتُخلص وتتعامى عن العيوب وتدفع طائل التكلفة على طريقة الكاش والشيك معا وقد تبقى مديونة، فتسدّد ما بقي من دينها على حساب ما شاء من كلّها، وترضى به وينمو الرضا نموّ العِشرة، وترضى به.. لأنّها تحبّه.

انفغر الباب فاصطفقت:

- فيم تفكّر العروس؟

قاطعت والدتها خلوتها بخواطرها.

- العروس؟ يظهر أنّك وقّعت على عقد البيع وانتهى.

أجابت جوري ساخرة قائمة عن استلقائها.

أخذت والدتها لجلوسها مكانًا قرب جلوسها:

- أوَ لـم يكـن سـاندك والـدك في كل قـرارات الرفـض الـتي اتّخذتيهـا سـابقا؟ ومـا ضغـط ولا حـاول التأثـير عليـك يومـا؟ بالعكـس، وأنـا عـلى ذلـك مـن الشـاهدين، لطالمـا امتـدح أناتـك داعيـا لـك وإيّـاك إلى الثبـوت عـلى موقفـك في عـدم اسـتعجال رزقـك، بـل حـدث معـه أن اعتـذر بـدلا عنـك ودونما استشـارتك صونـا لـك وحرصـا عليـك وصـدق إيمـان وقناعـة مدجّجـة منـه أنّـك تسـتحقّين الخـيرة والصفـوة.. فـإن شـهدناه اليـوم تـصرّف مغايـرا وقـال مخالفـا فحـريّ بـك أن تثقـي تمـام الثقـة، كمـا ثقتـه فيـك وفي قراراتـك، أنّ الطـارق يسـتحقّ وقفـة.

يـا ابنـتي، لـو والـدك يجهـل قصّتـك مـع هـذا الرجـل فتعلمين بأنّـني أعلمهـا، وكان صـدر ثـوبي منديـلا لدموعـك السـاخنة عـلى فراقـه لـك، لكنّـني أيضـا يـا بنيّـة أعلـم مـن الحيـاة علمـا آخـر وأشـمل، وهـو أفيـد لـك وأوجـه عـلى مـا أظـنّ.. أحيانـا تحتـاج الواحـدة منّـا مـن يذكّرهـا أنّهـا امـرأة، فظالمهـا مـرور الزمـن عليهـا، وأنـتِ قـاب قوسـين أو أدنى مـن الثلاثـين، وثلاثـين المـرأة غـير ثلاثـين الرجـل، وفي هـذا خـير برهـان عـلى صـدق و نبـل مشـاعره تجاهـك واكتمـال عقلـه، وإلاّ مـا أعجلـه إليـك دون دهمـاء المراهقـات هنـا، ينظـر نظـرة ثـم يشـير عـلى يرقـة منهـن، وتعلمـين لـن تتـوانى عـن تلبيـة شـبابه وجمالـه ويـسر

حالـه.. وتعلمـين لسـت أطلعـك عـلى آرائي ولا أنـثر بـين يديـك أفـكاري، إنّمـا أحـاول أن أصنـع مـن كلمـاتي مـرآة تعكـس لـك صـورة غـير صـورة مجتمعـك الصغـير.. صـورة المجتمـع الكبـير، وهــو الآخــر ظالــم يــا ابنــتي في صرامتــه الــتي كــم تعــوز إلى المنطـق في حكمـه عـلى المـرأة.. وكنـت لأعاضـدك عليـه حـتى آخـر أنفـاسي، وأدرأ عنـك بنفسي مـن سـهامه الـتي تقـذف سـمّا لـو مـا جاءنـا مـن رضينـا دينـه وخلقـه وأوتي مـن كل روض مـن ريـاض المحاسـن زهـرة أو أزهـارا، فلمّـا جـاء غـدت فتنـة في الأرض وفسـاد عريـض صـدّه وردّه.

ثـم إنّهـا فرصتـك الذهبيـة أشرقـت لتغيـير هـذه الأرض نحـو أخـرى نحسـبها ويلائـم أن نحسـب أدرّ خـيرا، لعلّـك أخـيرا تجديـن لـك نشـاطا يعطـي لحياتـك معـنى ويوظّـف شـبابك ويسـتغلّ طاقاتـك، وكل هـذه هنـا يـا ابنـتي مـوْؤدة ومهـدورة، وفي غـنى أنـتِ عمّـن يذكّـر إذ سـجينة فـراغ ولا تهمـة. فخـذي بنصيحـتي أبايـع بهـا نصـح والـدك، وافـرقي بـين عاطفـة بليـدة مائقـة تحرّضـك عـلى الانتقـام بالرفـض، وأصـوات حكمـة تسـتحثّك عـلى الموافقـة للظفـر، مـا فـات مـات، ونحـن أبنـاء اليـوم، والله يغفـر الزلـة ويقبـل التوبـة، والتوبـة تجـبّ مـا قبلهـا، وأزيـدك ماسـة مـن علبـة جواهـر تجربـتي وخـبرتي، لـو أنّ الحـبّ حلـم، فالـزواج واقـع، وشـتّان بـين الحلـم والواقـع.. مـن اسـتطاع أن يـتزوج بعقلـه فليفعـل خـير لـه مـن أن يـتزوج بقلبـه، يقولـون «ذو العقـل في راحـة»، لأنّ العقـل غايتـه مشـوار مريـح،: بينمـا القلـب تكفيـه محطّـة جميلـة..

ضمّها اليه من الخلف,اصطكّت فأوّل أنّه نجح في مباغتتها..

ألهـذه الدرجـة كانـت غائصـة في مراجعـة ذكريـات آنفـة؟ أم هـو ضـوء القمـر نوّمهـا مغناطيسـيا؟ لدرجـة أنّهـا لـم تنتبـه لدخولـه ولا شـعرت بـه خلفهـا في الغرفـة؟

أيّا كان السبب، هـو كذلـك أجـاد تقليـد التسـلّل عـلى الطريقة اللصيّـة.. تمامـا كمـا تسـلّل يومـا إلى قلبها.

وضعت يديها على يديه كي تتحرّر من طوقه:

- لقد أفزعتني..

تشـبّث بهـا كمـا لا أمـل أن يفلتهـا، ثـمّ وقـد اتّـكأت الكثافـة عـلى خـدّه عـلى نعومـة خدّهـا، أذلّ الحنـان والليـان دويّ الرعـد:

- يداكِ باردتان، حبيبتي..

التفتـت بخدّهـا أبعدتـه وقالـت كأنّ الاتّصـال انقطـع بـين عقلهـا ولسـانها:

- نعم.. وأشعر بصداع أيضا..

ضحك ضحكة هادئة عاد بها بخدّه على خدّها:

- لـن يبعـدني عنـك شيء هـذه الليلـة، فلتفقديـه هـذا الأمـل الـذي لا يناسـب ذكاءك؛ يسـتهزئ بـك هامسـا عـنّي قـد أبتعـد، أنـا هنـا حبيبـتي.. مـن الليلـة فصاعـدا أنـا هنـا، ولـن يفرّقـني عنـك مجـدّدا إلاّ المـوت!

***

على أسرّة مغايرة كان الوضع مغايرا، فلا جوار إلّا الوحدة.

ممدّدا على ظهره، متوسّدا تشابك يديه قبل وسادته، كان أوراس يحرّك تقاطع قدميه حركة ماسحتي الزجاج الأمامي للسيّارة، لعلّه يستروح، لعلّه يستريح، وبخاصّة أنّه بحاجة إلى قسط من الراحة، ليس فقط لأنّ يومه عانى من فرط الحركة، بل أيضا عليهم غدا النزول بصناديق الغلال إلى باعة الخضر والفواكه في وسط المدينة.

النعاس يعصيه، رغما عن بطارية جسده الفارغ شحنها..

هذه المرّة الثانية التي يتزوّج فيها أخوه الذي يصغره، وهو على قدر اغتباطه لأجله يغبطه، إذ هو بالمقابل ما له حتى سراب المشروع، فقط أمل أشدّ سقما من أن يرفع معنويّات صاحبه أو يعود عليه ببعض الابتهاج أو الانشراح، يا ليته مات وخلّصه! حار فيه بكم روح هو؟ كيف ينجح كل يوم مرة أخرى في رفع تحدّي الحياة والنجاة من موت محتّم؟ بأيّة قوّة يتمسّك بالحياة فيه؟ هل هي رؤيتها لا تزال عزباء تبعث أملا في هذا الأمل؟ أم هو قلبه، يستجير بهذا الأمل من ألم اللا أمل؟ ولو أنّ تعريف اللا أمل هو امرأة مواظبة على رفضه منذ سنوات.

كم حاول أن يلوذ بالفرار من سجنها، لكنّ دوريّة شرطتها تعود تلقي عليه القبض دوما، ودوما تعود تزجّ به، حتى الذي جاؤوا عليه أمل نقيض الأمل فيها: أمل تخطّيها.

فكّر في الزواج من أخرى، أيّة واحدة أخرى، لا يهمّ..

مـا دام ليسـت هـي، وهـي واحـدة، فـكل الأخريـات واحـدة. معظمهـنّ كـنّ انتقـاء والدتـه، فتيّـات جميـلات ممتلئـات، بالبيـت ماكثـات، وبأشـغاله عالمـات، وفيهـا ماهـرات، لخدمـة الـزوج مهيّـآت، وبحيـل إرضائـه فقيهـات، ومـع ذلـك شيء ما كان ينقـص ذاك الكمـال.. أطبـاق وإن دسـمة فـلا ملـح فيهـا، وهـو يعرفهـا جيـدا.. مـن مـرّدت عليـه حُليمـات ذوقـه.

إنّه خُلُق الحبّ..

مـن ذاقـه انتهـى أمـر قناعتـه، مـا دونـه لـن يفـي بالغـرض مجـدّدا أبـدا.

واحـدة.. أعجبتـه مـرّة فيهـا خصلـة أو اثنتـان، ورضي منهـا مـا بائـنٌ مـن أخلاقهـا، ولا يتذكّرهـا لهـذه المحاسـن، بـل لأنّهـا الـتي يعتـبر نفسـه خـان حبّـه بـأن أوقفهـا ظهـيرة كان فيهـا في قيلولـة أملـه في آسـتر، واقـترح عليهـا شراكتـه.. كانـت لحظـة متعبـة أو قـل منهكـة أو قـل خائـرة، فيائسـة فمتهـوّرة فمجنونـة.. ومـن في حصـن مـن هكـذا لحظـات ضعـف في الأوقـات العاديـة؟ فمـا بالـك بالأوقـات العصيبـة.. سـاعة انهـار فيهـا الانتظـار لزلـزال الزمـن ووطـأة الصـبر، وبـدا الأمـل يشـخر أنفاسـه الأخـيرة..

قليلات اللواتي قد يزهدن في رجل كأوراس..

نظيـف الحـاوي والمحتـوى، حارسـه الشـخصي الـذي يتقـدّم سـيره في الطرقـات أخلاقـه.. متوسّـط القامـة إلى طويـل، متوسّـط الجملـة العضليّـة إلى قـويّ، أسـمر البـشرة إلى قتـام مكتسـب، ذو لحيـة قصـيرة مشـذّبة مهذّبـة تحيـط ابتسـامة معدّلـة نقيّـة

ناصعة، عاليها تحديقة فحيمة صارمة حادّة، شعره ليس بالأملس، لكنّ عنايته به أحنت سنابله الدّجاجية.. مرتّب الهندام في بساطة معقّمة، ضعيف الضحكة قويّ الحضور، طاهر الأقوال طيّب الأفعال، ملتزم بدينه حريص على سمعته، رجل في نصب مستمرّ لا يقرب الراحة إلاّ عابر سبيل.. لا يكلّف في مأكله ولا يتكلّف، يطلب رضا والدته ويحنو على أخواته، ينتشر كل يوم بعد صلاة الفجر إلى أرضه التي هي كل تركة أبيه وأمّه الثانية بعد أمّه.. لقد نذر لها أياديه وهي شكورٌ لا تنكر الجميل ولا تنسى الفضل، هي قلّما خيّبته.. اضطرّ مرّة واحدة في حياته أن يبتعد عنها، وكان ذاك لأجل تحصيله العلمي العالي، فاختار وما احتار «العلوم الزراعية»، هكذا يتسلّى بسيرتها بينما الفراق، ريثما العناق.

هو الفلاح، جسدا وهمّة.

بعد عودته فلاّحا أكاديميّا، تسخّر لأرضه كلّية، وقتا وتفكيرا وجهدا، وعمّاه ومن أبنائهم وآخرون وظّفوهم معهم، وجميعهم صاروا يعملون تحت إشرافه، حتّى صيّروها جنّة صغيرة يحظّر دخول الهمّ إليها.. لعلّها التي وجد في حبّها العزاء عن حبّ آستر، وشغلته عن مميت التفكير فيها. كما بنى لاحتمال زواجه الذي احتمله أمله، بيتا صغيرا غير تامّ تماما، أجّل رتوشاته الأخيرة لحين يتجسّد الأمل، اتّخذ أرضيّته سقف بيت والدته، على هذا النحو لو تزوّج تبقى هي وأخواته على عينه دون أن يسلبهنّ -ولا زوجته المستقبليّة-

حياةً هنيّة كدرُ المناوشات التي أشهر من نار على علم في هذا السياق، وبهذا الحجر كان له عصفور ثان: بقاؤه على مقربة من أرضه، ورشة عمله.

وافقت الشابّة إذن، ولا أهلها رفضوا، بالعكس حل أوراس أهلا ووطئ سهلا وحظي باستقبال حارّ كالتكريم شجّعه على المضيّ قدما، إلى جانب أقساط من المنطق كان يتكرّم بها عليه عقله المدبّر أن في آخر المطاف لا يجدر به أن يبذّر شبابه على انتظارلا يُثمر.

نزل إلى المدينة، إلى المكتبة أين تعمل آستر، ركن قريبا ينتظر موعد نهاية دوامها وساعة خروجها المسائي، وكانت ستحلّ من قريب.

لأوّل مرة تمنّى لو يمتدّ زمن ذاك الانتظار إلى المالانهاية.. أن يبقى هناك، في انتظارها.. إلى الأبد.

هذه المرأة الجديدة ستمنحه زواجا.. واقعا، والواقع مقيت.. لمَ الكذب؟

آستر أهدته حلما، والأحلام مثالية الجمال.. لمَ الإنكار؟

والناس أصناف..

هناك من يفضّل أن يدفع للواقع الكثير ويتلطّخَ بوحله وأدرانه في سبيل نتفة متعة لا تلبث تنقضي مخلّفة تبعاتها.

وهناك آخرون.. لعلهم مخطئون، لعلهم صائبون، لكنهم يعيشون فوق سحب الأحلام، منها يطلّون على الحياة،

فتنظر أوحالها وأدرانها إليهم بحسرة، لا تستطيع أن تلوّثهم، على قدر ما تشتهي ذلك لا تستطيع.. هم لا يريدون منها شيئا، فبماذا تغريهم؟ هم ينظرون إلى السماء فوقهم.. لن يدفعوا شيئا، ففي المتعة الحقيرة هم زاهدون.

أراد أن يودّعها بعينيه، ألاّ يفجع قلبه بعتمة انقطاع تيّار أملها مبادهةً، هو الذي تعوّد النبض على أنوار صورتها تتأرجح بين شريانه والوريد، أن يراها مرّة أخيرة، فيها هو حرّ، فيها هي حرّة، ويحلم.. ويطلق العنان لأحلامه، فلتتطلب! ولتتمنّى! سيدلّل قلبه بحلم دافئ رقيق ناعم، ويداعبه للحظات لا تبالي بالواقع، لا تكترث بالمستحيل، عنوانها «كلّ شيء ممكن»، مضمونها ملخّص عن حبّها له لا عن حبّه لها فذاك غير قابل للتلخيص، وأجمل أحداثها أنّه هنا لا للطلاق بل للتلاق، سيصطحبها إلى عديد محلاّت، ستركب سيّارته لأنّها زوجته شرعا وقانونا والتفصيل الأخير الذي لا يزال يفصل بينهما مقرّا هو عرسهما القريب، وها هما يعملان على التحضيرات له..

خرجت آستر فخرجت روح الحلم الجميل، نظر إليها فخارت كلّ قوى عزائمه على استبدالها، ما كان نوى أكثر من وداع بصريّ وعن بعد، ثم قفز بحاجة إلى قرب أخير، «أخير وفقط!» توسّل ذاته، سيخبرها، ليتها تغار، لعلّها تلين.. من يدري؟ ربّما كلّ شيء ممكن حقّا..

لمحت ترجّله فابتسمت متفاجئة، شعر بسعادة ملأت عليه أركان صدره لمجرّد أنّه وقف بين يديها، سعادة عاتية

طاغيـة لـم تـرم مكانهـا إلاّ وقـد سـحقت كل حماسـة المـشروع كفيـل تحدّتـه نملـة، وجعلتهـا تفـرّ بعيـدا بعيـدا ركضـا، كضبـع لاح لـه السـبع.

آستر الزهرة.. ليس فقط نسبة إلى اسمها.

طويلـة القامـة في اعتـدال، تتوسّـط مجـال بنيـة الأجسـام، فـلا هـي في تقتـير ولا هـي في تبذيـر، سـمراء إلى نـور ككـوب مـن الحليـب بملعقـة قهـوة، أجمـل جمالهـا ابتسـامتها الملائكيّـة الواضحـة الوضّاحـة الـتي يـشرق لهـا كلّ وجههـا، وأغمـض مـا فيهـا نظرتهـا الوقّـادة، يعلوهـا حاجبـان بريئـان بعفويّتهمـا. أنـف كليوباتـرا، طويـل بعـض الـشيء، كنافـورة خيـلاء كاذبـة تسـقي ملامحهـا.. ضعيفـة الصـوت مؤدّبـة اللـفظ، خجولـة الطبـع رقيقـة الحـسّ، واجتمعـا لهـا وقلّمـا يجتمعـان، ذاك الضعـف الظاهـري إلى جانبـه قـوّة في الشـخصية وجـرأة في الأفـكار، محتشـمة الـزّيّ فريّتـه، فليـس نـادرا مـا اسـتهترت بقواعـد الشياكة ومزجـت بـين ريـاضيّ ورسـميّ أو خلطـت ألوانـا متنافـرة، كان شـعارها «لكـم موضتكـم ولي موضـتي»، ومـع هـذا لا تسـتهجنها العـين بـل تسـتملح تصاميمهـا المناوئـة للتّكـرار الممـلّ والـتي تنـمّ عـن عبقريّـة مـا خلـف الأسـتار. مختلفـة.. في مشـيتها الرياضيـة وحركاتهـا البطيئـة، في آرائهـا ونظرتهـا للحيـاة، في رقيّ تصرّفاتهـا، فالجالـس إليهـا برهـة لا يغـادر ومـا انقشـعت لـه روح الأمـيرة فيهـا.

ولـو أنّ الأمـر غـير قابـل للتصديـق، فإنّهـا ومـع كلّ هـذه الثروة شـكلا ومضمونـا، مـا كانـت محفوفـة بكثيـف إعجـاب -بتهميـش

إعجاب أوراس طبعا لأنّه وحده كثيف إعجاب- ذلك ببساطة أنّ امرأة مثلها مكياجها ونظافتها وأناقتها تواضع مرتّب، وجمالها الرّوحي يفيض على جمالها المادّي لا برقشتها الماديّة تمحق جمال روحها، ومركز حلاها قلبها ورأس مالها أخلاقها، وعقلها يشرف على أنوثتها لا أنوثتها تودي بإنسانيّتها.. هذه لا ينتبه لها رجل ماله من الرجولة إلاّ جرامات أو ميلي جرامات، تلتقطه فيكاد يتوسّل الفناء عليها أو في سبيلها ألوان الوجه المحتدّة وتضاريس الجسد السافرة، هذه من يراها فلا يرى بعدها، رجل من العيار الثقيل.. لبّ له أن يستأصل الجمال النفيس، من وغل وإطراق الحياء الحريص.

أخبرها فطأطأت استياءها وهنّأته، وهو جذِل باستيائها كما لو كان موافقتها، هذا يعني أنّ إصراره بدأ يحرّك الصخرة عن فتحة الكهف!

عاد إلى البيت وفي طريقه حسم أمره: إمّا هي.. أو لا أحد.

لكن هي.. الأدعى إلى العجب من أمر أمله أمر أملها؟ يعلم أنّ عهد نيل ما ولّى بعد، وإن يخشى فأن تكون نصّبته ملكا سرمديّا.. عجزت كل الصفات التي ينطوي عليها معجمه اللغوي عن وصف ولائها.. هبنّكٌ أم هبنّق؟ وهوف أم يهفوف؟ كيف تعقل تضحيتها به، بنفسها! في سبيل من ضحّى بها؟ أيّة بلهاء تعيش على رجل ماتت عنده؟!

أخرسه سؤال ردّ على آخر سؤال: وأيّ أبله يعيش على امرأة تعيش على رجل ماتت عنده؟

***

تقلّبت عن اضطجاعتها على جهتها اليمنى إلى اضطجاعة على الجهة اليسرى، ولا ناسبت الوضعية الجديدة بأكثر من الوضعيّة القديمة، جرّبت وسط الوضعيّتين، لا جدوى.. وتعلم أنّها كلّما ضغطت على نفسها كي تنام أحجمت الغفوة، لذا قامت دون مزيد من المقاومة المسيئة لها، شغّلت حاسوبها الصغير فأضاء وجهها وركنها من الغرفة التي أمست غرفتها الخاصّة مذ تزوّجت أختها الكبرى منذ سنوات.. طلبت فيس بوك، أدرجت الإيميل وكلمة السرّ الخاصّين بها، كانت النت بطيئة غير أنّها أمكنت من الاتّصال في آخر الأمر.

أوّل الذي أَلِفت فعله هو النقر على خانة البحث، فعندما تستعدّ تلك لتلقّي الأوامر تنقر ثانية على الحرف «ن»، كي تظهر على رأس القائمة المقترحة.. صفحة نيل.

صارت عادة ملازمة لاستعمالها فيس بوك، والعادة متى دخلت تاهت عن طريق العودة، هو لا يغيّر صورته، ومع ذلك هي لا تملّها وتحدّق فيها كل يوم عددا من المرّات غير معقول، مقابل مرّات قلائل لم تزرها فيها، مرّات كان يستفيق قلبها من غيبوته، يرى ما كائن وما كان ويعي، فيشعر لذلك الإدراك بحزن لا يلبث يصرعه مرة أخرى في غيبوبة أخرى.

التعلّق معضلة.. فلا أحد توصّل إلى اكتشاف التفاعل الكيميائي الذي يؤدّي إليه أوّل مرة، ولا كيف يتوضّع على القلوب ويسكن الأرواح وينتشر في العقول ويسقم الأجسام

ويضـني الأيّـام؟

كلّ النـاس يؤمنـون بعلـل الجسـد، والبعـض منهـم يؤمنـون بعلـل الـروح، ولا أحـد يؤمـن بالحـبّ علـة للقلـب.

ومـن أشـدّ نوبـات الذعـر الـتي تتذكّـر انتابتهـا يومـا، لمّـا أُطلقـت إشـاعة عـلى ذاك موقـع التواصـل الاجتماعـي في شـكل رابـط يزعـم أنّ تفحّصـه يكشـف أكـثر المتردّديـن عـلى صفحتـك، كانـت عـلى يقـين أنّـه لـو صـدَق الزعم فسـتكون عـلى قمّـة قائمة المهووسـين، دون نـدّ تمكّـن مـن تحقيـق ربـع الـذي حقّقتـه عـلى صعيـد الاهتمـام بـه، هـي تسـتعمل اسـما مسـتعارا ورغـم ذلـك تخـشى أن يسـقط القنـاع لـو فُضـح أمرهـا، وتتهيّـب حـتّى الشـحوب احتمـال ذلـك الإحـراج الجـمّ الـذي مـن شـأنه ازدراء عـزّة نفسـها.

قـد تكـون آسـتر أحبّـت نيـل بمـا لا يقـلّ عـن الجنـون الـذي ألـمّ بقلـب جـوري تجـاه أُحُـد، أمّـا كيـف تعاملـت الصديقتـان مـع الهجـر فـلا اتّفـاق، إذ فيمـا كانـت جـوري أغلقـت بـاب تاركها وتتنـاسى بمثابـرة سـاعية إلى النسـيان حـتّى تكلّلـت مجهوداتهـا بأن بلغـت مرحلـة مهمّـة مـن الاسـتغناء، كانـت آسـتر تحيـا عـلى أمـل ممسـوس، أن يعـود مـن سـامحت غـدره، مختلقـة له مـن الأعذار مـا تقنـع بـه نفسـها أنّـه اضطـرّه إلى تركهـا، ثـمّ تخـترع مسـتعينة بفسـيح خيالهـا سـببا تـراه ممكنـا وهـو غـير ذلـك، سيشـدّه مـن تلابيبـه، ويجـرّه إليهـا مـرّة ثانيـة، وهنـا الفـرق بـين شـخص آسـتر وشـخص جـوري.

جوري الوردة، بسحرها.. بأشواكها.

يقولون أنّ الإنسان عندما يولد فإنّه يخرج إلى النور، وهو في الحقيقة يخرج إلى الظلام.. ظلام ظلم هذا العالم الدامس.

وُلدت جميلة كدمية، حلوة بيضاء كقطعة سكر، أثار رُوَاء وجهها الصغير لغطا حولها وجدلا، بين من يريد لها «تاليا» على أنّه نور الجنّة، وبين من يفضّل «رسيل» على أنّه الماء العذب، وبين من يقترح «رودينا» على أنّها السحابة التي أظلّت الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، حتى فصل والدها في اسمها قائلا: «بل هي جوري، الوردة الدّمشقية أجمل ورود العالم،على بركة الله».

ولم تزل الوردة تتفتّح يوما عن يوما، تمتصّ الماء فتأخذ من سَلسَاله وزُلالِه، وتحتسي الهواء فتصيب من نقائه وصفائه، وترتشف أشعّة الشمس فينتقل إليها من توهّجها وتألّقها. ولكنّ جمال الغلاف وجمال العنوان لا يصنعان بالضرورة جمال الكتاب، والكتاب مؤلّف من ثلاثة فصول، فهناك العقل وهناك القلب وهناك الروح، وقد كانت جوري كتابا جميلا: غلافا وعنوانا وفصولا.

لكنّ الجمال والكمال لا يستندان كلّ منهما ظهر الآخر لوصف، عدا وصف الخالق العظيم، لذا كان للوردة شوكة شرسة بتّارة.. فكانت جوري كالفيَلة، لا تنسى أبدا من يؤذيها وأذاه.

آستر كانت بتول القلب قبل وسامة نيل، لم تتخيّل ولا خطر على بالها أنّها قد تصادف مثله.. أقلّ من ذلك، أنّها قد تكون الطرف الآخر لقصّة حب، هو طرفها الآخر.

فصلت الاتصال وأطبقت الحاسوب، عودة أُحُد أعطت الحقّ لأحلامها المخبولة وأملها الممسوس بألا شيء مستحيل.

لا شيء مستحيل.. نعم أم لا؟

لا.. هناك أشياء كثيرة تستحيل.

نيل بات في وضع حسّاس لا يحتمل جرأة كالتي اتّسم بها موقف أُحُد، ففكّ الرابطة الزوجية أكثر سهولة وأقلّ أضرارا من تفكيك الخليّة الأسريّة، كان التحق بأُحُد وارتبط هو الآخر بفرنسيّة الجنسيّة لكن من أصول مغربية، انتقلت عائلتها إلى فرنسا بها في بطن أمّها فأكسبوها بميلادها هناك الجنسيّة، وهي من ثمّ أكسبتها نيل بزواجه منها. وللعقليّة الشرقيّة خصائص لا يذيبها ولا حتّى روح الملح الغربيّ، فمثلا لا انفصال للفتاة حتّى اتصال آخر، ولا اتّصال ولا تناسل، وهكذا بمجرّد ما انفصلت زوجة نيل عن عائلتها واتّصلت به، نام واستيقظ فوجد نفسه أبا لابنتين، بينما زوجة أُحُد الفرنسية الخالصة، لم تنجب له، وهذه ثقافتها وثقافة شعبها أن لا بدّ من مسافة أمنية بين خفّة الثنائية وثقل العائلة، أي على الزوجين أن يمنحا نفسيهما فرصة التعرف الجديد الذي عن قرب وهو غير المعرفة الأولى التي كم تخفي من عيوب وتتستّر عن حقائق، قبل أن يقرّرا ما إذا كانت علاقتهما

متينـة كفايـة، وتجـلّي تفكـيرا صائبـا، فعندمـا جلّـت المسـاكنة نقـاط الاختـلاف والـتي لجسـامتها سرعـان مـا هـوت بالألفـة، لـم يضطـرّ أُحُـد ولا زوجتـه الفرنسـية إلى تجشّـم شـقاء العيـش مـع شـخص لـم يعـد مناسـبا فقـط لأنّـه متـورّط معـه جينيّـا في نفـس المنتـج، كمـا كان الحـال بالنسـبة لنيـل وزوجتـه الـتي «ربطتـه» كمـا تكيـد عقليّتهـا، بتينـك البنتـين.

اضطجعـت مـرّة ثانيـة عـلى جنبهـا الأيمـن، جعلـت كفّهـا تحـت خدّهـا، هنـاك أخـيرا بـدأت حاجـة الجسـد إلى أن يهمـد في ذلـك الوقـت المتأخـر تجثـم عـلى سرعـة الطـرف. مـا قبـل أخـير مـا فكّـرت فيـه أنّهـا لـم تغسـل وجههـا مـن كريـم الأسـاس، وخبـيرات التجميـل يتّفقـن كلّهـن عـلى ألاّ أسـوأ لشـباب البـشرة مـن ذلـك، مـا دامـت مسـاماتها تتفتّـح ليـلا كي تتنفّـس فـلا ينبغي أن تجـد ممـرّات الهـواء مسـدودة، شـعرت ببعـض العتـاب خاصّـة وأنّهـا تجـاوزت الخامسـة والعشريـن، وبعـد هـذه السـنّ لابـدّ مـن عنايـة خاصّـة لمـن تطمـح إلى شـباب معمّـر. أهملـت الموضـوع في الثـواني القلائـل اللاحقـات.. مـا أهمّيّـة أن تتنفّـس البـشرة عندمـا يكـون القلـب مخنوقـا؟

أخير ما عبر شاشة ذهنها، كالعادة.. صورته.

أُرخيـت الأشرعـة بمجـرّد مـا ارتخـت، أبحـرت السـفينة زاجّـةً بـه وراء ظهرهـا، شـاطئ الواقـع الكئيـب ينتحـب.. في تلـك الليلـة أيضـا حلمـت بـه، مّـن حـتّى في أحلامهـا أشـعب الـودّ.. تـراه دائمـا يرمقهـا مـن بعيـد بنظـرات تجمّـد قذفـة المـاء في الهـواء إذا مـا اعترضـت سـبيلها، نظـرات خلفهـا قلـب خـاو إلاّ مـن لامبـالاة،

نظـرات ميّتـة قاتلـة.

***

فرّت إلى إعراضها وحضنت جسدها، تخشّل بصرها مستكينا:

- أظنّني بحاجة إلى أن تمهلني..

ضجـر شـهيق أُحُـد كمـا زفـيره، ارتمـى عـلى حصّته مـن السرير، أحـسّ بأنّهـا تحالفـت والتعـب عليـه ولـن يسـمحا ببعـض طـوى الـدفء تنسـلّ إلى قلبـه في تلـك الليلـة البـاردة.

تظّهّـره جالسـة، تتمسّـك بالدّثـار عليهـا، تشـاهد النافـذة لا تنظـر إليهـا، كمـا لـو كانـت تعـرض مسلسـلها الأمريـكي المفضّل، ولعلّهـا كانـت تعـرض خـيرا منـه.. القمـر مـال عـن آخـر مواقعـه، مـا كانـت تمكـن رؤيتـه إلاّ للملتصـق بتلـك النافذة-البـاب، وهـا هـو ذا يختلـس مراقبـة انضـواء انزوائهمـا في حيـاء، فـلا يواجههما إلاّ حينـا ثـمّ يـولّي هاربـا كطفـل صغـير يلاعَـب الغمّيضـة، يسـتر تطفّلـه خلـف الكومـة البرتقاليـة التاليـة مـن قطعـان تلـك المتنقّلـة، الـتي داع إلى العجـب مـن أيـن عائـدة وبـأيّ سرعـة ركضـت ممزّقـة المسـافات عـلى بـراري السـماوات كي تحـلّ فجـأة مـن جديـد وتلـبّي نـداء ذاك الفضـوليّ الخجـول آذنـة لـه أن ينـشرح ويغتبـط ويطـلّ خلـف أسـوارها قـدر مـا شـاء.

اختفى القمر أطول ممّا عوّد..

مـاذا جـرى لـه؟ هـل هـو بخـير أم أصابـه مكـروه؟ أم تلـك

السحب نصبت له كمينا وهو وقع في شراكه؟ أم لا داعي للقلق، فقط رومانسيّته الزائدة تأذّت من ذاك الإزورار عن المودّة والتجاف؟

قام أُحُد، قاطع عتمة الغرفة، باتت موحشة أكثر ممّا يُحتمل بعد أن اختُطِف القمر وصمتت جوري.. مشى إلى جهة حصّتها من السرير أين لا تزال جالسة ولا تزال مطرقة، جلس إلى جانبها، التفت إليها فإذا بعض الدموع ساقطة، اغتمّ لمرآها تنحدر غمًّا أنساه أينه وخيبته، ناشد مكروبا:

- هل لي بيدك حينا؟

مزيد من الإعراض غير لائق، أعطته مسألته..

أمسك يدها برفق، جعلها على صدره تماما فوق قلبه وقال:

- ألا تشعرين به؟

كاد يذرف للسؤال..

وهنت يدها في يده فوق صدره، ارتدّت نظرتها الجريحة عن نظرته الكسيرة وعادت أدراجها إلى نافذة عاد عليها القمر أدراجه، تباعدت شفتاها أخيرا:

- لا.. لا أشعر به إلاّ ينبض لحياتك.

تركها تستعيد يدها، تنهّد وقام إلى النافذة يفكّ أزرار الكمّين، قال وقد انتقل إلى الأخرى على طول القميص:

- التجارب الجديدة دائما..

قاطعته جوري على شفا الاستعبار وقد وقعت في حفرة الاقطرار:

- الجديدة؟ الجديدة؟ ما الجديد عليك؟

دافع عن نفسه على حافّة أن يقع في نفس حفرتها:

- أها! وطبعا هذا الذي يحنقك أنتِ! تعلمين ملابسات تلك الزيجة وأغراضي منها..

ردّت عليه دموعها:

- كذّاب! أنت مجرّد مخادع منافق، ولولا أنّني صرتُ أعلمني الآن أُمِرَ بي الملَك أن يكتبني شقيّة وأنا محض مضغة في رحم أمّي، لما وجدتني زوجة لأكثر رجل عذّبني وكنت قبله أكثر امرأة أحبّته!

هبّ إليها تغطّي وجها يمطر بمخاوفه على أرض من جليد، أراد أن يضمّها فأقصته وارتمت على المخدّة تبكي انفعالا عاطفيا لم يزل يتجمّع ويتكدّس منذ الصباح حتّى فجّرته ذكريات الأسى.

حطّ بيده وجلة على كتفها وراح يمسح ذلك الحيّز المتقلقل، هو يعرف طبعها كما لا يجهل غلطته:

- حبيبتي.. لولا أنّني تزوّجت منها تلك ما كنت حقّقت شيئا ممّا حقّقت، ولا أنا الذي أنا الليلة وأرجو تفخرين به،

ولا كنّـا منتقلَـيْن إلى باريـس.. كان لا بـدّ لي مـن خيـار أتّخـذه، أبقـى هنـا معـك نتشـاطر حيـاة لا نلبـث نكفرهـا ثـمّ تفرّقنـا تراكمـات الهمـوم وضنـك العيـش، أو أسـافر أبـني حيـاة سـترين كـم اسـتحقّت عنـاءك والصـبر، سـأعوّض لـك حبيبـتي عـن كل ملّيـم منهمـا.

مـال عـلى ظهرهـا بصـدره فدفعتـه عنهـا مجـدّدا قائلـة في إكبـار ثـمّ احتقـار:

- لمـاذا لـم يهـرب أوراس؟ أم أنّـه لا يريـد حيـاة كريمـة هـو؟ لقـد بقـي مـن أجـل أمّـه، مـن أجـل حبّـه، مـن أجـل أرضـه.. أمّـا أنـت وذاك مثيلـك نيـل ففضّلتمـا مخـادع النسـاء والنـوم عـلى جيوبهـن الناعمـة عـلى أن تحمـلا الرَّفـش وتصارعـا بـه وعـورة الأرض وخشـونتها، وقادمـا جِـد لنفسـك لمثـل نوبـة حرقـتي هـذه الـتي أنـت وراء دائهـا أعـذارا أخـرى لهـا أن تطفـئ، كأنّـه قـدرك أو قـدري نـادى أحدهمـا عـلى الآخـر أو أمـر بـه أو لا أدري مـاذا قـد يكـون غـير هـذا، لكـن أرجـوك لا تعـد عـلى مسـامعي مـن الـذي كنـتَ تتـبرّأ وتسـتغبيني بـه قبـل قليـل، أنت لـم تحبني إلاّ كمـا ليـس الحـبّ حقّـا، كمـا لـو أنّـك أحببـت سـترة أو ربطـة عنـق رأيتهـا عـلى فاترينـة معروضـة، لكنّـك مـا كان معـك حقّهـا ادّعيـت، فذهبـت زاعمـا إلى جمعـه، ثـمّ لأوّل خطـوة ابتعـدت بهـا نسـيت، وللثانيـة نسـيت ثانيـا، وللثالثـة نسـيت ثالثـا، وهكـذا دواليـك حـتّى عندمـا بلغـت خزنتـك مـا كان بقـي منهـا في ذاكرتـك عالـق، ولا حـتّى أنّـك اشـتهيتها، ولا حـتّى أنّـك رأيتهـا..

نهـض أُحُـد في حـال يـرثى لهـا، كان يتوقّـع بعـض جفائهـا،

بعـض غضبهـا، لكنّـه لـم يرغـب في اعتقـاد حالـة دمـار شـامل كتلـك.. فجـأة هـو مـن صـار بحاجـة إلى تأجيـل لقائهمـا، قـال وهـو ينـوي تـرك الغرفـة:

- لـكِ ليلتـكِ.. لكـن قبـل ذلـك أريـد أن ألفـت نظـرك إلى تحليلـك للأمـور كـم يفتقـر إلى المنطـق يـا ابنـة الفلسـفة، فلـو مـا كان يعنيـني أمـرك اسـتئنافا لِمـا كان، وأكـنّ لـك مـن المشـاعر إسـهابا لِمـا كائـن وكفافـا لمـا سـيكون، فمـاذا غـير هـذا أرغمـني عـلى العـودة إليـك وتكبّـد عنـاء كلّ مـا تكبّـدت عنـاءه في سـبيل إنجـاح وصالنـا؟ هـل تذكريـن يـوم تقدّمـت لـك؟ يـوم رمقتـني بنظـرة شزراء، ثـمّ وقفـتِ اسـتأذنتِ وغـادرتِ مسـتعجلة وكلّـك سـآمة، بـل أظنّـني سـمعتك تتأفّفـين ومـا أحببـت مـن سـمعي أن يؤكّـد لي مـا سـمع، حـتّى صرت أعاتبـه أنّـه وإن يكـن عـلى حـقّ فأنـتِ عـلى أحـقّ، وأنّـني دونكمـا المخطـئ.. رضيـت منـك يومهـا أن تسـخطي عـلى أزهـاري لـكِ في يـدي.. لمـاذا؟ رضيـت منـك الفظاظـة بعـد ذلـك والغلاظـة، والجفـوة والقسـوة والنّـأي واللـأي، لأنّـني لـم أسـامح نفـسي يومـا عـلى اسـتبدالك، ولـو أنّـه جسـدي مسـتبدلك لا روحـي.. لأنّـني أؤمـن بالفرصـة الثانيـة، لطالمـا آمنـت أنّهـا مـن حـقّ كلّ مخطـئ أن يتصحّـح كمـا مـن حـقّ كلّ مذنـب أن يتـوب.. لأنّـني أحبّـك كمـا الحـبّ، الحـبّ! مـاذا غـير مثلـه يفعـل بمثـلي هكـذا؟ بـالله عليـك مـاذا؟ هـا؟ مـاذا؟ لـم تلبُقـي حـتّى وتمـرّري لي ليلـة عـرسي عـلى خـير، ثـمّ لـك مـا بقـي مـن عمـري وهبتـه لـك.. اسـحقيه إن شـئت!

دوّت صيحـة بـاب الحمّـام متأوّهـا لجلـدة ردّه مطبقـا العنيفة،

بما أفزع جوري بيدها على فمها.. خمد بركانها وانطفأت ثورته، فبدأت تعود إلى رشدها وتعقل، لبست رداءها الحريريّ الزهريّ الذي كان نائما داخل حقيبتها ينتظر فراغ ثوب عرسها من مهمّته قبل أن توقظه ويحطّ على ظهرها خليفة له، أحاطت بحزامه خصر إجاصة لحيمة، شدّت عليه الوثاق، قامت إلى المرآة، هجاها رأيها فيها حدّ التأفّف، لقد أفسدت لوحة مكياجها بمياه دموعها، هرعت إلى الحقيبة ثانية استخرجت علبة المناديل المبلّلة المزيلة للمكياج، ومن تلك أسرعت، عادت بمنديل إلى المرآة راحت تعيد به بحركات خفيفة تنمّ عن خبيرة براءة نظرتها الكراميلية فصفاء وجهها القطنيّ ملمسا ولونا، حتّى برقت البرتقالات المتناهية الصغر المبعثرة بجود على ضفّتي أنفها كحبّات نحاسيّة ملمّعة أو نجمات ذهبيّة، فكّت تسريحة شعرها الأصهب الناري فانسدلت ألسنته المتموّجة في حيويّة تتسابق على ما بين كتفيها حتّى قبّلت أطولها العصعص وارتدّت لها جميعها تلويها مستعجلة، صلبتها مستعينة بأحد دبابيس التسريحة على ما فوق القفا بقليل، ثمّ تحوّلت ببصرها عن وجهها تعكسه المرآة أدبر عن أحزانه إلى السرير، تراءى لها حزينا عاتبا، كأنّ جميع أضواء ملعب مسلّطة على فراغ ظهره، وكأنّ الثلج يتساقط على فراغ ظهره.. ثلج الهجر.

شعرت بقرصة الذنب في قلبها، إنّها المجرمة لا أُحُد، أشفقت على آخر صورة له، لقد كسرته..

أنّبها ضميرها واستلمتها نفسها اللوامة حتّى جزعت

لأحكامهما على تصرّفها من مكانها نحو إخلاء الغرفة، مشت صوب الحمّام متردّدة خائفة نادمة، خمس دقائق مرّت، لعلّها عشر.. لماذا يحتجز نفسه هناك؟ لكنّها استرجعت للحال: وهل يوجد من هناك آخر؟

كانت الساعة في الرواق تشير إلى الواحدة صباحا وتلك الخمس دقائق مضافة إليها، في مثل هذا الوقت هي عادة ترقد بسلام، وها هي الليلة لم تعد وريثة عرش حياتها الوحيدة، بات من الضروري أن تتعلّم كيف تحافظ على توازن زورقها بتجذيف جديد معها عليه.

طرقت الباب بلا يقين قائلة في صوت مرتحل:

- أُحُد.. حبيبي أنا آسفة.

لكنّها قبل أن تتلفّظ بحرف زائد، اندفع من معزله ثائرا كإعصار، ممطرا كعاصفة هوجاء لشديد ما بلّل نفسه، ارتعبت لرؤيته يتقاطر غيظا كما ماء في آنٍ لا آنيْن، فغريب عنها هذا الوجه منه، لقد تغيّر.. يظهر أنّ تلك السنوات بعيدا عنها لم يكن نزل فيها ضيفا على حالة النيرفانا، كما ظنّت.

لم تلحق به خشية أن يصدر منه غريب عنها آخر، بقيت في الرواق تتسمّع على استغاثات حقيبته تشتكيه يبثّ الفوضى في محتواها المرتّب ويخلطه خلطا بحثا.. عمّ يبحث؟

صمّ سمعها عن أيّة ذبذبة صوتية دخيلة على أنين الحقيبة

المسكينة البريئة صُبّ عليها الغضب الجمّ وهي ليست في شيء، وقبلها على الباب الغافل لا يقلّ عنها مسالمة، لحسن حظّها هما جماد وإلاّ كانت حملت وزر جرمه في حقهما، شجّعتها ذكرياتها الجميلة معه على الإقدام، مهما تغيّر.. هي تعرف معدنه.

لمّا أطلّت كان هو فرش سجّادا صغيرا قِبْلَتُه النافذة-الباب، وكبّر للصلاة.

اطمأنّت عليه، روحانيّاته ستداويه من لسعتها، استحت من خالقها الذي بجميل أفضاله ردّ إلى قلبها السقيم من أسقمه يشفيه به شفاء لا يغادر سقما، وهي ما شكرت إلاّ كما الجاحدين وناكري المعروف والجميل، أعتقت مثوله بين يدي من سيرحمه لا محالة ويجبر خاطره الكسير من قيد تحديقها، وأسرعت إلى الحمّام توضّأت هي الأخرى، عادت إلى باب التوبة اخترقته كما لو كانت من عائلة الظلال، استنبطت من حقيبتها عباءة صلاتها غطّت بها رداء العروس، ومن على آخر لوح السرير الصّفر التقطت وشاح والدتها ضربت به على جيبها، وذهبت جاورت بسجّادها الصغير كان رافق العباءة في خروجها، جاورت به سجّاد زوجها الجالس بكفّين يرجوان السماء.

لم يلتفت إليها، وهي لم تفهم.. أخاشعًا صار أم عاتبًا لا يزال؟

عاد البدر إلى الأسر.. ما كلّ هذه الغيوم المتوحشة؟

يا لها من ليلة موحشة.

ارتطمت بعض أنواره الفارّة من قضبانها بوجه أُحُد، وعيناه مخضلّتان بالدموع، عادت تحديقتها أَسرته، بعد أن أسرها جمال لوحة به الأنوار الناجية رسمتها، نسيت أنّه في قعرها حزين، رأت وجهه في مواجهة البدر بدرا ندّا قويّا حتّى تراجعت عن نتيجة آخر مقارنة، إنّما بدرها الأرضيّ أوسم من ذاك السماوي، مسح هطول دموعه فانتبهت وادّكرت بعد أمّة أنّها مجمّعة سحبها، أنّها وإنْ أسيرة هي الأخرى.. فآسرة هي الأخرى.

شعرت لمنظره بروحها يُقام عليها حدّ الثيّب الزاني، اقتربت بكفّها من لبدته فإذا هي من ماء.. أبعد خدّه عنها وبدا هجر النظر إليها وهمّ بالقيام عنها، فتعلّقت بذراعه وقد اغرورقت عيناها بالدموع، قالت تطمع في أن يتجاوز عنها وتطمح إليه:

- فلنصلّ، عسى يذهب الله عنّا ما نجد ونكره.

لم يقل شيئا، لم يبتعد أيضا، فقط كبّر، فكبّرت من ورائه.

سلّم فسلّمت، فقامت إلى جنبه جلست، ضرعت إليه أن يضرع بهما إلى الله، انسلّ من صمته الذي كم زادها غمّا، وقال كأنّه أبلّ بعض الشيء ممّا تسبّبت له به:

- يا ربّنا.. إنّك قلّبت قلبي صوب هذه المرأة، ولا أحسبها إلاّ

قلّبت قلبها صوبي، وانقلاب القلوب شديد، ونحن ضعفاء.. يا ربّنا، كما جمعت بيننا في الحلال لك الحمد، نعوذ بألطافك أن تفرّق بيننا فيه، فإنّ هذا شرّ البليّة! يا ربّنا، اقذف في قلبها برد العفو فتسامحني وترجع لي كما عرفتها وألفتها هيّنة ليّنة، وألّف بين قلبينا في ليلتنا هذه، ولا تحرمنا بذنوبنا حظّنا وحقّنا من الودّ في بعضنا، وجنّبنا الشيطان الذي يكره حبّنا، ووسوسته التي تبغي تنافرنا.. آمين.

تلفّت إليها بوجه أبلّ كليّة، فرآها كأنّها الحازوقة بها لشدّة ما بكت صامتا، ضمّها إليه بقوّة إصراره على إنقاذ افتتاحيّتهما، فاختبأت على صدره وضمّته هي الأخرى بقوّة ضعفها بعد أن فتكت ضمّته بهامّ مقاومتها، حتّى لمّا شعر بها أهدأ، أخرجها من بين جناحيه ودفعها قليلا لطيفا لتمكن له رؤية محيّاها، مسح ما بقي من دموعها على خدّيها وهي تنظر إليه حائرة خائرة، ابتسم لها فردّت له الابتسام، عندها أنزل وشاحها عن رأسها وأطلق سراح خصلها، فلمّا حان دور شريط علبة الحلوى وضعت يديها على يديه كأن لتوقفه، فقال:

- ماذا هناك حبيبتي؟

تفادت نظرته بنظرها إلى الأرض وقالت وقد توهّجت وجنتاها بما تناسق وشعرها المرسل:

- لا أدري.

لم يعز منها تفسيرا أو تفصيلا، ابتسم ورفع ذقنها إليه

فارتفعت به نظرتها إلى نظرته لثانية ثمّ هوت ثانية، فتلك كانت تبثّ إشعاعات حادّة، قال لاستحيائها:

- انظري إليّ.

أقلعت نظرتها لكنّها بقيت ترتجف في الفضاء كما لو كانت تعبر منطقة اضطرابات جوّيّة.

قال مداعبا أنفها بسبّابته:

- هل بقي من حبّك لي ولو قدر هذه الكرزة؟

ضحكت كأنّها طفلة صغيرة ثمّ فاهت كأنّها عجوز حكيمة وقد هيمنت الطائرة في ربوع الفضاء:

- بل أحبّك كتلة نار مكان قلبي، لم تسلم واحدة من خلاي جسدي وما أصابها من أُوَارها، حبّا حارقا في صدري كأنّه كرة الشمس المشتعلة في صدر السماء، ما أفلحت في إخمادها كلّ الأمطار التي كانت، ومن تلك ما فاض عن بعض الأرض، ومنها ما أغرق بعضها يوما.. ذاك أنّها أسمى من كلّ ذاك.

لم يثبت أُحُد، خافت وقد بشّ وهشّ:

- هذا كلّ ما أنتِ بحاجة إليه.

مدّ يده يطلب يدها فناولته يدها، قام بها نحو أن يمحوا تلك البداية الخاطئة، بادر صالح ذلك المهجور، تنازل له عن طوله ولا أحبّ إلى قلبه في تلك اللحظة من ذاك الإيثار،

أشار على الآبقة الأخرى براحة يده يكفكف بها مكانها بالقرب منه أن تتوب من قريب، لبّت نداء قلبه وقلبها وجادت كما هو بطولها، التفت إليها بكامل جسده، فالتفتت إليه بكامل جسدها، وضع كفّه على خدّها، فوضعت كفّها على خدّه، وراح كلّ منهما ترتجل خطوات أناملة في أشكال رسومها، وهما تخترق نظراته نظراتها، ونظراتها نظراته، أخيرا تجاور قلباهما، يقرع كلّ منهما باب الآخر قرعا شديدا مصرّا يكاد يذهب به أو يطير هو من ورائه، ساد الصمت، وأُسدلت الأجفان على الأبصار، لم يعد هذا العالم يسعهما، كي تتعانق الأرواح في عالم آخر، عالم يتصادق فيه الذّئب والحمل.. وتتحقّق الخرافات الجميلة.

***

انتفض نيل مستفيقا من نومة لم تدم طويلا لصيحة استنجاد «آستريد» الصغيرة به، طفر مهرولا إليها لمّا عادت زوجته برأسها على الوسادة ألقته واثقة، غطّت من جديد. انقضّ بأحضانه على أحضانها تطلبه، ضمّها إلى صدره بقوّة لا تشبه قوّة آدميّ خارج توّه من وسن مفكّك للعظام.

- إنّه مجرّد كابوس، كابوس فقط.. لا تخافي يا صغيرتي الحلوة والدك هنا، لا تخافي.

سكنت الغرفة في الدقيقتين الموالیتين بالطفلة هدأت في حضنه، وبدأت تتجاوب بإيجابية مع روح الكرى تحوم

ملاعبة جفنيها الصغيرين حتى أوقعت بهما في بلاد العجائب في الدقيقة التالية لتينك الدقيقتين. سمع أنفاسها الرهيفة أعمق من الأنفاس الصاحية، ولكنّه أبقاها في حضنه يربّت على ظهرها القليل. ظلام الغرفة كان رماديّا، فأنوار العمود الكهربائي الجاثم على رصيف البيت كالحارس لا يعترض سبيلها كليّة الخشب الخارجي للنافذة إذ به عديد فتحات ضيقة، تبدو كصفوف قطع مستقيمة متوازية منيرة للإنارة التي تمرّرها. أبقاها وبقي معها على فراش ليس فراشها وفي غرفة ليست لهم إنّما كانت له يوما وهم يشغلونها لأيام ثم يطيرون عائدين إلى بلدها الذي ليس بلده.

نظر إلى زوجته نائمة مستريحة إلى جنبها «إنجريد» الرضيعة، لم يستغرب أنّها ما أيقظتها أختها بصريخها، فَهِم بأنّ والدتها أعطتها من ذاك المنوّم مجدّدا، تنهّد.. كم مرّة ألحّ عليها زاجرا أن تترك الصغيرة تنام طبيعيّا، لكن يبدو أنّ الكلاب تنبح والقافلة تسير.

ودّ لو تبقى نائمة على صدره، هكذا لا تشعر هي وحدها بالأمان وإنّما تُشركه معها فيه ما دام أمانه أمانها، غير أنّه أشفق على كريّة رأسها ما عاد لعنيقها طاقة على حملها وقد استناخت، فتراه يشقى بها على عاتقه وهي تفلت عنه مائلة ذات اليمين مرّة وذات الشمال أخرى، حنا والدها عليه وأراحه من أثقاله على وسادة هي عليه وعليها قويّة أمينة، دثّر برفق جسدها الضئيل المسترخي، ما ترك لبرد تلك الليلة فرصة ولا فرجة يتسلّل من خلالها إليه، طبع

عـلى جبينهـا قبلـة دافئـة، قـام عـن سريرهـا المضيـف إلى السريـر المضيـف الآخـر، جلـس عليـه حـذرا أن يزعـج اسـتغراق الرضيعـة في نومهـا، مسـح زهيـد شـعيرات ناعمـة اعتـدّت لهـا أرضـا سـطح ذلـك المجسّـم الرخـو الضعيـف، ابتسـم حـتى كاد يضحـك لتبسّـمها مـع ملَكيهـا، كانـت نقطـة حسـناء نائمـة، ملامحهـا استنسـاخ لملامـح أختهـا لمّـا كانـت في مثـل سـنّها، تكـرار لملامحـه هـو عـلى حـدّ قـول أمّـه وجدّتهمـا، هـي وأختهـا مـذ جاءتـا إلى هـذا العالـم، صارتـا كل العالـم بالنسـبة لـه، مـا عـاد يفكّـر كمـا كان، ولا ينظـر إلى حقوقـه وواجباتـه كمـا كان، واجباتـه ضمّهمـا، حقوقـه ضمّهمـا كذلـك، أفـكاره.. حاضرهمـا والمسـتقبل.

أخـذ هاتفـه يريـد أن يعـرف منـه مـا إذا كان بإمكانـه أن يعـود كمـا زوجتـه وابنتـه إلى بعـض الاستسـلام ذي الدعـة، فأخـبره بـأنّ السـاعة الخامسـة مـا بقيـت بينهـا وبينهـم مسـافة دقائقيّـة تُذكـر، وأنّ الفجـر تبيعهـا.

تحامـل متعبـا إلى معطفـه، تغطّـى وتمسّـك بـه، شـعر بـأنّ السـاعات الـتي حُرِمهـا نومـه في تلـك الليلـة انتقصـت كلّ واحـدة منهـا درجـة مـن حـرارة جسـمه، أحـسّ بالغثيـان فنصـح نفسـه بـأن يخـرج إلى المسـجد، سـينعش الهـواء البـارد وهـن جسـده، وتحتضـن الصّـلاة الدافئـة بـرد روحـه.

مـضى وكانـت الطريـق بـين بيـت والديـه والمسـجد طويلـة بعـض الطـول، موحشـة بعـض الوحشـة إذ مظلمـة مـن سـوى ذاك العمـود الكهربـائي الأوّل حـارس النافـذة، خبّـأ يديـه، كلّ

واحـدة في الجيـب المـوالي لهـا مـن معطفـه الأسـود، وانصهـر بسـواده في سـواد المسـير، شـعر بمخّـه يتجمّـد كمـا لـو كان خاليا مـن قبعـة جمجمـة عظميـة تدفـع وتـردّ عنـه، سـارع إلى غطـاء الـرأس مـن معطفـه نصبـه عـلى رأسـه ثـمّ ثـم أسرع بإعـادة يديـه حيـث كانتـا قبـل أن يطلـب نجدتهمـا رأسـه انهـال عليـه الصقيـع ضربـا. مـشى في تـؤدة، لديـه متّسـع مـن الوقـت قبـل آذان السادسـة، لقـد تيقّـظ كليّـة ونشـط نشـاطَ مـن نـام زيـادة عـن حاجتـه، فشـكرت أفـكاره للـبرد صعقتـه الكهربائيـة قبـل أن تنـصرف عنـه صارفـة جسـده عـن الشـعور بـه، غريـب مريـب أمـر ابـني عمّـه قالـت، واحـد أقـام الدنيـا وأقعدهـا لأجـل ذكـرى مشـاعر رثّـة، والآخـر عاكـف كالمالـك الحزيـن عـلى أخـرى ليسـت أكـثر حداثـة مـن الأخـرى، وكأنّ هـذا الكوكـب المكتـظّ بالنسـاء أُعـدم فجـأة النسـاء إلاّ مـن هاتـين!

لاحـت لـه أنـوار المسـجد، مقسِّـمة في ريّهـا جـدب العتمـة المحيطـة بهـا عـلى غزيـر نوافـذه، والقسـمة غـير عادلـة، فأهـمُّ النـور ذهبـت بـه منـارة المئذنـة، ولعـلّ ذلـك الأصـل في تسـميتها بذلـك الاسـم، رفـع نيـل ناظريـه إليهـا لمّـا دوّى الآذان الأوّل، كان هـواء آخـر الليـل الثلجـي عبـث بوجهـه الثلاجـي حـتى احمـرّ أنفـه وأعـلى خدّيـه، لقـد كان رجـلا وسـيما فعـلا، اعتـاد في الزمـن المـاضي، زمـن كان مـع ابـني عمّـه، أن تـسرع إليـه العيـون المعجبـة قبلهمـا، وقـد تسـتقرّ عليـه دونهمـا، بقامتـه الفارعـة وجسـده الواضـح، أبيـض أمهـق، خفيـف الشـعرة، ذو نظـرة

كواسرية*، وتبسّم هيطلي**، فوارق الخَلق طفيفة بينه وبين أُحُد، تماما كما طفيفة الفوارق الخَلقيّة بين أُحُد وأوراس.

أُحُد كان كهمزة الوصل بين صورتي الاثنين، الصورة الجسر التي تسمح بالانتقال من نيل إلى أوراس أو العكس دون إغفال التفطّن إلى قرابتهما.. مربوع متين، حنطيّ البشرة كثيف اللحية أهدب العين مفلج الثغر، ولو أنّ العيون كانت تتأنّى الشيء القليل، لأكبرت أُحُدا قبل نيل، لكنّها متسرّعة في إطلاق الأحكام عيون البشر، تنجرف إلى كلّ لامع، وما كلّ ما يلمع ذهبٌ.. لو كانوا يفقهون.

أمّا عن الاختلافات الفكريّة فأُحُد كان وسطا كذلك، بين إفراط أوراس وتفريط نيل الذي ما كانت قامته الفارعة تغني عنه شيئا عندما يتعلّق الأمر بالأفكار، فلا يبرز رأسه وسط سواد رؤوس الناس لأنْ لا لمعان لأفكاره كما لا تلمع أفكار العامّة، ينظر إلى الأمور من زاوية النظر التقليدية، لم يصْبُ يوما إلى ما هو أعمق وأعظم شأنا من زيجة عادية، يُلمّ فيها شمل رجل وامرأة، امرأة يتيسّر تحصيلها وانتهى، إذ كلّ ما كان يهمّه من تحصيلها هو تحصيل أولاده، ثمّ علاقة رياضيّة بحتة، هو بحاجة إلى أولاده، وأولاده بحاجة إلى أمّهم، وبالتالي وكما نصُّ القانون الرياضي: «أ» يساوي «ب»، «ب» يساوي «ج»، يستلزم أنّ «أ» يساوي «ج».
الحبّ؟

---

*كواسرية: من كالكواسر وهى عائلة الصقور

هيطلي: إسم من أسماء الثعلب

«الحـبّ للشّـجعان، الجبنـاء تزوّجهـم أمّهاتهـم» يقـول نـزار قبـاني.

يذكـر آسـتر.. واسـم أولى ابنتيـه مشـتقّ مـن اسـمها، حوّرتـه والدتهـا وأدخلـت عليـه بعـض الحـروف كي يصير أجنبيّـا تعرفـه، وكان هـو مـن اقترحـه عليهـا تيمّنـا بصاحبتـه، وبالأثـر الطيّـب الـذي انطبـع في ذاكرتـه عـن مخالطتـه لهـا، وعـلى ذكـر سـيرتها تلـك، مـا بالهـا البارحـة في العـرس نظـرت إليـه كمـا نظـرت؟ كمـا لـو أنّهـا منخرطـة قناعـة في واحـد مـن أحـزاب مـدام دو سـتايل؟ وتلـك المقولـة لتلـك عـلى ذاك دفترهـا في سـنة قبـل سـنوات تعريـف موجـز عـن السياسـة المتّبعـة في دنيـا مشـاعرها؟ لقـد قالـت نظرتهـا عجبـا عجابـا! لقـد قالـت أنّهـا.. لا تـزال تحبّـه.

***

الدنيا ضوء دون شمس، وهذا حال الشتاء..

أفاقـت جـوري، اسـتغربت لأوّل وهلـة وجـه الغرفـة الـذي يواجـه وجههـا، لكنّهـا في الوهلـة التبيعـة عـاد إلى بالهـا أنّهـا «تزوّجـت». اسـتدارت تبحـث عـن أُحُـد بجوارهـا فوجدتـه غائبـا، أبلـغ عنـه مكانـه الشـاغر، وفهمتـه عائـدا طمـأن عنـه هاتفـه الحـاضر.

انثنـت عـن تمدّدهـا، فشـعرت ببعـض الـدوار لـم تجهـل سـببه، أيقنتـه راجعـا إلى كونهـا تعتـبر كمـن صـام وصـالا، ولا

فـرق مـن سـوى أنّهـا مـا انتـوت ذلـك ولا تعمّدتـه، هـو القلق من عقـد أمعاءهـا فـلا اسـتطاعت بعـد تلـك العقـدة الـتي عقـد أكثر مـن مـصّ المـاء. دون إبطـاء شرعـت ذاكرتهـا قصـيرة المـدى تفرز وترتّـب أحـداث اليـوم المـاضي وتصنّـف كلّ مـا جـرى فيـه داخـل ملفّـات صائنـة، كان هنـاك مـن الفـردوسي وحتّى الجحيمـي، ولولا أن سـتر الله، كانـت أفسـدت الليلـة الماضيـة وقبّحـت ذكراهـا إلى الأبـد. انتصبـت عـن جلوسـها، اسـترت بردائهـا الزهـري، حملـت حقيبـة التواليـت وطقـم المناشـف وتوجّهـت إلى الحمّـام.

خلّـت ميـاه الـدش الدافئـة تنهمـر عـلى رأسـها، وعـادت تفكّـر في الليلـة الماضيـة، كـم كان أُحُـد راقيـا في تعاملـه معـا، لله درّه مـن «جنتلمـان» هـذا الأُحُـد! ابتسـمت سـعيدة بحظّهـا فعندهـم تقـول العجائـز أنّ المـرأة تعـرف حظّهـا مـن زوجهـا، ثـمّ وهـي كذلـك تشـتمل عليهـا الميـاه السـاقطة بعنفـوان وبـلا كلـل أو ملـل، سـمعت صوتـه ينـادي عليهـا، لـم تكـن سـمعت قبـلُ بابـه يُفتـح أو يُـترس، فأطلّـت برأسـها ورفعـت صوتهـا كي تتفـوّق بـه عـلى صـوت المـاء المنهمـر:

- حبيبي أكاد أكمل!

وعادت إلى دفق الطهارة تفرك تحت هطوله وجهها.

خرجـت بعـد قليـل تلـفّ جسـدها ورأسـها، توقّفـت عنـد المرآة هنـاك تغسـل أسـنانها لمّـا التحـق أُحُـد حامـلا في يـده زهـرة بريّـة صغـيرة جميلـة، اتّكأ عـلى واحـد مـن طـولي مسـتطيل بـاب الحمّـام، وأرسـل التّحيـة خـلال بسـمة مثاليـة ونـبرة سرياليـة:

- صباح كلّ أزهار الدنيا، ملكة الأزهار ومالكة القلب..

اقترب منها تجفّف انشراح شفتيها لمطرب غزله وقد فرغت من إنعاش نفَسِها، غرز ساق زهرته تحت منشفة رأسها قريبا من حاجبها، رفع ذقنها حتى لا تقع سهام نظرته السوداء، صيّرها الانبهار كريستالا خارجة عن دائرة الهدف الكراميليّة والتي للبريق بدت شهديّة زيتيّة، فبدا أنّ تلك من رشقته بسهم صباحيّ إلى قلب انبهاره.. وما أخطأت الهدف:

- لا جدوى.. حتّى الحقيقيّات تبدو في حضرتك اصطناعيّات، أيّتها الزهرة الجبّارة!

تناول يدها وقبّلها فكاد ينسى شفتيه عليها، وكادت ترفرف، استحالت فراشة حطّت بدورها بخطّي استشعارها على يده قبلة ناعمة، رفعت حبّها إلى حبّه:

- كلّ صباح وأنتَ لي.. حبيبي.

***

العالم اليوم مقسّم إلى فيلقين، سيّان اعتبرنا معيار التصنيف التقدم أو اعتبرناه التخلف، أو قلنا هو التطور أو عددناه التقهقر.. هناك تلك الدول التي فوق الريح، وهناك الأخرى التي تحت الأرض.

والناس لم يصنعوا حضاراتهم وأمجادهم بأن جعلوا مركز اهتماماتهم وأقصى أمانيهم أن يعثروا على رجال لو

كـنّ نسـاء، أو نسـاء لـو كانـوا رجـالا، أو ينجـبن مـن الرجـال لـو كـنّ نسـاء، أو ينجـبن لهـم النسـاء لـو كانـوا رجـالا.. الأمـر مثـير للدهشـة كيـف أنّ هـذا الموضـوع يسـتقطب ألبـاب النـاس وتتهافـت عليـه قلوبهـم وتطلبـه مسـاعيهم أيـن لا توجـد حضارة ولا تقـدّم يوجـد، وينجـرّ عـن ذلـك ضغـط عنيـف يمارسـه كلّ المجتمـع عـلى مـن يحيـد بأفـكاره ورغباتـه عـن تعليمـات هـذه الروشـيتة الباليـة.

ارتـدت آسـتر معطفهـا، حملـت حقيبـة يدهـا وهمّـت بالفـرار مـن ذاك المـكان اللوذعـي الاسـم البليـد المحتـوى، هكـذا يلقـى الذّهـن الصفـاء بعـد العنـاء. «مكتبـة» و«المكتبيّـات» فيهـا لا أطروحـة أخـرى تتطـرّق إليهـا أحاديثهـن عـدا زوجـي ومـا طعـم وابـني ومـا هشـم، أو خطيـبي لا يريـد أو حبيـب كـم أريـد! ذاك أنّهـنّ كـنّ كلّهـن بـين متزوّجـات ومقبـلات وطالبـات، عـلى غرارهـا.. مـا عـادت تنتسـب إلى أيّ مـن تلـك الطّوائـف.

يقولـون: الطعـام الـذي يُطهـى عـلى نـار متأنّيـة، ينضـج شـهيّا..

الإنسـان بحاجـة إلى الوقـت كي يتطـوّر متوازنـا سـليما.. بحاجـة إلى حقبـة زمنيـة يخلـو فيهـا بالحيـاة وتخلـو فيهـا الحيـاة مـن غير نفسـه، ربّمـا أحـاط ببعـض الخبايـا أو تجلّـت لـه بعـض الخفايـا. لكـنّ المـرأة عـلى وجـه الخصـوص كأنّهـا ليسـت مـن حقّهـا هـذه الخلـوة الشرعيـة بالزمـن، فابتـداءً مـن الثانيـة الـتي ينتقـل فيهـا عـدّاد عمرهـا برقـم عشراتـه إلى الرقـم «٢»، فقـد قُلبـت السـاعة الرمليـة وضُغـط عـلى زرّ الكرونومـتر، ويتـمّ إيهامهـا بـأن

مـرور الوقـت مـا عـاد في صالحهـا، فالبويضـات باتـت مهـدّدة بالانقـراض، وهـذه جزئيـة لا تغـضّ عنهـا المجتمعـات التكاثريـة بقـدر مـا تجعلهـا كليّـة وإلزاميـة.

معظمهـنّ كـنّ أقحمـن أنفسـهنّ في زيجـات تضيـع فيهـا مـن مقاصـد الـزواج الأساسـيّة، زيجـات تـرضي المظاهـر وتخطـب ودّ «البريسـتيج» التافـه، فـكلّ الـذي يهـمّ هـو حلقـة خاتـم رخيصـة مهمـا غلـت مـا دامـت تُشـترى بالنفـس تطـوّق بنـصر اليـد اليـسرى، ويزعمـن أنّهـا القناعـة مـن تحتّـم عليهـنّ ألاّ يضعـن شروطـا أبـدا، المشـاعر أو أقلّـه القبـول، التوافـق أو أقلّـه التقـارب، هـذه كماليّـات ولا أهمّيـة لهـا ومـن تتبـع مثلهـا فإنّهـا تسـير بهـا عـلى طريـق تـؤدّي إلى الهاويـة.. هاويـة بعبـع العنوسـة.

وهنـا قصّـة «المـرأة والعنوسـة» يجـدر أن تنهـل العـبرة مـن قصّـة «الجميلـة والوحـش»، عندمـا التقـت بـه أوّل مـرة ذعـرت وأوشـكت أن تمـوت لفـرط مـا ذعـرت مـن وجهـه، لكنّهـا مـع الأيـام ولأنّهـا جميلـة عقـل كمـا جميلـة وجـه، تعلّمـت كيـف تنظـر إليـه مـن زاويـة نظـر مختلفـة، فوقعـت في غـرام قلبـه السـاحر، ومـا لبثـت أن قلبتـه بحبّهـا عـن ذاك المظهـر الخـدّاع إلى صورتـه الحقيقيـة: فـارس وسـيم ومـن بـه لـن تهيـم.

التكاثـر وظيفـة تـأتي بهـا كلّ الكائنـات الحيّـة، حالهـا حـال التنفـس والتغـذّي وطـرح الفضـلات، لذلـك إهانـةٌ لعقلـه أن يضعهـا الإنسـان صـوب عينيـه هدفـا، والـزواج وسـيلة مـن المفـترض أنّهـا تعـين عـلى بلـوغ الغايـات، لكنّـه لا يسـتحقّ أن

يكـون غايـة بحـدّ ذاتـه. مـا أحـوج النّـاس أن ينتبهـوا عـن هـذا التقليـد الأعمـى، فالتقليـد ينفـي عقـل الإنسـان إلى قوقعـة، والعيـش داخـل قوقعـة يُفقـد البـصر ويُنـسي أنّ هنـاك احتمـالات أخـرى، والحيـاة رحلـة، تُزهـق فيهـا روح المغامـرة لـو اقتـصرت عـلى احتمـال واحـد.

مـا أبأسـها مـن حيـاة خاليـة تلـك الـتي لا تحـوم إلاّ حـول الخواتـم وكـم غاليـة، والمهـور وكـم عاليـة، والرجـال ومـا تشـتهي ومـا لا تشـتهي بطونهـم، والحفّاظـات وأنواعهـا، وحليـب الرضـع وأصنافـه!

آستر مختلفة..

لـن ترتبـط لمجـرّد الارتبـاط، لمجـرّد أن يقولـوا «ارتبطـت»، لمجـرّد ألاّ تخـرج عـن القاعـدة، فليقولـوا مـا يشـاؤون، هـي لا تكـترث، مـا عـادت تكـترث مـذ اسـتوعبت ألاّ تغرنّـك الكـثرة، مـا تفعـل هـذه الكـثرة أنّهـا تتلاحـق، تتدافـع، تتصايـح كي تتثبّـت: «هـذا هـو العـادي»، هـي لـن تلحـق أحـدا كأن لا عقـل لهـا مسـتقلّ عـدا عقولهـم، كأن لا أفـكار بهـا خاصـة باسـتثناء أفكارهـم، سـتمضي في سـبيلها وحدهـا، لا تمانـع أن تبقـى وحدهـا، الوحـدة أنقـى وأريـح مـن إحاطـة متكـدّرة مكـدّرة، «المهـمّ المشـاركة».. لافتـة لـن ترفعهـا يومـا.

- يـا بنـات، علّقـن هـذه المسـابقة عـلى الجـدار هنـاك حـتى يتمكّـن مـن اسـتيضاح أمرهـا كل وفـود المكتبـة.

قـال الحاجـب أقبـل عليهـنّ سـدّ عـلى آسـتر مخرجهـا، تقـدّم

سـلّم الوثيقـة لمسـتندة إلى الجـدار المعـني، قبـل أن يتـوارى مخلّفـا مـن كانـت قبلـه بزهيـد تتـوق إلى الهـروب وقـد أفقدهـا جديـده سرعـة رغبتهـا في اخـتراق البـاب، جعلـت ترتّـب مـن مظهـر وقفـة معطفهـا عليهـا في تبطّـؤ وتنتظـر ألا تنتظـر واحـدة مـن المنكبّـات عـلى الكلمـات المكتوبـات وتبـوح بالفحـوى، تعلم أنّ الأمـر لـن يسـتغرق مطـوّلا، لـن تضطـرّ إلى الصـبر فمثـل هذه الموضوعـات عـادة ليـس في وسـعها الحفـاظ عـلى انتباههـن والإبقـاء عـلى اهتمامهـن، إنّـه فضـول سرقاطـيّ فقـط، وهـذا يولـد محتـضرا.

- آستر أقبلي أيّتها الفيلسوفة..

قالـت المفـوّض إليهـا أمـر الورقـة في تهكّـم جعـل جليسـاتها الأثـيرات يهـزرن.

- اقـرئي لعلّـك تكتبـين، لعلّـك تفوزيـن بالعمـرة هـذه، فـلعلّك تجديـن لـك هنـاك أخـيرا أمـيرا يليق بسـموّك..

زادتهـا وآسـتر تأخـذ عنهـا وقـد أخذهـا اهتمامهـا بمـا تقـول الورقـة عـن الاهتمـام بمـا تقـول المسرورة بتنكيتهـا وبصاحباتهـا يهزقـن في الضحـك.

كانـت مسـابقة كمـا قـال الحاجـب، مسـابقة أدبيّـة المطلـوب فيهـا تحريـر رسـالة مـع حريّـة التوجـه في الخطـاب، والجائـزة كمـا قالـت أمّ الطرائـف عمـرة لشـخصين.

ردّت الأمانـة إلى مركـز حلقـة لاهيـة هازلـة وانصرفـت وانـصرف

ذهنها إلى فحص العيّنة التي سكبتها العين منذ قليل.

الجائزة مغرية، والموضوع يستهوي: «رسالة».. ما ألطف كتابة الرسائل! لكن لمن قد تكتب؟ لوالدتها؟ لجوري؟ هذه وجهات كلاسيكيّة لن تهزّ مشاعر كاتبها ولا قارئها..

لأوراس؟ ماذا عساها تقول له؟ أنّها آسفة؟ وتحترمه كثيرا؟ وتتمنّى له كلّ الخير؟

لا.. لا.. أوراس ليس مصدر إلهام جيّدًا بالنسبة لها.

ثمّ كالبرق يداهم سماء مدلهمّة فيسطع له انشراحها، خطر على بالها كالومضة.. نيل.

هذا لديها ما تقول له، هذه فرصتها كي تلقي بهذه الصخرة الجاثمة على صدرها على قلبها على الورقة، ولتتهشّم الصّخرة.. أو لتتمزّق الورقة!

سارت إلى البيت، وصارت داخله، وصارت داخل غرفتها داخله، وأطبقت بابها عليها، تخفّفت من حقيبتها علّقتها على كرسيّ مكتبها، جلست مباشرة دون تأجيل أو إبطاء. أرخت ضمّة خمارها لرأسها، فتحت حامل الأوراق، انتزعت ورقة، التقطت قلما من الكأس حاملة الأقلام، استلّته من غمده، فرشت الورقة في وضعيّة لها أن تريح يدا تحسبها ستنصب، نزلت برأس القلم على رأس الورقة، ابتلعت تمكّث ريقها في حلقها، رفعت رأس القلم ورأسها لشعور غريب بالحرّ أسعفته بسحب ذراعيها من معطفها، تركته

ينـدكّ عـن انتصابـه عليهـا عـلى الكـرسيّ، بينمـا عـادت بأناملهـا في إثـر القلـم وبالقلـم في إثـر الورقـة، تـردّدت قليـلا بـرأس القلـم تطـرق بـه أولى زوايـا الورقـة، ثـمّ..

هناك جِرَاحٌ محتومة.. ما دمنا نجهل المستقبل.

لا أذكـر شـيئا ذكـري ابتهـاشي بقربـك في ذلـك اليـوم القـصيّ.. فقـد رأيـت في عينـك أجمـل الأحـلام، وسـمعت في صوتـك أعـذب الأنغـام، وكلّ ذاك يـا حـسرتي.. كان ضربـا مـن الأوهـام.

وأعـود، أعـود إلى ذلـك اليـوم الأوّل كلّمـا رُشـق ظهـرٌ ألجأتـه إليـك بسـهم منـك جديـد، أعـود إلى بـراءتي وسـلامة نيّـتي، إلى بسـاطتي وسـذاجتي وأمانـتي واسـتقامتي، إلى ثقـة لسـت أدري مـاذا مـن أفعالـك اسـتحقّها؟ أعـود اليـوم بـلا بـراءة ولا سـلامة نيّـة، ولا بسـاطة ولا سـذاجة ولا أمانـة ولا اسـتقامة ولا ثقـة، أقف أمـام خيـالات المـاضي المترنّحـة لنشـوة الأمـاني الرّائقـة، بصـورة الحـاضر الحانقـة.

أعود.. ولكنّ الماضي لا يعود.

فأجلـس عـلى تلّـة الحـاضر أحيانـا مـن الـشّروق وحـتّى الغـروب أراقـب السـفوح السّـابقات، كمـا يسـترجع المعذّبـون عـلى أراضي العـذاب عذاباتهم.

كلّ مـا كنـتُ بحاجـة إليـه هنـاك في أحضـان مـاضٍ غـويّ هـو لقطـة واحـدة لـو كان غيـب المسـتقبل يجـود.. أن تمتـدّ نحـوي يـد بيضـاء وسـط ليلـة للأشـواق سـوداء، وتهبـني صـورة

تجمعكما، وتهبني الخلاص.

ماذا كنتُ أفعل وأنا أحبّك كلّ ذاك، إلّا كمن يشيّد قلعة على أرض سقيمةِ زلازل؟.. أو يكتب على الصبورة بدل كرّاسه؟.. أو يدعك جوف فرن من حبّات الرّماد؟

ماذا كنتُ أفعل وأنا أنتظرك، إلّا كمن يرتقب عودة الزّفرات إلى صدور الأموات؟.. أو انحسار الأنّات عن المعاناة والمقاساة؟

ماذا كنتُ أفعل.. وماذا كنتَ تفعل؟ وشتّان بين الأفعال.. شتّان.

هناك طعنات لا مفرّ منها.. ما دمنا لا نستطيع أن نتواجد في كلّ الأمكنة في كلّ الأزمنة، ما دمنا لا نستطيع أن نرى كلّ شيء.

أعود إلى ذلك اليوم الأوّل، إلى حماستك التي أنجبت حماستي، إلى وعودك التي أنجبت آمالي.. ثمّ أعود إلى اليوم الآخر، إلى اليوم الأخير، إلى يوم العرس. وأعراس قوم عند قوم مآتم.. فقد كانت صورتها إزّائي، وكنت أنظر إليها, أراعيها ببصري ، أعاين وجهها تقسيمة تقسيمة.. لكنّني أخفقت! عجزت أن أرى فيه الشمس التي رأيت.. أو نجمة الشّعرى. لم أر لِمَ رأيتَها امرأة أكثر؟ لِمَ رأيتني امرأة أقلّ؟ لكنّني أحسبك لا ترى جيّدا.. أو هي المضامين على أشكالها تقع.

وتكدّر العرس، حتّى صرت أسمع الأغاني نواحا وأرى الرقص تلوّ وأزدرد الحلوى مرارة.. كنتُ بحاجة إلى صورتها في يوم متقدّم عن ذلك اليوم بآلاف الأيّام، أن ينزل بها من السّماء ملَك في ظرف أسود ويقاطع جلوسي إليك في خضوع، وإنصاتي لك في خشوع، منذرا إياي بالرسالة القاتمة من خيانة قادمة.

كنتُ بحاجة إلى أن أراك تطرق بابها وتطلب والدها.. كي تسأله يدها.

كنتُ بحاجة إلى أن أسمعك تحدّثها عن موعد العرس وعدد المعازيم، ودلال السّهرة واجتذال السّفرة..

كنتُ بحاجة إلى أن أنقلب شبحا، فأحضر عرسك وأشهد تفاصيل الوُدّ بينكما..

ولكنّني كنتُ غائبة غافلة عن الذي يحدث هناك بعيدا عنّي.. جالسة أو واقفة، نائمة أو صاحية، أقلي بيضة أو أطالع كتابا، أشطف ثوبا أو أكنس حيّزا، أسقي زهرة أو أطعم عصفورا، أنظر عبر نافذة الغرفة أو الحافلة، أشاهد فيلما أو أنصت إلى معزوفة، أصفّف شعري أو أفرّش أسناني.. وأفكّر فيك. كنتُ أفكّر فيك بمواظبة لم يحظ بمثلها التزام في حياتي، أفكّر فيك كما لم أفكّر في معضلة في حياتي، في أنّه لا يعقل أن تنساني، فما بيننا زمان وحنان.. أفكّر في أنّ القلوب تتعلّق والأرواح تألف، في أنّ للماضي روحا طوّافة لا تفارق الأحبّة.. أفكّر، أمّا أنت.. فنسيتَ.

فكيف نسيتني أيّها الخارق، وقلبت صفحة عملاقة فولاذيّة في طرفة عين؟ ألأنّك رجل، والرجال بعضلات أقوى؟ أم هي الصّفحة.. فولاذ عملاق معي وورق حقير معك؟

لا بأس، أستطيع أن أستوعب أحكام النّصيب أعزّت أم أذلّت، بيد أنّني أقلّ نباهة عندما يتعلّق الأمر باحتواء بعض السّلوك عن بعض البشر.. من أنتَ؟ هل يعقل أنّ حبيبي الذي عرفت معه أصدق مشاعر قلبي وأحلى سنوات عمري هو نفسه أنت؟ هو نفسه من استعاض عنّي بزيجة مستعجلة؟ بعد أشهر بعدي، تلبس البدلة وتخاصر البديلة؟ ألا يمكن أنّني عشت قصة كساندرا بطلة الفيلم المكسيكي الشّهير، أحببت رجلا وما الذي ظلّ يفجعني المرّة تلو الأخرى بآخر غير التوأم الشّرير للطّيب حبيبي؟ أم أنّه انفصام في الشّخصيّة.. داء حبيبي؟

لا أدري، وأحسن ما في الأمر وأنفع من أن أدري أنّ الدراية لم تعد همّي، كلّ ما أدري أنّه نصيب من الألم كُتب عليّ فتألّمته، بصرف النّظر عن سبب الألم.. وأنّك ما أطلّلت على مسرح حياتي كي تلعب دورا أفخم من عروس قرقوز قدريّة، أرسلتها أيادي الحكمة الخفيّة لتبهجني حينا، تشجيني أمدا.. ثمّ ألقاها خلف الأستار دمية بلا روح.

الإيمان هو الجواب، والإيمان هو الدّواء، والإيمان هو العزاء، وكما قال أحد العارفين لرجل تعدّى عليه: «إن كنتَ ظالما، فالذي سلّطك عليّ ليس بظالم».

لقـد غربـت الشـمس واغتربـت الطيـور، فهـذا الشـق الثـاني مـن اليـوم أقبـل، وهـذا الشـق الثـاني مـن الرسـالة مقبـل.. بالمناسـبة، مـاذا كنـت فهمـت مـن الأوّل؟

كالعادة.. لا جواب لمن أسأل، فلا وجود لمن أنادي.

إنّك غـارق في حياتـك الـتي تخلـو منّي، فكيـف تسـمع سـؤالي؟ أو كيـف تـردّ عـلى نـدائي؟

لا عليـك فقـد تعـوّدت الصّمـت يسـمع عنـك ويـردّ، والصّمـت أوفى..

لا عليك فقد سكن قلبي..

فاقبل وفاة حبّك وميلادي..

لأنّها الصخرة يا نيل.. انزلقت إلى الوادي.

***

تحرّكـت الطائـرة عـن جمودهـا، بـدأت تسـير، تـسرع أكـثر كلّمـا دارت عجلاتهـا أكـثر، حـتى انطلقـت تعـدو، حـتى وثبـت انقضّـت عـلى الفضـاء وراحـت تتسـلّق أدراجـه، حـتى وطئـت ببطنهـا ظهـر السـحب وفوّضـت هيكلهـا الحديـدي الهائـل إلى محرّكهـا المسـتحكم، يمحـو الجاذبيـة الأرضيـة والفـوارق المكانيـة.

عـلى كتـف أُحُـد، اسـتقرّت نفـس جـوري لسـفينة الفضـاء اسـتقرّ تأرجـح جناحيهـا، بعـد خفـوق تسـبّبت لهـا بـه جلبـة

إقلاعها، هي لم تسافر قطّ جوّا، ومع ذلك ما لبثت أن استأنست لمنظر السحب أسفل منهم، وراء النافذة الصغيرة عن يمينها.

كانت مشاعرها معقّدة تعقّد هواجسها: جزء مسرّة، شطر حماسة، قطعة خوف، وقسم شجن.. لقد تركت خلفها أهلها وأحبّاءها وأرضا طلعت إلى الحياة على وجهها وتشرّبت من تربتها وهوائها.. من اليوم تفصلها عن هذا المألوف مسافات قارية لا حول ولا قوة لها عليها وسائل النقل البسيطة التي عهدت من سيارات وحافلات، وأمارة ذلك أنّها نفسها سيّارة أُحُد كانت مسافرة، بالباخرة هي لا بالطائرة.

إنّها ذاهبة إلى الغربة، حيث الشوق يأتي عن اليمين وعن الشمال ويطلّ من فوق الرؤوس وينبجس من تحت الأقدام.. ستشتاق وتشتاق، ويحها كم ستشتاق وتحنّ! إلى الحبيبين، إلى شِفاء وجنونها، إلى شهاب ومعاندته، إلى آستر.. ورفقتها.

فضّلت ألاّ يرافقوها إلى المطار خشية أن تنتابها حالة هياج عاطفي ما، تفلت خلالها زمام نفسها وتركض بها عن الطائرة صوب الملوّحين بأيديهم، وهي لا يخفى عليها عن الفراق مذاقه الحنظليّ، لذلك كلّ مراسيم الوداع تمّت في بيتهم، وحاولوا جهدهم كلّهم أن يخفّفوا من مأساوية الموقف إلى أن أسرع أُحُد اختتم وقفة اللمة المفارقة بوعود واثقة قبل أن تنبع العيون المحيطة به، وتغرقهم في أجواء هم في غنى عن دراميتها.

أُحُد غدا الشخص الوحيد الذي تعرفه، ويمكنها أو لا خيار لها آخر غير الوثوق به والاعتماد عليه، إنّها مقبلة على دنيا أخرى، مغايرة تماما.. لغة أجنبيّة، دين مختلف، أفكار في الاتّجاه المعاكس، عادات غريبة وتقاليد غريبيّة، أشكال غير مألوفة.. نمط حياتي تحتمله سيتنافر حتما مع نمط حياتها السابق الذي لا تنوي أن تنسلخ من مجمله، لذا لا تتوقّع منه أن يأخذها بالأحضان منذ أوّل لقاء، هي لن تتجرّد من مقوّمات شخصيّتها ومميزات إنسانها، دينها على وجه الخصوص، ظاهره وباطنه، وأمر صار مشهورا منذ غير حديث رفض بعض الغربيين وإنكارهم لبعض ما يترتّب عن حريّة الاعتقاد الديني، كحجاب المسلمة مثلا، وهنا فرنسا هي الأقلّ سمعة حسنة.

وحتّى وبعض هذا القلق يساورها ويسعى جاهدا لهدّ بناءات جميلة اسمها مشاريعها، فإنّها سافرت حاملة معها فوق أمتعتها حقائب طموحات وأحلام هي أثقل من كلّ جهاز عروس جديدة، تريد أن تواصل دراستها، أن تضع يدها على دكتوراه فرنسية.. أن تقوم بكلّ ما كانت منه محرومة في بلادها، وما كان حرمانها نزرا يستهان به، فالمرأة من حيث قادمة هي لا تزال غارقة لم يطلع رأسها عن سطح الماء وإن صعدت عن قعره، لا تزال مكبوتة ولا تزال الطريق أمامها طويلة وكؤودا قبل أن تعكس لها مرآة حالها حال امرأة أجنبية.

الحياة في دول العالم الأوّل محشوّة الأيام ملوّنة، مستبعد

هنـاك أن تقـع في لبـس الـ «في أيّ يـوم نحـن؟»، السـبت سـبت والأحـد أحـد، لـكلّ يـوم طعمـه الخـاصّ أنّ لـه أشـغاله الخاصّـة وربّمـا ترفيهـا خاصّـا بـه، فتلـك مجتمعـات الهوايـات، الهوايـة ليسـت رفاهيـة في اعتقادهـم، إنّمـا حتميّـة ينشّـأ عليهـا الطفـل منـذ أبكـر مـا يمكـن، وبهـذا لـم يقضـوا عـلى الفـراغ فـقـط، فـفيما دول العالـم الثالـث لـم تـرم الأبيـض والأسـود هـم تفتّنـوا في زركشـة صـورة شاشـة دنياهـم، ومـا يصـل مـن حضارتهـم عـبر وسـيط أقمارهـم الصّناعيـة ليـس إلّا مـا يتصدّقـون بـه عـلى التّخلـف.

شـاهدت جـوري عـلى التلفـاز يومـا ممارسـة «اليوجـا»، ومـذ ذاك راقـت لهـا أو هـي ولعـت بهـا أنّهـا تقنيـة شـاملة منفعتهـا رؤوس مثلـث الـذات البشريـة: العقـل والـروح والجسـد، غـير أنّـه مـا كان مـن حقّهـا أكـثر مـن أن يـروق لهـا أو تولـع، فهنـاك هـم أنـاس يتفرّجـون عـلى الأحـداث، أمّـا اليـوم وقـد انتقلـت إلى الضفـة حيـث النـاس يصنعـون الأحـداث، فإنّهـا تريـد أن تتسـجّل في نـاد ريـاضي أو مـا شـاكل ممّـا يُعـنى بمثـل تلـك الممارسـة، وبالتـوازي مـع ذلـك، تريـد أيضـا عمـلا صغـيرا تعفـي بـه أُحُـد مـن نفقـات إضافيـة، هـي تريـد أمـورا عديـدة وفي نفـس الوقـت لا تريـد أن يكـون لتحقيقهـا لذاتهـا تبعـات عـلى ميزانيتـه، كأن تئيـض إلى مصّاصـة لراتبـه، تعلـم أنّـه بـات زوجهـا فـلا تجمـل معامـلات شـبيهة بتصفيـة الحسـابات، غـير أنّـه مغلـوب عـلى أمرهـا.. نبتـة الدّبـق يسـتحيل أن ترسـم رمـزا لشـخصيتها.

هنـاك أيضـا المتاحـف والمعالـم السـياحية والقاعـات السـينمائية والحفـلات الموسـيقية.. هنـاك الكثـير تتـوق إلى اكتشـافه، وأبسـطه القيـام بنزهـة عـلى قـارب أو.. دراجـة! أو حـتى مشـيا، فالمناظـر غـير المناظـر، والجديـد غـير القديـم.. كلّهـا تبـدو أفـكارا شـهيّة مشـوّقة شـوقا تعـوّل عليـه أن يخفّـف مـن وطـأة الشـوق الأوّل.

لطالمـا علمـت حدسـا ثـمّ بفضـل الأقمـار الصناعيـة تلـك أن هـذا العالـم أوسـع مـن الحـدود الضيقـة الـتي تضيّـق بهـا عليهـم الخنـاق الثقافـة الـتي تنتمي إليهـا.. تنتمي إليهـا أصـولًا، لا قناعـة ولا موافقـة.

لـم تكـن تشـعر بأنّهـا إنسـان كامـل الصلاحيـات: قائمـة ممنوعـات، قوائـم مفروضـات.. لمجـرّد أنّهـا أنـثى.

اليـوم.. وعـلى قـدر مـا تريـد كلّ مـا سـبق، تريـد أكـثر منـه وكفـى بهـا.. الحريّـة.

أن تنكـسر الأغـلال الـتي تقيّـد أطرافهـا وتعيـق تدفّقهـا، تلـك الخاصّـة بالمجتمعـات الـتي تكـنّى سـائرة في طريـق النمـو، وسـيرها أشـبه بالركـود مـن الحركـة، أشـبه بالرجـوع إلى الخلـف مـن الركـود، أن تسـقط أحمالهـا الثقيلـة لهـذه المجتمعـات عـن كاهلهـا، أن تـراه أخـيرا.. ضـوء الشـمس.

هـذه الإرادات اجتمعـت وتظاهـرت حضّتهـا وحرّضتهـا إلى جانـب دفـع والديهـا عـلى الموافقـة، ومـن دون ذلـك كانـت رفضـت رفضـا عبارتـه عندهـم لشـدّة مـا قاطـع: «لـو أنّـني

أعلمـك آخـر جنـس الرجـال!».

قصّتها مع أُحُد قصّة تشترك في المطلع مع آلاف القصص العاطفيّـة في تبدّيهـا أجمـل وقائـع الحيـاة، تشـترك في لوعـة النهايـة مـع آلاف القصـص العاطفيّـة كذلـك، تختلـف عـن آلاف القصـص.. في تفصيـل العـودة.

عاد.. لكن بعد ماذا؟

عندهم يقولون: «يا لي رحت وولّيت وش من بنّة خلّيت؟».

لا شيء مـع السـعادة يذهـب سـدى، كأنّهـا تتقـاضى عـن زمنهـا أسى يوافـق امتـداده وشـدّتها، تناسـب طـرديّ بـين كمّـي الطـرب والكـرب في أعقابـه.. والنتيجـة الـتي توصّـل إليهـا «لافوزييـه» أن «لا شيء يضيـع، كلّـه يتحـوّل»، لعلّهـا اختلفـت معهـا لاحقـا الأبحـاث المتواليـة والتجـارب المتتاليـة، لكـن بعيـدا عـن العلـوم الدقيقـة.. كـم كان محقّـا لافوزييـه، وكـم كانـت دقيقـة مـن نتيجـة توصّـل إليهـا.

كلّ نشـوة جـوري الأولى تحوّلـت إلى حرقـة وحـسرة في الأخـير، كل أعـراس أحلامهـا تحوّلـت إلى مآتـم وجنائـز مزاجهـا، كل حبّهـا انقلـب عليهـا كوحـش مفـترس ينكـر مروّضـه، وتحـوّل إلى وحشـة بينهـا وبـين نفسـها، وإلى فـراغ تحـوّل كل مـا يحيـط بهـا.. وهـو أيـن كان لمّـا كانـت تعانيـه؟

مع امرأة أخرى..

رفعـت رأسـها عـن كتفـه لآخـر مـا راودهـا، سـتظلّ هـذه المـرأة

الأخـرى وإن زالـت.. سـتظلّ بينهـا وبينـه كالكبـيرة بـين العبـد وربّـه.

أمرّ من الصبر؟

نعم حاضر.. إنّه الاستبدال.

بعد الاستبدال، يسرّح الصبر..

تختـصر كلّ نـاس الدنيـا في واحـد يختـصرك واحـدا مـن نـاس الدنيـا..

وتتوقّـف عنـده وتخيّـم.. ويتجـاوزك كمـا يتجـاوز الأرض بالخطـى.

كيف تتجاوز إنجازا تجاوزه بعد ذلك؟

كيـف تنـسى أنّـه اسـتطاع أن يدبـر عنهـا؟ أن يتركهـا واقفـة تنظـر إليـه بدموعهـا المخبـوءة يبتعـد عنهـا؟

ويمـضي.. متأكّـدا.. تتصاعـد عنـه أبخـرة كل اهتمـام كان منـه، لا يوقفـه إحسـاس بالذنـب، ولا يلتفـت إلى ذكـرى.. مـا هـذا؟

لا.. ليس قوّة.

فقـط جهـاز كاشـف.. ألكوتسـت.. يفضـح كـم كانـت نسـبة المُدَّعَـى حبيبـا في دم المُدَّعِـي الحـب؟

وهـي واقفـة تشـهده ينـصرم دونمـا أيّ ترنّـح، مـا عـادت بعـد ذلـك المشـهد لهـا قابليـة تصديـق أي قسـم!

أنّ نسبتها يوما كانت أكبر من ٠٫١ في الألف.

غيهب

«اللقاء ليس إلّا بداية لفراق».. مثل ياباني.

وانقضى شهر العسل كالضرمة بالنار.

- جوري.. هل أنت نائمة حبيبتي؟

قال أُحُد العائد لتوّه من سهرة قضاها برفقة نيل.

شعرت بمعطفه سقط بجانبها لكنّها لم تحرّك ساكنا، وعتمة الغرفة لم تسمح له بملاحظة رعشة جفنيها، فكرّر السؤال من خلفها وقد وضع يده على ذراعها هزّه بها لطيفا يبغي سحبها من بين ذراعي ما خاله نوما.. نحو ذراعيه.

كذبت هزّة خفيفة والتفتت إلى يده على ذراعها:

- ماذا هناك، أُحُد؟ ثمّ كم الساعة الآن؟

قالت وصوتها يمثّل دور الواهن.

- محض العاشرة والنصف حبيبتي، واشتقت إليكِ..

أبعدت كتفها عن قرب يده وقالت وهي غابت عن خاطرها كل تعليمات دورها التمثيلي وفي نفس الوقت انزلقت داخل دور تمثيلي آخر:

- كيف تشتاق لي وأنا لا أغيب؟

صمت قليلا كي يسترجع ويستجمع، كي يدحض حجّتها مسايرا تمثيليّتها:

- إنّما هذا أفظع أنواع الشوق.. لقد كنت في ليال قد خلت،

وغيابـك يؤرّقـني، أفـرّ إلى أحـلام ألقـاك فيهـا باسـمة ودودة.. ثـمّ أسـقي زهـرة الحلـم تلـك بدعـاء مـا أسرع مـا يغدقـني أمـلا، فأنـام هانئـا مسـتبشرا أنّ الغـد جميـل ولناظـره قريـب.. كنـتِ غائبـة حـاضرة.. أمّـا وأنـت حـاضرة غائبـة، فيـا حـزني عـلى نفـسي بمـاذا عسـاي أسـلّيها، وريثمـا مـاذا تـراني أمنّيهـا؟ كـم مـرّة هنـأت فيهـا بحـبّي لـك؟.. مـاذا تريديـن بهـذه الضغنـاء؟ ومـا رجـاؤك أن تجـني منهـا هـذه الشـحناء؟ مـن هـذا المحـارب المنكـر الـذي ألقـاه يلقـاني دومـا عـلى أهبّـة الاسـتعداد للهيجـاء؟ وبنظـرة شزراء؟ مـن وراء درع وشـلحاء؟ أيـن جـوري وردتي الصهبـاء؟

إنّـك تهدريـن لـو تعلمـين أوقاتـا ثمينـة، بـل لا تقـدّر بثمـن.. كـم حجـم مـا تعلمـين عـن القـادم؟ لمـاذا تؤجّلـين السـعادة؟ تعبثـين بهـا إلى وقـت قـد يطردهـا؟ لمـاذا تطرديـن فرحـة أكيـدة جاثيـة عنـد عتبـة دارك تسـتجديك الـنزول بمنزلـك؟ تصفقـين بابـك في وجههـا وتجلسـين وراءه تنتظريـن افتراضـات أفـراح أخـرى قـد لـن تطـرق بابـك المقطّـب يومـا.. هـل النشـوة الـتي يصبّهـا في قلبـك الشـعور بأنّـك تثأريـن ألـذّ إلى قلبـك الـذي مـا عـدت أعـرف مـن أن تدعـي المـاضي يرقـد بسـلام في قـبره، ولا تجحـدي نعمـة حـاضرة بنـواح صامـت متواصـل سـاخط عـلى قـبر نقمـة ماتـت مـن بعيـد؟ وليـت شـعري كنـت أعلمـه مقـت فعـلا خلـف كل جفائـك هـذا..

عاد بيده على ذراعها:

- حبيبـتي.. حرّرينـا مـن المـاضي ودعينـا نعيـش اللحظـة، إنّهـا كل مـا نملـك.. عيشـيها.. دعيـني أعيشـها.

وقفت حروفها، كلّ حرف بباب مخرجه تنتظر وصول دمعتها إلى حجرة العين، قالت بعد أن هوت تلك ثقيلة ساخنة:

- دعني أُحُد، دعني أنام.

أطرقت الغرفة المظلمة لحبّة زمن دقيقة كدقيقة، لحظة صمت سوداء، قبل أن يتمرّد أُحُد على وطأة ذاك الجوّ الرهيب، قائما نحو هائما على وجهه في الطرقات.

التفتت صوب انطباق الباب عليها وحيدة في السواد والصمت، لم تتوقّع أنّه سيخرج، ظنّت أنّه مثل كلّ مرّة تدّعي فيها الإغفاء سيدعو لها أمان الله، يقبّلها على خدّها وينام إلى جنبها هادئا وديعا مسالما كنسمة ربيعيّة، هل بدأ يضيق ذرعا؟ فلو ذاك، فإنّه يصعب على نفسيّة الإنسان وعلى قدر ما كان محبّا وحليما أن يتحمّل نكدا لا يغيب إلاّ ويعود، ولا يعود إلاّ.. ويمكث.

ولكنّها الحياة، فيها قضايا وشؤون شائكة جدا، ولا آدمي ولا حتى أعدل القضاة يفصل فيها ولا يظلم، حالات تجمع بين مجرمين هم أنفسهم ضحايا.. وضحايا هم أنفسهم المجرمون.

كان ظاهر جوري كجلّ المظاهر.. كاذبا.

ما كانت راضية عن الزوجة التي صارت، دور القويّة التي في غنى عن حبّ زوجها وعطفه برعت في تقمّصه، تزامنا مع

ذلـك وفي مـكان سـحيق مـن روحهـا، كانـت تشـعر بضعـف، كـذاك الضعـف الـذي يرافـق الأسـقام.. فتخـور لـه الأجسـام.

يحـدث في الحـبّ، أن يصمـد الأصـدق بصـدر عـار أمـام الآخر يـشره دبّابتـه صـوب قلبـه، يفجّـره.. ويتلاشى.

ولـو في وسـع الرجـل الضحيّـة أن يخـرج بعـد المجرمـة إلى الطرقـات يقلّـب بـصره بـين رائحـة وغاديـة حـتّى يجـد لـه بلسـما بدايـة علاقـة بديلـة، فـإنّ مثـل هـذا ليـس متاحـا جـدّا للمـرأة الضّحيّـة في مجتمعـات القواقـع، وعليـه ليـس نـادرا بسـبب ذلـك مـا تلقاهـا لا تـزال جالسـة بقلبهـا المندثـر بـين يديهـا عـلى حجـر مـن الأحجـار المندثـرة عـن انهيـار مدشّـن علاقتهـا الأولى، وهـي تنظـر إلى الآثـار، وتبـكي عـلى الأطـلال.

بعدهـا تحتّـم عليهـا غريـزة الدفاع عـن بقائهـا القيـام فتقوم، تـدس قلبهـا المـضرج بدمـه في جوفهـا وتقوم..

لكنهـا تقـوم بقلـب مـضرج بدمـه، وقـد انطبعـت في ذاكرتهـا صـور الدمـاء والدمـار، وتعـود إلى الحيـاة بتلـك الصور البشـعة، معلّقـة تمـلأ جـدران غرفـة ذهنهـا.

وفي نفـس تلـك الغرفـة الـتي صـارت مطليّـة ألمـا وقسـوة، تحتّـم عليهـا اسـتمراريّة الحيـاة هـذه المـرّة أن تسـتقبل وفـودا جـددا، زوّارا قـد يسـتقبحوا أو يستشـنعوا ديكـور الغرفـة.. ففـي آخـر المطـاف، مـا أدراهـم هـم عـن قصّـة تشـاؤمها وحدادهـا؟

ثمّ ماذا لو أنّ الزائر الجديد ليس جديدا بمعنى جديد؟

ماذا لو ما هو في الحقيقة إلاّ مهندس ديكور الغرفة..

***

جرّتها من بين ذراعي النوم عنوة نغمة الجوّال..

مـدّت يـدا متكاسـلة إلى المنضـدة بجانبهـا، التقطـت مصـدر الإزعـاج دلّهـا عليـه ضـوؤه، رمقتـه بعـين واحـدة فـإذا الرقـم مجهـول.. أسـكتته وأعادتـه وهمّـت أن تعـود فعـاد يصيـح مجـدّدا، تذمّـرت ملامـح وجههـا وانصبّـت عليـه قبضتهـا، حدّقـت فيـه بكلتـا عينيهـا لمّـا صمـت مـن تلقـاء نفسـه، ولأنّهـا لـم تفتـح المكالمـة ارتسـم عـلى الشاشـة مـا معنـاه رقمًـا ورسـمًا وكلِمًـا أنّهمـا اتّصـالان فوّتتهمـا. بجانـب ذلـك أظهـرت سـاعته الإلكترونيـة أنّهـا الرابعـة وأربعـون دقيقـة.

انقلبـت بوجههـا وثـب الـروع عليـه مـرّة واحـدة فأعـاده إلى وعيـه كمـا كان ليفعـل دلـو مـاء بـارد سـقط عـلى البقيّـة الوسـنى فيـه إلى حـيّز أُحُـد، تحسّسـته حـتى وهـي تـدري أنـه خـاو منـه، مـا شـعرت بغـير معطفـه وموجـة جـزع ممـزوج بالهلـع تباغـت تمـام حضـور وعيهـا.. رنّ الهاتـف ثالثـة، أشرق مصبـاح الشـعلة الكهربائيـة:

- ألو..

قالـت وقـد تجمّـدت كل التفاعـلات الفكريـة في رأسـها تجمّـد الدمـاء في عروقهـا، تجمّـد ريقهـا في حلقهـا.

- مدام جوري؟

سأل متحدّث بلكنة فرنسية.

-نعم أنا..

ردّت وقد تملّكها القلق من ألاّ تفهم أو لا تُفهم أو.. تفهم ما لن يسرّها أن تفهم.

- والسيد أُحُد زوجك؟

تابع المتحدّث الفرنسي..

صاحت:

- ويلي أُحُد! ما به زوجي؟!

-سيّدتي عليك الحضور إلى مستشفى سانت فيليب، يؤسفني أن أعلمك أنّ زوجك تعرّض لحادث مرور.

وأغلق الخط، وانقطع التيار الكهربائي.. أو هي الشعلة، غربت أنوارها.

***

«يقـضي نحـو ١،٢٤ مليـون نسـمة نحبهـم كلّ عـام نتيجـة حـوادث المـرور»، عـن منظّمـة الصحـة العالميـة.

وبالرغـم مـن هـذه الإحصائيـة المرعبـة، فـلا أحـد يعتبر نفسـه معنيّـا بالحذر.

يقولـون: «لا حـذر مـع القـدر»، وهـو كذلـك لـو كان حـذِر ومـا دحر.

لكـن أن نقـصي الحـذر ثـمّ نتّهـم القـدر، هـذا كلام فـارغ لا ينبـت إلاّ عـلى ألسـنة الدراويـش.

والحـذر ليـس مفروضـا عـلى السـائقين داخـل مركباتهـم الغـدّارة فحسـب، كلّنـا مطالبـون بالحـذر..

لا يأمـن مكـر الأيّـام وتقلّـب الدهـر إلاّ سـاذج، المصائـب تقـع ووسـائل الإعـلام تشـيع وهـات مـن يتّعـظ..

نحـن لا نتّعـظ لا مـن المصائـب ولا لنـا أسـوة حسـنة في مـن تعظهـم المصائـب، أو مـا حاجتنـا إلى الموعظـة و«بعيـد الـشر» حصانتنـا وملاكنـا الحـارس؟

«بعيد الشر»..

وكم من مرّة كان الشر فيها محدقا، وقريبا جدّا..

لا أحـد يعلـم.. لا أحـد يسـتطيع أن يتكهّـن بـأيّ يـد قـد يلطـم المسـتقبل.

اندفعـت مـن السريـر كمريـض أعصـاب فاتتـه جرعـة المهـدّئ،

هرعـت إلى زرّ النـور، مـا كلّ هـذا الظـلام الـذي انقلـب كاتما على أنفاسـها؟ أنـارت الغرفـة فأدركـت أنّ الخطـب أصـاب الشـعلة لا اعـترى التيـار، راحـت تـردّد جهـرا في تـسرّع وهيـاج: «سـانت فيليـب، سـانت فيليـب، سـانت فيليـب، سـانت فيليب..» خشـية أن يطـير الهـول بالكلمـة الـتي مرادفهـا.. أُحُـد، وهـي تحـاول الاتّصـال بنيـل.

ردّت زوجته بعد المحاولة الرابعة..

- أنا جـوري مـن فضلـك أيقظـي نيـل أخبريـه أنّ أُحُـدا في المستشـفى، أسرعـي أرجـوك!

فمـا كانـت إلاّ ثـوان وانبعـث مـن الطـرف الآخـر للخـطّ صـوت نيـل مذهـولا:

- جوري ماذا جرى؟!

انفجرت باكية:

- نيـل أرجـوك أنـا لا أعـرف أيـن يقـع مستشـفى سـانت فيليـب هـذا!

- اهـدئي جـوري أرجـوك، اهـدئي وقـولي لي مـاذا حصـل بالضبـط؟

- لقـد اتّصلـوا بي منـذ قليـل وأخـبروني بـأنّ أُحُـدا تعـرّض لحـادث سـير وأنّـه الآن في مستشـفى سـانت فيليـب.. يجـب أن أذهـب إلى هنـاك حـالا!

- جـوري اسـمعيني، اسـمعيني أرجـوك، اهـدئي ولا تتحـرّكي مـن مكانـك، مسـافة الطريـق وأكـون عنـدك، إيّـاك أن تتحـرّكي! قـد تتوهـين لا سـمح الله أو تتعرّضـين لمـا لـه أن يربـو بالمشـكلة إلى مشـكلتين، هـل تفهمـين مـا أقـول؟

- نعم.. لا تتأخّر نيل أرجوك!

قالت وهي تبتلع نوبة دموع قويّة كنوبة سعال جافّ.

قفـزت تبـدّل ملابسـها وقـد تبدّلـت عيناهـا إلى عيـون الثـيران وتبـدّل نـور الغرفـة إلى الإحمـرار، لا تـدري مـاذا لبسـت، اسـترت بـأوّل مـا وجـدت، ألقـت بوشـاح والدتهـا عـلى رأسـها وضربـت بطـرف اليمـين ذات الشـمال وبطـرف الشـمال ذات اليمـين، تدخّلـت في معطفهـا وجلسـت في الـرواق عـلى الأرض غـير مباليـة بـبرد الأرضيّـة، لـم تعـد تشـعر بـشيء مـن الأشـياء الـتي يعيهـا العقـل في الظـروف العاديـة، ذاك أنّـه كان أعلـن حالـة الطـوارئ.

متقوقعـة عـلى نفسـها متّكئـة بجبينهـا عـلى ركبتيهـا وهـي تحضـن سـاقيها وتقضـم شـفتيها، هكـذا كانـت جالسـة تنتظـر، تهـتزّ كجالسـة عـلى الجمـر وهـي جالسـة عـلى القـرّ، ولا تسـتوعب مـا كان يحـدث.. لا يمكـن أن يحـدث مثـل هـذا، إنّـه أفظـع مـن أن يحـدث! هـل يعقـل أن يقـع لـه مكـروه وهمـا لا يـزالان عريسـان جديـدان؟

مزّقـت للهواجـس شـفتها عندمـا رنّ جـرس البـاب بإلحـاح، فانتفضـت عـن جلوسـها ولاختـلال يدهـا تأخّـرت في الفتـح.

- إلهي جوري فمك! خذي خذي..

ناولها نيل ما بقي له من مناديل ورقيّة داخل كيسها الذي كان داخل جيبه.

جعلت واحدة على شفتها وهي تغلق الباب على المأوى الصغير شغرًا، وتتوسّل إليه أنّ عليهما الإسراع لأنّهما تأخّرا على أُحُد وحده في المستشفى.

نزلا أدراج العمارة مهرولين بسرعة من هابط في مزلقة، ذكّرها بحزام الأمان أن تشدّه عليها وسألها وقد انطلق بالسيارة:

- كيف حصل هذا؟ المفروض أنّنا افترقنا إلى بيتينا.. لم يعد أبدا؟ أم عاد وتشاجرتما؟ أم.. ماذا حصل؟

«تشاجرتما»..

كأنّه أنساها عاصفة الخبر ذاك التفصيل الذي ليس أقلّ من سبب مباشر في وقوع تلك النّازلة، نعم تشاجرا.. لا هي شاجرته!

- أنا السبب.. أنا السبب!

قالت تذرف وعادت إلى شفتها.. تنهشها نهشا.

***

انطلقـت تجـري في رواق طويـل، ذي أضـواء كثـيرة كثيفـة.. مخيفـة.

عجيب أمرها في تلك الليلة!

خافـت مـن الظـلام وهـا هـي ذي خائفـة مـن النـور.. إلى أيـن المفـرّ؟

تجـري ونيـل خلفهـا يجـري وينـادي، تجـري ولا تـدري أصائبـة خطواتهـا الهائلـة الهائجـة في مسـلكها الـذي تسـلك؟ أم تراهـا تائهـة واهمـة، تجـري هربـا مـن نفـس الـذي تجـري إليـه؟

تجري.. إلى قسم «العناية المشدّدة».

مـا هـذه الليلـة الليـلاء المحرقـة الـتي مـا بقـي مـن سـوادها إلاّ بعـض الرمـاد في السـماء يعكّـر مـزاج اسـتيقاظها ويحـول دون ابتسـام شمسـها؟

مـاذا يحمـل لهـا هـذا النهـار القـادم مسرعـا في إثـر تلـك امرأتـه الحبـلى بصاعقـة وتوشـك أن تلـد لهـا لا لـه؟

كانـت رشـيدة خطواتهـا، كأنّـه قلبهـا المُوَلّـه وللقلـب المولـع بصـيرة.. سـائقها ودليلهـا.

كادت ترتطـم برجـل في زيّ ممـرّض يغـادر المصعـد لمّـا اسـتدركها نيـل لاهثـا، سـألاه في كلمـات متقاطعـة متقطّعـة عـن القسـم فأشـار عليهمـا بالمصعـد الـذي كان فيـه أن يأخـذاه ليأخذهمـا إلى الطابـق الثالـث.

لـم تطـق أكـثر مـن عشريـن ثانيـة مـن الانتظـار، هـي الـتي عاقـرت الصّـبر سـنوات!

وانطلقـت مـن جديـد تجـري صـوب الأدراج، تجـري عليهـا.. لـم تعـد تشـعر بحـدود تحـدّ قدرتهـا العضليّـة ولا بعضلـة قلبهـا تتحـوّل إلى «هولـك العجيـب»، لـم تعـد تشـعر بـشيء يشـبه التعـب مـن شـأنه أن يعيـق جريهـا..

لاحـت لهـا لافتـة القسـم، بعيـدة قريبـة في آن، لا تريـد أن تبلغهـا ولا تريـد إلاّ أن تبلغـه، تشـوّش مقيـاس إدراكهـا، وقفـت مشـلولة.. تتجاذبانهـا، رغبتان، متسـاويتان في الشـدّة متعاكسـتان في الاتجّـاه وهاتـان محصّلتهمـا فيزيائيـا هـي الصفـر.. اللاحـراك.

التحـق نيـل، توقّـف لوقوفهـا.. بقيـا كذلـك كأنّهمـا جثّتـان محنّطتـان وسـط رواق آخـر، أكـثر طـولا أكـثر نـورا بـدا، ومـا عـاد للنـور معـنى إيجـابي، أنـوار المستشـفيات تعمـي، كلّهـا تذكّـر بأنـوار غـرف العمليّـات، تلـك الـتي تسـلّط لشـقّ الجسـد، عـلى قـدر مـا سـاطعة، عـلى قـدر مـا مرعبـة.

مـرّ زمـن.. لعلّـه قصـير، لعلّـه أطـول مـن الـرواق، وانبعـث مـن نفـس البـاب الـذي اقتلـع الـروح وذهـب بحيـاة نظرتيهمـا رجـل.. كأنّـه طبيـب.

اختلـج نيـل مـن مكانـه عـن جمـوده قـرب جمودهـا وأغـار عليـه، فانتبهـت وتحرّكـت وأغـارت عليـه، يشـحذان أخبـار أُحُـد..

طأطـأ الرجـل رأسـه، ثـم رفعـه إلى نيـل وراح يتكلّـم معـه

بفرنسية لا تسعفها عربية، ونيل يواجهه كأنّه ابتلع لسانه، كأنّه لا يفهم أكثر منها تلك الذاهلة بجانبه التي لم تفهم شيئا أو فهمت شيئا، لكأنّ الرجل يحدّث عن شيء، لكأنّه.. وهب الأعضاء؟

لا..لا! هي لم تفهم جيّدا، فهي لا تفهم شيئا ولا تعقل شيئا من كلّ هذه الحياة! إنّها تهذي، إنّه كابوس، مجرّد كابوس.. وإلاّ فماذا تفعل هي هنا في هذا المستشفى المشؤوم على مقربة من قسم فيه منحوس تسمع من رجل مفزع عن منح الأعضاء المروّع؟

ستستيقظ.. الآن فورا لا بدّ أن تستيقظ، هناك من الكوابيس ما يتسبّب بسكتة قلبية، لابدّ أن تقوم وتنقضّ على زوجها وحبيبها تضمّه ضمّة لن يقدر شيء على انتزاعه منها بعدها، ولا حتّى الموت!

التفت نيل إليها شاحبا كأنّه الموت لطّخت سيرته وجهه، وتمتم..

لكنّها لم تفهم، حتّى والكلمات عربية لا تشوبها فرنسية، لم تفهم شيئا.. فحرّكت رأسها كما لو أنّه ما عاد رأسها ولا هي من حرّكته، وابتعدت.. راحت تبتعد بيديها على أذنيها ورأسها يتحرّك لا يزال كأنّه خرج عن طوعها.. لم تفهم وليست ترى جيّدا فوق ذلك.. من هذا؟ نيل؟ ما بال رأسه استحال رأس بوم؟ وذاك المطرق الحزين بجانبه، أطبيب أم غراب؟

خطـا نيـل إلى الأمـام نحوهـا مـا خطتـه إلى الخلـف وقـد احتشـدت كل سـوائل جسـده في عينيـه:

- جـوري.. يقولـون توقّـف دماغـه.. ويريـدون أن يعلمـوا مـا إذا كنـت ترغبـين في منـح أعضائـه.

ثـمّ وقـع عـلى ركبتيـه مهـزوم حشـده صارخـا، وقـد انفجـرت الميـاه مـن أغلـب حـواس وجهـه، وجـوري تنظـر إليـه ثـمّ إلى الطبيـب، ثـمّ تعـود إليـه قبـل أن تعـود إلى الطبيـب، وتعـود إليـه وتعـود إلى الطبيـب حـتى شـعرت بالـدوار، إنّهـا لا تفهـم، لا تفهـم!

اقترب الطبيب منها وسألها:

- سيّدتي أعلم أنّ هذا صعب لكن.. هل توقّعين الأوراق؟

فهمـت السـؤال هـذه المـرّة.. لكـن لـم تفهـم عـن أيّ أوراق يتحـدّث؟

نزلـت بركبتيهـا إلى الأرض، أبعـدت يـديْ نيـل عـن وجهـه وقالـت في بـراءة طفوليّـة:

- نيل.. عن أيّ أوراق يتحدّث؟

وسـط كلّ تلـك الميـاه، كان نيـل غارقـا، تخبّـط صوتـه قبـل أن يشـقّ لـه طريقـا نحوهـا:

- يريدون أعضاءه جوري، لقد مات.. مات أُحُد!

***

مات؟ مات.. ما معنى مات؟

هـل يريـد ذاك الـذي يصيـب النـاس الآخريـن، فتتصلّـب لـه أجسـادهم وتكـفّ عـن كلّ حركـة؟ عـن الإتيـان بأيّـة حركـة صغـيرة مـن شـأنها أن تفرّقهـا عـن الجمـاد؟ ثـمّ يُحمـل الجمـاد بعـد ذلـك ويُقـضى بـه إلى.. المقـبرة؟ ثـمّ تُحفـر لـه حفـرة عميقة يُـدسّ فيهـا؟ ثـمّ يُهـال عليـه الـتراب؟ الكثـير مـن الـتراب حـتى لا يبقـى منـه إلاّ ذكـراه وتلـك التلّـة الترابيـة الصغـيرة؟ كأنّـه مـا كان؟ ولا أحـبّ ولا حبيـب؟ ولا تـرك زوجـة لـو تركهـا تلفـت وليتهـا انعدمـت؟

لا! أُحُـد لا يعنيـه هـذا المـوت! كيـف يمـوت الآن؟ لا يمكـن أن يمـوت الآن! لا يمكـن ذلـك أبـدا أبـدا!

لا يمكـن ولا يُعقـل! لا يُعقـل أن يمـوت شـابّ سـليم معـافى لا يشـكو خطبـا ولا علّـة، قـويّ قـوّة دحـرج بهـا خزانـة غرفـة المعيشـة وحـده، وعريـس جديـد.. بالـكاد، بالـكاد تـذوّق الهنـاءة مـع عروسـه.. كيـف يُختطـف صحنهـا مـن بـين يديهمـا؟ كيـف يمـوت هـذا؟ كيـف؟! كـم عـاش هـذا حـتّى يمـوت؟ أيـن هـو مـن المـوت هـذا حـتى يمـوت؟ كيـف يمـوت ويـترك أشـغاله ومشـاريعه معلّقـة؟ مـن لهـا هـذه بعـده ينجزهـا؟ وزوجتـه حبيبتـه.. كيـف يمـوت ويتركهـا فرِقـة؟ وفي أمـره وأمرهـا مفرّقـة؟ كيـف يمـوت؟ وهـل عـاد كي يمـوت؟ كيـف يمـوت وقـد خـرج يتفسّـح قليـلا ثـمّ يعـود؟

لا! وألـف ألـف لا! هـذا هـراء! مـا هـذا الهـراء؟ وبمـاذا يهـذي

هـذان الرجـلان؟ إنّهمـا يكفـران! يجهـران كفـرا ولا يسـتحييان! فتبّـا لهمـا ولمـا يهمهمـان!

- أريد أن أرى زوجي..

قالـت جـوري هادئـة هـدوءا أشـفق منـه وعليـه الطبيـب، ووجـم لـه إعـوال نيـل.

اغتنم الطبيب ردّة فعلها الغريبة وكرّر عليها السؤال:

- إذن تمنحين أعضاءه سيّدتي؟

«تمنحين أعضاءه؟»..

وهل هي كانت لها حتى تمنحها لهم؟

في الحيـاة، هنـاك حـوادث المـرور، وهنـاك حـوادث أخـرى، اصطدامـات عنيفـة بـين مـا يجـوز.. ومـا لا نحـبّ.

رجل له أخ له عائلة، زوجة وأبناء.

يقـضي الله سـبحانه بـأن يمـوت الأخ الـذي زوج وأب، قـدّر الله ومـا شـاء فعـل..

يتقـدّم الأخ الحـيّ لأرملـة أخيـه يخطبهـا، يعـرض بذلـك عليهـا ألاّ يتشـتّت أمرهـا وأمـر أولادهـا وألاّ تحتـار في الأمريـن بعـد الفقيـد.

علميّا، عرضه سخيّ.

لكن أدبيّا.. هناك خلل ما.

إنسان تزوّج، رجلا كان أو امرأة.

بعـد قليـل أو كثـير يكتشـف أنّ شريكـه لا يمكنـه أن يعطيـه نسـلا..

ينفصـل عنـه، ويذهـب للبحـث عـن غـيره.. مـا دام العطـب ليـس عطبـه.

علميّا، هذا حقّه.

أدبيّا.. هناك خلل ما.

رجـل مـتزوج منـذ عقديـن أو ثلاثـة.. زوجتـه لـم تعـد كمـا في أوّل عهدهـا طبعـا.

يقـرّر أنّـه يريـد زوجـة ثانيـة يجـدّد معهـا شـبابه ويدحـر بهـا ضجـره ويلـوّن بهـا مـن جديـد حياتـه..

شرعا.. هذا حقّه.

علميّـا.. قـد يحقّـق حلـم امـرأة أخـرى طالـت أيمتهـا في بيـت والدهـا ولا تنتظـر إلاّ الـزواج.

أدبيّا.. هناك خلل ما.

إنسـان مـات.. مـا عـاد شـيئا، ولا جسـده بـات شـيئا يسـتحقّ شـيئا، مـا دام مآلـه وجبـة للديـدان.

إنسـان حـيّ مريـض، «قـد» تشـفيه بعـض أعضـاء ذاك الميـت «لـو» مـا رفضهـا جسـده عـلى أنّهـا دخيلـة وانقـضّ عليهـا يفتّتهـا

فعجّلت بلحاقه ذاك الأوّل..

علميّا، لمَ لا إذن هتك الأوّل وإفراغه في الثاني؟

أدبيّا.. هناك خلل ما.

والحياة اختيارات والإنسان قرارات، والعلم والأدب في نزاع لا يخبو، من منهما يظفر بتاج الصّواب..

كيف ترضى أن يمزّقوا حبيبها بإذن منها؟ كيف؟!

كيف ترضى أن يأخذوا منهما قلبه، هذا الذي أحبّت وأحبّها؟

هذا ملك لهما، ولن يسير إلى غيرهما!

وكأنّها فهمت قليلا، هبّت كريح صرصر بسبابة الوعيد كادت تقحمها في عين الطبيب:

-والله لو أنّك تعيد على مسامعي نعيقك هذا، لأشقّنّ صدرك بأظافري، ولأنتشلنّ أعضاءك منك حيّا بيديّ، ثمّ لأجعلنّها طعاما للكلاب الشريدة أو لألوكنّها بنفس أسناني!

حان دور الطبيب ألّا يفهم، غير أنّ كلّ ذاك الاحتدام والشرر المتطاير من العينين كفاه غرابة اللهجة، فهم أنه لا مجال لمناقشتها فاعتذر، أخبرها برقم غرفة أُحُد، وانصرف.

***

وانطلقت تجري مرّة أخرى.. لا مفرّ، المكتوب على الجبين لا مفرّ تراه العين، وكُتب على جبينها أنّها سترهق جريا في تلك ليلة الشر.

اندفعت من الباب وكادت تقع، لكنّها ما وقعت فتابعت جريها، ربما ارتطمت ببعض الناس، لا تدري.. لن تذكر إلاّ أرقاما تتتالى قبل الغرفة «٧».

توقّفت عن الجري..

كان ذلك الزجاج يفصل بينها وبين قلبها الذي شعرت به هذه المرّة سيحطّم قفصها الصّدري بركلاته، أو لو نجت فبندبة يتركها في صدرها، مساوئها وأضرارها على صحتها مساوئ وأضرار ثقب الأوزون في غلاف الجوّ على صحّة الأرض، ولا تجزم.. أهو الجريُ خَطْبُهْ؟ أم هي صورة هذا الممدّد خلف الزجاج مسّت عقله بخبل؟

اقتربت من الزجاج وكلّها مقشعرّ يرتعد، استندته بيديها ثمّ هبطت بجبينها عليه، سينكسر الزجاج لضغط يديها وجبينها وأنفها كما سينكسر صدرها لضغط قلبها كما قد تكسر معارضة الزجاج أنفها..

إنّه هو.. أو كأنّه هو.. أُحُد.. حبيبها الأبدي.

عاري الصدر، ممدّد في هدوء غريب عن ديناميكيّته مخيف، موصول كأنّه مربوط بجمّ أجهزة ومعدّات لا تبعث أحجامها ولا أشكالها ولا ألوانها ولا شيء فيها على الاطمئنان..

لعلّها هي التي تقيّده وتحبسه؟

لا يبدو ذلك.. عيناه مغمضتان كما لو كان يفترش قاع بئر سحيقة من النوم، وهذا الشحوب الباهت الذي يفترش وجهه المجروح؟

شعرت برغبة أو هي حاجة إلى أن تطلق صرخة، لكن مما لا ريب فيه أنّ صرختها ستجمهر الناس حولها، وتجتذب الممرّضين والأطبّاء مثلما تفعل برادة الحديد بقطع المغناطيس، كي يقيّدوها فوق أنّ حبيبها مقيّد، ويجرّوها بعيدا عنه إلى قسم آخر، لا ريب سيكون قسم الأمراض العقليّة، فغصّت بريقها وقبرت صرختها.

التحق نيل، تكلّم قليلا في صوت قليل، أخبرها أنّه أكّد موقفها وأخبرهم بأنّهما سينتظران، فالأعمار بيد الله لا بأيديهم، لعلّ قلبه يوقظ عقله.

فُتحت حتى الأقصى حنفيّتان في وجهها، فهمت عيناها ما لم تفهمه هي، توسّلت إلى خيال نيل من وراء ذلك الشلّال أن يتدبّر لها أمر الزجاج الفاصل أو تكسره، تريد أن تدخل، تحتاج أن تدخل، لا بدّ أن تدخل.. وما هو إلّا وقت قصير ذاك الذي مكثته خلف الشلّال، حتّى عاد نيل بمن يعفيها والمستشفى كسر الزجاج.

***

وضعت يديها على وجهه، راحت تتلمّسه كمن لا يرى ويبحث عن هويّة صاحب الملامح، دغدغت جفنيه المسبلين بأناملها بنفس الرفق الذي يُقترب به من حديثي الولادة، على أمل أن يفتحهما لشعور بها، مشّطت لحيته براحتي كفّيها فتوقّف لذلك انهمار دموعها وجفّت له شفتاها، ما عاد هناك من فرق لون بين وجهيهما المتقابلين.. على عكس دموعها، لم تتوقّف يداها، مضتا تتقدّمان كمتعطّشتين لنزهة على بطحاء جسده، متشوّقتان، مشتاقتان لكلّ الأركان والمكان، إنّها تتبرّك به لمصابها، بنحره وصدره وذراعيه.. ويديه:

- يداكَ باردتان حبيبي..

راعى نيل ما قدّره حاجتها إلى الانفراد بلحظات قد تكون الأخيرة مع زوجها، فانسحب مكرها لأنّه أحبّ أن يبقى إلى جانب ابن عمّه، لكنّه سبّق جوري على نفسه، وغادر نحو التكفّل بما يجب تسويته من إجراءات بما في ذلك إجراء اتصالات، عليه أن يُعلم عائلتهم في الوطن أنّ أُحُدا أمسى في كرب فبأمسّ الحاجة إلى دعائهم، كما جميعهم بحاجة إلى أن يثبتوا ويتآزروا في مواجهة هذه الصاعقة الواقعة على رؤوسهم بغتة وهم نائمون ومن حيث لا يدرون، في انتظار أن يلطف الله بهم فيما جرت به مقاديره.

توارى نيل، فهوت بشفتيها على خدّه، وهوت لميلتها صهاريج من عينيها مغمضتين على عينيه مغمضتين، خرج سيلان دموعها عن الصمت، صار له صوت، إلّا أنّه صوت لا يبلغها فتعقله إلّا أذن واعية، أذن حيّة.. صارت كل دمعة

تسـقط تمـزّق في داخلهـا شـيئا قبـل أن تسـقط، وهـا هـنّ تعاضـدن كلّهـن عـلى فتحـة العـين، يُخـشى عـلى ذلـك القالـب الغـزالي مـن أعدادهـنّ المتلاحمـة المتدافعـة أن يبطشـن بـه ويمزّقنـه، خبّـأت وجههـا في رأس الزاويـة، بـين عنقـه وعاتقـه، لشـعور بالذعـر مـا كانـت لتجـد أمانـا منـه إلّا في حضنـه، كانـت لتشـتريها بحياتهـا، ضمّتـه. أمـلى عليهـا اليـأس وقـد بـدأ يطغـى حلمـا أنّ القـدر رحـم حبّهـا الـذي أضعفهـا وضعفهـا، فعكـس الأدوار بهـا مكانـه وبـه مكانهـا وسـتموت في حضنـه، ويـا لهـا مـن ميتـة!

لكنّـه مكانـه لا يتحـرّك، لكنّهـا مكانهـا، ولـن يأخـذ أحدهما مكان الآخـر.. قامـت عنـه مفجوعـة، إنّـه في حالـة ضعـف شـديدة شـدّة لا أشـدّ منهـا، ألا تكفيـه أثقـال الغيبوبـة حـتى يزيدهـا عليهـا رأسـها الثقيـل عنـادًا؟ لـم تبتعـد.. دنـت مـن وجهـه تنظـر إليـه وتمسـح عـلى رأسـه، تحـدّق فيـه.. أخـيرا رأتـه.. كأنّهـا مـا رأتـه مـذ ذاك اليـوم الأسـود الـذي اعتـذر فيـه منهـا وسـافر عنهـا إلى امرأة أخـرى، كأنّـه مـا فارقهـا إلى امـرأة أخـرى، بـل كأنّـه فارقهـا رغمـا عنـه، رغمـا عنهـا، ولبـث مـا لبـث، ولبثـت مـا لبثـت، يحبّـان بعضهمـا ومخلصـين لبعضهمـا وينتظـران أن يجتمعـا، وهـا قـد اجتمعـا في هـذه اللحظـة السـوداء لبيـاض حبّهمـا، أليـس كلّ مـا هـو أبيـض مآلـه إلى أسـود في هـذا العالـم الأسـود؟

مـات الغضـب وانطفـأت نـيران العتـاب، وأكـصَّ شـيطان الانتقـام وانكـسرت شـوكة الـوردة..

قـم حبيـبي، قـم.. كفـاك نومـا عـلى هـذا الفـراش الكريـه، قـم

نَعُـد إلى بيتنـا الحبيـب، قـم ضمّـني وابسـم وقـل إنّـه كابـوس..

أمـا كنـت تركتـني؟ ألا يكفـي كلّ ذاك الـذي تركتـني؟ أمـا تبـت أنّـك تركتـني؟ أم أنّـك عـدت كي تعـود إلى غلطـك وتتركـني؟ فثـق يـا حبيـبي لـو تلـك تركـة نكـراء، فأعـوذ بحنـان الله مـن تركة بـتراء.

اسـمع مـنّي ودعـك مـن الانتقـام ولا تؤاخـذني، أمـا سـمعت عن اللوحـة تؤاخـذ المسـمار تقـول يفلِقهـا؟ وللرثـاء رأس المسـمار مـن رأس، إذ للهـرس.

آه يـا غـالي.. هـل أخبرتـك عـن تتيّمـي وتعشّـقي وتعلّقـي وتولّهـي؟

إنّي وا أسـفي عـلى نفـسي، أسررت أكـثر ممّـا جهـرت، وأخفيـت أكـثر ممّـا أبديـت، وتكلّفـت أكـثر ممّـا ارتخيـت، وحرمـت نفـسي لـو تـدري أكـثر ممّـا حرمتـك، وجافيـت قلـبي لـو تعلـم أكـثر ممّـا جافيتـك، وإنّي شـقيت، شـقيت! أكـثر ممّـا أشـقيتك، وكان حـزني أعظـم ممّـا أحزنتـك، ومـا كنـت أردّ أبـوابي في وجهـك لأنّي كنـت أوصدهـا في وجـه هنـاءتي وسروري. آسـفة عـلى مـا كان مـنّي، وأكـثر أسـفي أنـا عـلى مـا كان منـك.. لقـد أحببنـا بعضنـا وآذينـا بعضنـا، ولعلّنـا آذينـا بعضنـا أكـثر ممّـا أحببنـا بعضنـا، وهـذا خُلـق الحـبّ الحقيقـي يـا حبيـبي.

أنـت كنـت غائبـا، أمّـا أنـا فشـهدت عـذاب جـوري في ذلـك اليـوم الأسـود الـذي فتـح البـاب لأيّـام سـوداء لا أحصيهـا ولا ذكراهـا أبغيهـا، في ذلـك اليـوم الـذي قـرّرتَ أنّـك تسـتطيع بعـدا عـنّي وتطيـق بـدلا مـنّي، في ذلـك اليـوم شـهدت عذابهـا وأنـت

لـم تشـهده، ولسـت أدري أيـن اختفـت بعـده.. هـل ماتـت ودفنوهـا؟ أم ماتـت وأحرقوهـا ونـثروا رمادهـا مـن فـوق قمّـة جبـل عـال، فطـارت الريـاح بـكل نقطـة إلى غـير حـال؟ أم تُراهـا عاشـت ونفوهـا إلى قطعـة مـن الأرض لا تـكاد تكـون مـن الأرض؟ أو لعلّهـا نجـت بمـا ودّت لـو أنّهـا بـه قضـت..

أنـت يـا قلـبي ذهبـت إلى امـرأة أخـرى، وآخٍ لقلـب العاشـقة مـن امـرأة أخـرى! وامـرأة أخـرى امـرأة، والمـرأة لهـا من السـلطان عـلى الرجـل، فـلا أشـكّ في أنّهـا مـا قـصّرت : ومحـت طيفـي كلمـا هـمّ بـك في خيالـك بشـذاها وبسـمتها ودفء حضورهـا، حـتى لعلّـك أحببتهـا حينـا مـا كنـت أحببـت فيـه أحـدا سـواك، ولـو أنّي للأمانـة هممـت أن أبدّلـك، لا لقلـبي بـل لجـرح قلـبي هممـت أن أبدّلـك، وكـم هممـت ونويـت.. لكنّـك أفسـدت قلـبي ومـرّدت الرضـا، لقـد نظـرت في الرجـال ونظـرت، واسـتملحت فيهـم واسـتقبحت، فأعـوزني إلّا مـن اسـتقبحت، ولا عـنّي أغـنى مـن اسـتملحت، مـا بـال صورتـك مـا كانـت تفارقـني؟ ومـا بـال شـبحك اقـترن بظـلّي إذا أشمسـت وبروحـي إذا أظلمـت؟ والحـقّ الحـقّ، لـو أنّي أحببتـك فمـا أحببـت شـبحك، وحاولـت أن أصرفـه عـنّي وأطـرده بعيـدا إلى حيـث كنـتَ بعيـدا، لكنّـه تعلّـق بأسـتار قلـبي واسـتجار بـه مـنّي، وذكـرت لقلـبي فعلتـك الـتي فعلـت، وذكـرت وذكّـرت، قصصتهـا عليـه مـرارا وتكـرارا عسـاه إلى رشـده يعـود ويُحكّـم العقـل والأنفـة، فمـا وجدتـه إلّا يفهـم قليـلا ثـمّ يسـهى طويـلا وينـسى كثـيرا، فزجرتـه لمّـا لـم ينفـع لـين المواعـظ ولا اسـتقام حالـه، فحملـت السـوط، وجلدتـه وجلدتـه وجلدتـه! ولـم تأخـذني بـه رأفـة، حـتى أفقدتـه ظهـره ووعيـه.

وعـاد وعيـه، وأنـا جاثمـة أترقّـب وأتوقّـع توبتـه، فتـدري؟ كنـتَ أوّل لفظـة عـاد بهـا إلى وعيـه.

فهمـت بعـد ذلـك أنّـك سـحرته، ووحـده الله يعلـم أيـن دفنـت سـحره.. فهمـت أن عـليّ المـضيّ دونـه، فمضيـت دونـه، وأنـا ماضيـة التقيتـك ثانيـة واتّصلـت أخبـاري بأخبـارك، وأنـا.. لا قلـب لي.

فلا تلمني حبيبي، ولُم وُدّا.. فاق الحدّ.

لقـد قـال نيـل أمـرا قالـه لـه ذاك، لكـن اطمـئن يـا قلـبي، فأنـا لا أصـدّق لا ذاك ولا نيـل، فـذاك ذاك، ونيـل ذاك صدّقتـه آسـتر فحسـبنا مـا جنـت مـن تصديقهـا، صدّقـني إنّهمـا كاذبـان، أنـت نائـم لأنّـني البومـة الـتي أفسـدت عليـك نومتـك البارحـة بنعيقهـا، فلتنـم ولتنعـم حبيـبي، أنـا هنـا.. والانتظـار صنعـتي وصنيعـي.

***

الأيّام السوداء.. إنها جزء من الحياة، لا مفرّ.

كان يـوم نحـس مسـتمرّ، يـوم كـرب وبـلاء متواصلـين، لـم تبتعـد جـوري طوالـه عـن أُحُـد إلّا للصلـوات، وظـلّ لسـانها خلالـه لهجـا بالدعـوات، حالهـا حـال الحاجّـة أمّ أوراس، مـا قامـت عـن سـجّادتها ولا فارقـت محرابهـا وملائكـة النهـار وملائكـة الّليـل شـهود عـلى اعتكافتهـا الضارعـة الشـاهقة بمـا

يشـقّ القلـب ويذيـب الـروح.. إلى مـن يلجـأ الإنسـان في مثـل ذلـك الموقـف مـن دون الله، وعـلى مـن ينـادي؟

وكان الـشروق وكان الغـروب ومـرّ الغـروب وحـلّ الظـلام، ولا اكتفـى أُحُـد نومـا.

قـدم الطبيـب وجـوري متمسّـكة لا تـزال بحبـل حيـاة زوجهـا، حبـل بسـماكة خيـط العنكبـوت..

- سـيّدتي.. أفهـم شـعورك جيّـدا، لكـنّ شـعورك لـن يغـيّر الحقيقـة والحاصـل، إنّ زوجـك مـضى ومـا هـذا الـذي تعلّقـين عليـه آمـالا إلّا عمـل آلات وتيـار كهربـائي لـو فُصـل عنـه انفصـل عنّـا، أنـا أحـترم قـرارك وخيـارك بالإبقـاء عليـه متّصـلا إلى آخـر لحظـة، لكـن اسـتعدّي.. لا أظنّهـا سـاعات تلـك الـتي ستسـجّل لقلبـه دقّـات.

وغـادر مسرعـا، عـلى الرغـم مـن أنّ مثـل حالـة أُحُـد والصراحـة الـتي تطلّبتهـا لـم تكـن غريبـة عليـه فهـو شـهد مثلهـا مـرّات ومـرّات، لكـنّ وجـه جـوري وملامـح الطفلـة المذعـورة الـتي أناخـت عليـه منـذ الصبـاح، كان لهمـا وقـع عـلى نفسـيّته خـاصّ.

بـدأت تصـدّق قليـلا أنّ الطبيـب ربّمـا لـم يكـذب كثـيرا، فبـدأ الرعـب ينسـلّ إلى قلبهـا حـتى تسـاقطت مـن عـلى الكـرسي بجانب أُحُـد عـلى الأرض.

رفعـت يديهـا وتعلّقـت بالـذي والاهـا مـن فراشـه وقـد اتّكأت بجبينهـا عـلى نفـس الـذي والاهـا مـن السريـر، وانفجـرت لسـيل

اليـأس بلـغ الـزبى منتحبـة، صرخت:«يـا ربّ!»، ثـمّ والنشـيج يلحّـن الأسى:

- يـا ربّي أتوسّـل إليـك بقوّتـك وضعفـي، بقدرتـك وعجـزي، بغنـاك وفاقـتي، سـبحانك أنـت الغـنيّ عـنّي وعـن عبـدك هـذا، وأنـا أفقـر مـا أكـون إليـك وأحـوج مـا أكـون إلى عبـدك هـذا، بهـذا.. أتوسّـل إليـك ألا تأخـذه مـنّي عـلى هـذا النحـو غاضبـا مـنّي، يـا ربّي لـو كلّ النـاس يجهلـون فتعلـم مـا هـذا الرجـل لي، فالرحمـة الرحمـة خلّـه لي ولا تؤدّبـني بـه، إنّ مثـل هـذا عـذاب كعـذاب النـار لا يمـوت فيهـا الهـاوي فيهـا ولا يحـيى..

- جوري..

خطفـت رأسـها عـن كتـف الفـراش ورفعتـه صـوب الـذي خالتـه مصـدره، فـرأت يـده كأنّهـا تحرّكـت، ولذلـك الصـوت ولتلـك الصـورة طـارت إليـه، وتفرقعـت ألعـاب ناريّـة في عينيهـا لرؤيـة عينيـه غـير مغمضتـين، انقضّـت عليـه تلثـم ممّـا تجـد منـه عـلى قـدر لوعتهـا المتراكمـة حـتّى أدركـت شـعفته وهـي تهمـس في مـا أقـرب إلى الجنـون منـه إلى العقـل: آسـفة.. آسـفة..

اقتربـت مـن وجهـه ووجههـا يسـيل لفيضـان ألـمّ بـه، ويدهـا تضـمّ يـده والأخـرى عـلى خـدّه، ونظراتهـا تخـترق المـاء تخـترق نظراتـه الواهنـة.

- يا قلب جوري، أأمرني يا غالي..

قالت دموعها.

- لا يهمّني متى وأين سأموت.. ما دمتِ كنتِ لي.

انطلق صفير حادّ في الغرفة أفزع رأسها عن حافّة الفراش، جسدها عن الأرض، وإذا بنيل يصيح من خلفها بالممرّضة فصاحت به:

- لقد استفاق وكلّمني! هل سمعته؟ هل سمعت ما قال لي؟

جاء الطبيب سرعا فاهتجمته جوري صاخبة:

- لقد استفاق وعاد انتكس! استفاق! لماذا عاد انتكس؟

أطفأ الطبيب الجهاز:

- ساعة الوفاة: «العاشرة والنصف»..

التفتت جوري إلى نيل بنظرة مصدومة صدمة ذهبت بقدرة جهازها العصبي على تحليل الرسائل البصريّة والسمعيّة واستيعاب مضامينها، لكأنّها حالة عسر هضم دماغي:

- نيل.. صدّقني لقد استفاق وحدّثني.. صدّقني..

طأطأ نيل رأسه والدموع تشقّ طريقين طويلين، قال متفاديا نظرتها إذ كانت تلفح، تثير في القلب حرقة أو حريقا، شعورا حرّيفا.. مماثلا لذاك الذي كانت أثارته «وفاة أُحُد»:

- سيبقى حيّا في قلوبنا إلى الأبد.

انقطع لسانها عن الكلام، بصرها عن الطرف، جسدها

عـن الحـراك، انقطعـت عـن الحيـاة لبرهـة، ماتـت ثمّ اسـتفاقت:

- تبّـا لـك مـن كاذب يـا نيـل.. تبّـا لـك! ألا تسـتطيع أن تصـدق مـرّة واحـدة في حياتـك؟ مـرّة!

خُيّـل إليهـا أنّ الأنـوار طُمسـت في تلـك الغرفـة فاسـتحالت جحـرا مظلمـا، لـولا أولئـك المحدقـون بها، من اسـتحالوا أشـباحا باهتـة تبـثّ في الغرفـة أضواءهـا الخافتـة، وهـا هـو شـبح منهـا يقـترب مـن أُحُـد بغطـاء باهـت في يديـه، وهـا هـو.. يلقيـه عليـه.

«العـاشرة والنصـف واشـتقت إليـكِ»، «سـاعة الوفـاة: العـاشرة والنصـف»، «العـاشرة والنصـف واشـتقت إليـكِ»، «سـاعة الوفـاة: العـاشرة والنصـف»، «اشـتقت إليـكِ»، «سـاعة الوفـاة»، «العـاشرة والنصـف»، «العـاشرة والنصـف»، «العـاشرة والنصـف»... راح التوقيـت يـتردّد، يتكـرّر التلفـظ بـه في ذهنهـا كدقّـات عقـرب الثـواني في غرفـة خرسـاء جـنّ عليهـا اللّيـل، تـارة بصـوت الطبيـب وتـارة بصـوت.. أُحُـد.. مـا عـاد الأكسـجين غـازا يشـبع أنفاسـها، إنّهـا تختنـق، لـم تسـمع بعـد ذلـك مـن صـوت إلّا صـوت الممرّضـة فزِعـا: «لقـد أُغمـي عليهـا!»..

***

الأمـر بهـذه البسـاطة إذن.. بهـذه الجسـامة مـن البساطـة، بهـذه الفظاعـة مـن البسـاطة.

زقـاق صغـير ضيّـق، مثله موجـود في كلّ مـكان، في كلّ الشـوارع والحـارات مـن المـدن مـن البلاد.

والبـشر أطفـال صغـار، عـلى قـدر مـا كـبروا، عـلى قـدروا مـا عرفـوا وفهمـوا، لا يكـبرون أبـدا عـن طفولـة الغفلـة.. فتجدهـم يلعـبون ويركضـون في الشـوارع والحـارات، وبـين المـدن والبـلاد، لعلّهـم يركضـون خلـف بعضهـم أو لعلّهـم يركضـون خلـف أنفسـهم أو هـو شيء آخـر يركـض خلفهـم، حـتى في لحظة مـا، يعزلهـم عـن قطيـع الأحيـاء ويدفـع بهـم إلى واحـد مـن تلـك الأزقّـة، أزقّـة لا أحـد منهـا يرجـع، ولا أحـد منهـا يعـود.

زقـاق صغـير ضيّـق إذن.. هـو كلّ الفاصـل بـين الحيـاة والمـوت.

وعلاقـة الأحيـاء بالحيـاة علاقـة عشـقيّة خالصـة ومـن الطـراز الرفيـع، ذلـك العشـق النهـم الـذي يلتهـم محاسـن المعشـوق في أول جلسـة ولا يشـبع، فينتقـل إلى العيـوب، لا يـكاد يسـيغها في أوّل الأمـر، ثـمّ لا يلبـث تـروّض عفونتهـا سـفاهته، فيذعـن ويعلـن الـولاء لهـا، ويعيـش عـلى خبزهـا القـذر، ثـمّ تتطـوّر حالـة الاضطـراب ويلتـوي مسـلك العشـق ويلتـوي، حـتى تُرشـف العيـوب ويتلـذّذ العاشـق بعبورهـا إلى جوفـه كمـا استسـاغ ليـوم واحـد.. عبـور المحاسـن.

العشـق الحقيقـي لا يقتلـه شيء، مـرض عضـال مـتى حـلّ حـيَّ

عـلى التأقلـم وانتهـى، لا خيـار أحسـن. سرطـان عاطفـيّ لا يقـدر عليـه ولا حـتى عـلاج الخيانـة الكيمـاوي.

تقول الخيانة: «لقد تزوّج المعشوق!»

يردّ السرطان: «حمدا لله أنّ هناك شيئا يسمّى طلاق!»

تستفزّ الخيانة: «بل وأنجب المعشوق!»

لا يثور السرطان: «سأربّي أولاده!»

هكـذا حـبّ الأحيـاء للحيـاة، سرطـانيّ.. نعشـقها ونحـن نعلـم أنّهـا تزوّجـت المـوت وأنجبـا لـكلّ واحـد منّـا قـبرا يربّيـه، حـتى عندمـا يكـبر القـبر.. يلتهـم مربّيـه.

وساد الشتاء على الفصول، واللّيل على النهار..

وسادت الدموع على اللّغات والأنّات على الأصوات..

وساد الأسود.. على الألوان.

الإغمـاء حـلّ مؤقّـت، كالنعامـة تغـرس رأسـها، لـن تـرى شـيئا، لكنّهـا لاحقـا ستشـعر بـكلّ شيء..

والإغمـاء ليـس خيـارا، أجسـادنا مبرمجـة عـلى سـلوك النعامـة في مواجهـة الخطـوب، لحظـة انقطـاع مؤقّـت تصـون بهـا اسـتمراريّتها مـن الانقطـاع التـامّ، علمـا أنّ صـون الاسـتمراريّة ليـس خيـارا هـو الآخـر.

عجيـب أنّ الحيـاة لفظـة مؤنّثـة، كان المنطـق ليسـجّلها

عـلى أنّهـا ذكـر وهـي بـكلّ هـذه القسـوة، يبقـى أنّ في الأجـواء المشـحونة الـتي لا تهـدأ أبـدا مـا بينهـا وبينـه، بعـض المنطـق أخـيرا.

وقسـوتها تفـرض عليهـا ألا تتغـيّر لأجـل أحـد، كأن تلـين للـين جلـود البـشر مثـلا، بـل تـعمـد إلى جلـد الجلـود الّلينـة، فإمّـا أن تخشوشـن هـذه الأخـيرة.. أو تمـوت. والمـوت كمـا الإغمـاء والاسـتمراريّة ليـس خيـارا أكـثر إتاحـة منهمـا، وإلّا كانـت القاسـية شـهدت فـرار الجماهـير مـن تحـت سـوطها نحـوه، عـلى أنّـه مقارنـة بهـا تـرف ورفاهيّـة.

أليـس الشـعور بالألـم ذاك الشـعور الـذي اسـتعبد الإنسـانيّة مـن الأزل وإلى الأبـد سـيظلّ مسـتعبدها؟

إنّنا رهائن أجسادنا وأجسادنا رهائن ضعفها..رهائن عجزها.

رأت صـورا كثـيرة، كلّهـا لـه.. الالتفاتـة الـتي قدّمتهـا لـه وعرّفتهـا بـه، أوّل مشـهد، أوّل ابتسـامة، أوّل كلمـة: «شكسـبير..»، ثـمّ صـور هـي بمثابـة الأفـكار الجزئيّـة لمجمـل قصّتهمـا، زجـاج قُـذف بحجـر فانفجـر وطـارت شـظاياه، كلّ شـظيّة أحـدّ مـن أختهـا سـواء عكسـت بسـمة أو عكسـت دمعـة.. لقصـص الحـبّ وقـع عـلى النفـوس، لا تنافسـها عـلى رتبتـه وعـدد نجماتـه قصّة، مـا الـسرّ وراء ذلـك؟

أوَ لا يمكـن أن يكـون السـبب أنّهـا تسـتضيفها القلـوب، والقلـوب هـذه الـتي تقـرع طبـول الحيـاة؟

عـادت صورتـه وهـو يبتعـد، وهـو عـاد، وهـو يرتـدي البدلـة السـوداء، وهـو يقـترب، وهـو يبـكي، يضحـك مـلء فيـه وسـط بدلتـه السـوداء، يلتقـط لهمـا صـورة عـلى مقربـة مـن بـرج «إيفـل»، يـأكل ويُشرِكهـا، يرفـع الطرحـة عـن وجههـا وتـدوّي الزغاريـد، يخبرهـا عـن اسـمه لأوّل مـرّة: «أُحُـد».. وتسـمع صوتـا مجهـولا يـردّد اسـمه في قاعـة المحـاضرات كأنّـه الصـدى: أُحُـد، أُحُـد، أُحُـد.. ويحـلّ محـلّ الاسـم المنطـوق رقـم منطـوق لصوتـين معلومـين: «العـاشرة والنصـف»، ويعـود يقاطعهمـا الصـوت المجهـول: «أُحُـد»، وتختلـط الأصـوات: «أُحُـد»، «شكسـبير..»، «العـاشرة والنصـف واشـتقت إليـكِ»، «سـاعة الوفـاة: العـاشرة والنصـف»، «العـاشرة والنصـف»، «العـاشرة والنصـف»، «العـاشرة والنصـف»..

لـم يصمـت ذلـك المنبّـه داخـل لا وعيهـا حـتى أخرجهـا إلى وعيهـا، كي تسـتلمها وترحّـب بعودتهـا إلى واقـع يعـوذ الحنظـل بمرارتـه مـن مرارتـه، صـور هـي مـن المـاضي القريـب، القريـب جـدّا.. قفـزت مـن صُرّة الذاكـرة متتابعـة خنجريّـة هائجـة تطعـن كلّ مـا يعـترض سـبيلها مـن ذرّة إدراك حـتّى أدمـت الشاشـة، فقـدت عـلى إثرهـا السـيطرة عـلى جسـدها، مـا صـارت إلّا متفرّجـة عليـه، عـلى مـا يعـرض عليهـا مـن حـركات مخيفـة كأنّـه خلسـة دون أن تعلـم، كان يتلقّـى مـن وراء ظهرهـا دروسـا عـلى يـد الـصرع، وهـا هـو سـنحت لـه الفرصـة أن يباغتهـا بهـا ويسـتعرضها عـلى دهشـتها.. مـاذا يحـدث؟

«ماذا يحدث؟»..

السـؤال الوحيـد والـكلام الوحيـد الـذي تبقـى تجيـده العقـول البشريـة لمّـا تتجـبّر عليهـا النـوازل، تنحـني، تقلّـص مـن امتدادهـا كسـلحفاة أو قنفـذ في مواجهـة الخطـر، تحتمـي بيديهـا وهـي تـصرخ: «مـاذا يحـدث؟».

ولكـن لا يجيبهـا أحـد، ولـو أجابوهـا مـا فقهـت كثـيرا ممّـا يقولـون، حـتّى تجيـب نفسـها.. حـتّى يجيبهـا الزمـن.

ثبّتوهـا وحقنوهـا وعـادت إلى الصـور والأصـوات الأولى، إلى أُحُـد طالـب وعريـس.. إلى منبّـه العـاشرة والنّصـف.

***

مـرّت سـاعات قبـل أن تسـتفيق ثانيـة، وليتهمـا الحيـاة والمـوت يكفّـان عـن تجاذبهـا، كلّ واحـد منهمـا متمسّـك بطرفـه منهـا لا ينـوي أن يفلتـه للآخـر، ليتهـا الحيـاة تستسـلم للمـوت وتكـفّ عـن عنادهـا فتـترك يدهـا لرحمتـه يمـضي بهـا بعيـدا.. بعيـدا عـن شـلّالات نياجـارا مـن ألـم، كانـت تسـقط بـلا رحمـة، بتدفّـق قاتـل، دفعـة واحـدة، عـلى فـوز الحيـاة عـلى المـوت فيهـا.

مـا لي ومـا لـك أيّتهـا الحيـاة؟ مـاذا تريديـن بعـد؟ أمـا اكتفيتِ؟ أمـا لـكِ غـيري حـتّى تفرّغـتِ لي كلّ هـذا؟

تمالكـت نفسـها، لـن تجـني مـن الـصراخ والتخبّـط حـتّى وهمـا يعمـلان عمـل صافـرة الطنجـرة سـوى حقنـة أخـرى، فتخديـر آخـر، وهـذا كانـت لترتمـي في أحضانـه كمـا لـو كانـت أحضـان

أُحُد لو أنّه كان قادرا على رحلة طويلة.. لو أنّه كان بُراقا أو تنّينا مسالما أو طائرا سحريّا، فيطير بها من كلّ هذه الأرض القبيحة الحزينة وزمنها الحقير البائس.. لكنّه مجرّد غفلة، مجرّد ضربة بقلم، اختفاء يشكّ صاحبه في أنّه أخفاه أو أخفى عنه شيئا.. ثمّ ما الفرق بين كلّ هذا السواد والحداد الذي اكتساه كلّ شيء وصبغ كلّ شيء وبين ذلك المنبّه المشوَّه المرعب؟ لا فرق بينهما.. إنّهما توأمان قبيحان، كلّما حاولت أن تفرّ من أحدهما نحو الآخر، ما وجدت نفسها إلّا تعاود الفرار من المفرور إليه صوب المفرور منه.

إنّ الألم قويّ، قويّ جدّا.. قويّ حدّ الغثيان، حدّ القشعريرة، حدّ الصداع، حدّ الصرد.

ضمّت جسدها إليها واحتضنت نفسها وما شعرت بشيء من دفء ولا تخفيف.. عوزت والدتها، أن تلفّها بذراعيها، ألّا تُخرجها من صدرها، أن تدثّرها وتزمّلها جميعا، أن تعيدها إلى بطنها!

هل يُعقل أنّ أُحُدا مات، بما معناه مات؟ هل صحيح أنّها لن تراه مجدّدا؟ إلى الأبد؟ لن تستطيع أن تعتذر إليه؟ ولا أن تجلس إليه؟ ولا أن تحدّثه؟ هل تُعقل نهاية كهذه؟ هل تُعقل نهاية فيلم دام خمس دقائق؟ من ينتظر نهاية فيلم بعد خمس دقائق من المشاهدة؟! من يلتحق ويشاهد فيلما دام خمس دقائق إلّا عالم بغدر زمنه؟ ألم يبق أمل ولو ضعيف هزيل أنها قد تراه يوما آخر؟ بعد عشرين سنة؟ أو حتى ثلاثين؟ ولو.. مع امرأة أخرى؟ ما هذه الحياة؟

هـل لهـا دسـتور؟ أم لهـا قانـون؟ هـل تعلـم هـذه الحيـاة أنّ هـذا الرجـل هـو كلّ مـن أحبّـت مـن الرجـال؟ هـل تعلـم أنّهـا سـنواتٌ زمـن الفـراق لـم يُشـجب مـن معاناتهـا يـوم ولا سـاعة؟ هـل تعلـم أنّـه شـهرٌ زمـن اللّقـاء لـم يـزد عليـه يـوم ولا سـاعة؟

لقـد كـسر قلبهـا وحطّـم روحهـا سـفره عنهـا في الدنيـا إلى امـرأة وأرض أخريـين، مـاذا قـد يفعـل بهـا رحيلـه عنهـا إلى الآخـرة إلى الحـور والجنّـة؟ كادت تشـعر بالغـيرة مـن صـورة الحوريّـة في فكرهـا تتـودّد إليـه، هـذه شـأنها غـير شـأن البدلـة السـوداء، غـير شـأن الفرنسـيّة.. هـذه أخطـر بكثـير!

أيـن ذهبـت بهـا أفكارهـا؟! ولا كأنّهـا مسـكوبة عقـل مـتّزن لا يـزال بخـير، أيّـة بدلـة سـوداء وأيّـة فرنسـيّة وأيّـة حوريّـة وأيّـة غـيرة؟ الرجـل مـات.. مـات!

اندفعـت روحهـا بجسـدها المسـتلقي المستسـلم إلى الأمـام، إمّـا أن يقـوم بهـا أو تقـوم عنـه!

اقتربـت الممرّضـة منهـا وحاولـت تهدئـة ذلـك الـصراع القائـم قبالتهـا بـين جسـد انهـار وروح اتّقـدت، فدفعتهـا جـوري واندفعـت.. نحـو الـرواق.

***

أمـور كثـيرة في الحيـاة كان عليهـا أن تعلـم أنّنـا بـشر وفقـط.. مجـرّد بـشر.

كانـت تريـد أن تـراه، لكـنّ الأخصّائيـة النفسـانيّة الـتي عُرضـت عليهـا حالتهـا أوصـت بمنـع قاطـع.

في اليـوم بعـد المـوالي لذلـك اليـوم الأسـود، انضـمّ أوراس، وعـادوا جميعهـم إلى الوطـن، حـتّى أنّ نيـل صـار يفكّـر بجديّـة في عـودة نهائيّـة.

وهـي في الطائـرة، لـم تشـعر بـأنّ الزمـن الفاصـل بـين أوّل مـرّة ركبـت والثانيـة كان أطـول مـن يـوم واحـد، ويكأنّـه كلّ الـذي كان مـا كان غـير حلـم جميـل دام عمـر قيلولـة قصـيرة ثـمّ اسـتيقظت عـلى..

لا تـدري عـلامَ اسـتيقظت، لـم تعـد واعيـة، لـم تكـن تبـكي، كانـت صامتـة وعـلى عينيهـا غشـاوة مـن بلـه.

كان جميـع أحبّائهـا بانتظارهـا.. لقـد عـادت، قبـل أيّ شيء آخـر.

في بيتهـم، صـاروا جوقـة دمـوع تعـزف الحـزن في صمـت، إنّ للحـزن لرهبـة تهابـه بهـا كلّ الأصـوات..

الـتي كانـت غرفتهـا ورجعـت غرفتهـا لـم تتغـيّر، هـي مـن تغـيّرت، لقـد وجـدت لهـا نمطـا حيانيّـا جديـدا وجـدت فيـه مسـكّنا قويّـا لآلامهـا.. الهـروب مـن الحيـاة. انقلبـت تنـام جـلّ اليـوم فـكلّ اليـوم فأيّامـا متواصلـة، لا تخـرج مـن غيبوبـة إلّا

وترتمي في أحضان أخرى، لم تكن بتلك الطريقة تفرّ من غيابه فقط، لأنّه على الأقلّ هناك حيث لجأت، ما كان يغيب أبدا، كانت تراه.. واقفا هناك، يرتدي نفس البدلة، غير أنّ هذه البدلة بيضاء ناصعة، ذات بشرة أنصع من بدلته وابتسامة أنصع من بشرته، ويحمل في يده وردة زبرجدية.

لكنّها الحياة، حتى أحلامها لا تخلو من العيوب..

كلّما ركضت إليه، ابتعد كما لو كان يمتطي بساط الريح، واختفى.

وتستمرّ الحياة..

عـادت آسـتر إلى الشـاطئ تقطـر مـاء، يرتعـش جسـدها داخـل ثيابهـا المبلّلـة وتصطـكّ لذلـك أسـنانها، أخـذت منشـفتها تغطّـت بهـا ثـمّ جلسـت قـرب جـوري وهـي تضـمّ المجفِّفـة، التفتـت إليهـا وبشـفاه مـال لونهـا إلى الأزرق البنفسـجيّ سـألتها:

- لمـاذا لـم تـنزلي للسـباحة؟ الميـاه منعشـة رائعـة هـذا الصبـاح.

كانـت جـوري تنظـر إلى البحـر نظـرا متّصـلا متواصـلا خاشـعا مُجِـلّا وَلِهـا، لقـد كان يشـفيها النظـر إليـه، يمتـصّ بمـدّه مـن حزنهـا، راجعـا بـه كلّ مـرّة في جـزره، كي يودعـه قعـره فطـيّ النسـيان.. يـا لـه مـن سـاحب سـاحر.

- يكفيني النظر إليه..

دارت آستر ببصرها عن جوري إليه:

- فعلا.. إنّه خلّاب.

عادت نظرتها إلى جوري:

- جوري..

انتبهـت عـن لهـو أمواجـه بالمصطافـين وردّت بصـوت يبغـي اسـتفهاما وقـد صـار وجههـا لوجـه صديقتهـا:

- أها؟

- كيف أنتِ اليوم؟

هربت نظراتها إلى الماء غاصت فيه مجدّدا ثمّ كأنّها ملأت منه قالت مازحة مستعبرة في آن:

- أنظر إلى البحر!

تخلّت آستر عن منشفتها ووضعت يدها على ظهر جوري:

- لا عاش الحزن أختي، أنت أقوى منه بإيمانك.. ماذا نفعل؟ هذا نصيبنا أنا وأنت، ألّا يبقى لنا من رأس الوردة وقد نثرنا كلّ بتلّاتها على رأسيهما، إلّا صلعها والأشواك.

انكسرت جرّات الماء داخل عينيها:

- لا آستر لا! سامحك الله، كيف تساوين بين أُحُد ونيل؟

اقتربت آستر منها وضمّتها بذراعها:

- آسفة، آسفة.. فعلا لا مجال للمقارنة، ماذا دهاني أنا؟ ابكِي حبيبتي، لا بأس أن تبكي، إنّ البكاء خير مواسٍ، وإنّي أفتقده لحالي.. انظري إنّي أدعى للرثاء منك، تبكين رجلا أخذه الله منك، وبكيت رجلا أخذته امرأة منّي.. من منّا أحقّ بالحزن وأدعى لِأن يُشفق عليها وتُرثى؟

خرجت جوري من ضمّتها كي تخصّها بنظرة لا فيها تعجّب ولا فيها إعجاب، سألتها وهي تمسح عينيها:

- لا زلتِ؟

تنهّدت آستر وتعبث بالرمل تنثر منه على قدميها قالت:

- لا.. انتهى كلّ شيء جوري.

لم تصدّق جوري ما سمعته:

- انتهى كالموت أم هي نهاية لها نهاية؟

وهي تنفض حبّات الرمل العالقة بين أصابع يديها، ردّت آستر كما لو أنّه البحر من سأل:

- بل أكثر موتا من الموت، فلو أنّ الموت بداية لنهاية، فقد حظيت أخيرا بنهاية لتلك النهاية.

كانت جوري تابعت كلّ حلقات مسلسل انتظار آستر، ثمّ بمصابها سهت عن صديقتها كثيرا، حتّى فاتتها الحلقة الأخيرة منه. قالت كاسفة أنّها ما استطاعت أن تكون بجانبها في الوقت الذي كانت الأخرى بجانبها لا تبرحها:

- فلتغفري حبيبتي، وددت لو أنّ الدهر جنّبني نوائبه لكن..

وعادت اهتاجت عينها.

قاطعتها آستر:

- ماذا تقولين جوري؟ والله لا عذر لمن لم يعذرك.

تابعت على أمل أن تصرفها بحديثها عن دموعها:

- ثمّ أنا قصّتي أهلكها الدهر، لقد عمّرت أكثر من اللّازم وكان لا بدّ لها من ميتة.

أضافت بما اعتبرته عزاء في السياق:

- في الأخير، كلّ شيء هالك إلّا وجه الله.

لا.. لـم يصرفهـا حديثهـا عـن دموعهـا، بـل استرسـلت فيهـا وبـدت كأنّهـا عـلى وشـك أن تقـع في إحـدى نوبـات الصمـت الطويـل الـتي لـم يقـدروا بـشيء عـلى استشـفائها منهـا مـذ عـادت مـن فرنسـا، إلّا أنّ آسـتر لـم تستسـلم، هـي لـم تـأتِ بهـا كي تعـود بهـا كمـا جـاءت بهـا.. قالـت مـصرّة عـلى إيقـاظ طرفهـا مـن الحـوار:

- ألا تريديـن أن تعـرفي مـا حصـل؟ في كلّ الأحـوال لـو لـم تسـمعي منّي أنـتِ، فمـن لي بعـدك يـا رفيقـة عمـري أشكو لهـا بعـض بـثّي وحـزني؟ اخرجـي مـن حزنـك قليـلا ولـو إلى حـزني، فـرُبّ أحـزان يُخرجـن مـن الأحـزان، كمـا تسـلّي بعـض الهمـوم عـن همـوم.

لـم تخرجهـا مـن حزنهـا لكنّهـا نجحـت في إخراجهـا مـن صمتها، قالـت والبحـر يُغـري البـصر والبـصر جـفّ فجـأة وتحـدّى البحر:

- ما دامت سيرة موت..

أطرقـت آسـتر زمنـا ضلّـل أنّهـا غـيّرت رأيهـا ولـن تقـول شـيئا، مـدت بصرهـا إلى البحـر تقـص عليـه بنظراتهـا قصّتهـا، طفـت حقيقـة شـعورها الدفـين في عمـق منهـا لا يبلغـه سـواها عـلى ملامـح وجههـا، فتجـلّى حزنهـا أحلـك مـن حـزن جـوري، نزلـت دمعـة واحـدة زلّـت مـن عـين واحـدة، وراحـت تسـير متمهّلـة

عـلى خدّهـا، حـتّى لمّـا بلغـت حاجـزه، قفـزت مطمئنّـة للرمـل وامتزجـت بـه:

- كنـتُ بلغـت مرحلـة لا أدري حقيقـة بمـاذا أصفهـا أو كيـف أصنّفهـا، أبسـط صفـة تحـضرني الآن أنّـه انتظـار خـلا مـن ذرّة المنطـق ذاك الـذي أدمنـني.. مزلقـة غـير منتهيـة، دوّامـة تطمـح إلى الديمومـة، متاهـة وفي نفـس الوقـت مقـبرة لمن يدخلهـا، تيّار مـائي جـارف نحـو تيّـار مـائي جـارف نحـو تيّـار مـائي جـارف نحـو المالانهايـة، وهـذه شـبه النّهايـة، أمّـا البدايـة فـلا تجهلـين، كنتُ إبّانهـا أصغـر سـنّا أي أقـلّ تجربـة، أي عـلى قـدر مـن الـبراءة، أي عـلى قـدر مـن السـذاجة.. كنـتُ أمـشي نحـو محـاضراتي، ثـمّ وأنـا أمـشي، عـثرت في طريقـي عـلى مخلـوق صغـير محبّـب يدخـل القلـب بـلا اسـتئذان أو حاجـة إلى قـرع البـاب، فأثـار في نفـسي نفـس الـذي تثـيره رؤيـة صغـار كلّ المخلوقـات مـن رغبـة في الضـمّ وشـعور بذوبـان كلّ تشـنّج وقـدرة عـلى المقاومـة، فمـا قاومـت جاذبيّتـه وحملتـه معـي وعـدت بـه إلى بيـتي، وهنـاك جعلـت لـه مكانـا في القبـو، ورحـتُ أُطعمـه. ثـمّ مـا لبثـت أن بـدأت أتعـوّد عليـه، وسرعـان مـا تعلّقـت بـه، وهـو ينمـو برعايـتي وحـرصي واهتمامـي وينمـو، وينمـو تعـوّدي عليـه وتعلقـي بـه وتمـرّ السـنوات، إلى أن صـار حبيـبي الصغـير كبـيرا، أكـبر مـن أن أخرجـه مـن القبـو وأكـبر مـن أن يبقـى فيه إذ أكـبر من أن تشـتمل عليـه حـدود السـقف، بـل أكـبر حـتّى مـن أن أقـترب منـه، تغـيّر وآض إلى غـول لـن يـتردّد في التهامـي لـو اقتربـت منـه، وأصبحـت أنـا في مـأزق وورطـة وكـرب، لا أدري مـا اسـم هـذا المخلـوق ولا كيـف السـبيل إلى الخـلاص منـه، فسـألت وأجابـوني أنّ ذاك

الحـبّ، منحـة وبركـة لزوجـين لـو أخـذاه وتبنّيـاه سـويّة، محنـة وعـذاب عـلى فـرد لـو حملـه وكفلـه وحيـدا. لكنّـني علمـت ذاك متأخّـرة، متأخّـرة جدّا، فقـد كان ذاك المخلـوق الناكـر للجميـل يضـجّ ولا يهـدأ، يتوعّـدني بصيحاتـه الـتي كانـت تدركـني أينمـا مـن الأرض ابتعـدت، ويعـدني أنّ نهايـتي سـتكون عـلى يديـه، أو بـين فكّيـه! هنـاك.. فـررت إلى الملـك القـويّ، أمـان الخائفـين ونـاصر المظلومـين والـذي لا يضيـع أجـر المحسـنين، شـكوت إليـه همّي ورفعـت إليـه مظلمـتي وقـد أوقعـني الانتحـاب أرضـا، توسّـلته الجـوار والغـوث، ثـمّ انصرفـت مطمئنّـة.

ومـا لبثـت شـيئا بعـد الشّـكاة حـتّى حـلّ يـوم فتحـت في سـاعة مـن سـاعته كالعـادة حاسـوبي، وكالعـادة طلبـت صفحـة نيـل، لكـن كمـا مخالـف للعـادة، وجدتـه خـرج عـن صمتـه الـذي عهدتـه لسـنوات مسـتوطنا عـلى صفحتـه الـتي لعـلّي كنـت زائرتها الوحيـدة، وجدتـه أخـيرا كتـب شـيئا، لا هـو شـعر ولا هـو نـثر، لكنّـه كان أبلـغ مـن الاثنـين ولـو اجتمعـا، كان عفويّـا فأصـدق، وكان مهـدى لزوجتـه. في تلـك اللّحظـة، سـمعت صرخـة قويّـة دوّت حـتّى خبطـت بسـقف السـماء، طـارت لشـدّتها الطيـور مـن الأشـجار، وفزعـت لحدّتهـا الوحـوش مـن الأوكار!

كان الملك العادل رمى برمح، ما أخطأ قلب الغول الجائر.

حـان دور جـوري أن تواسـيها بيدهـا عـلى ظهرهـا، وهـي تفكّـر أنّ غـدر الرجـل فعـلا قـد يكـون أفظـع مـن موتـه.. قالـت:

- لكنّك كنت تعلمين أمر زواجه؟

تاه بصر آستر وهي تردّ:

- لا أدري.. كنت أعلم ولا أعلم، أعلم أنّه تزوّجها ولا أعلم أنّه استأنس إليها، وهناك فرق.

- ما الفرق؟ الإنسان لا يتزوّج إلّا من شخص استأنس إليه.

- لا، ليس دائما جوري.. إليكِ أُحُد رحمة الله عليه، ما كان تزوّج من تلك الفرنسيّة هياما بها أو رغبة في مشاركتها الحياة، إنّما هناك اعتبارات أخرى.

صمتت جوري، صار رأسها يعاني انفجارا سكّانيا بين أفكار وتساؤلات من وراء تلك التجربة المريرة، فلمّا تهمّ بتوظيف بعضها، تشعر بها ثارت كلّها مرّة واحدة تريد أن تقول كلمتها وتدلي بشهادتها، ما يبثّ الفوضى في عقلها الذي قد يشهد حالات من الشغب، ويصبح من الصعب جدّا أن تفهم شيئا وسط كلّ تلك الجلبة. علا صوت جملة بين الحشود، فاستطاعت أن تميّز هدف حروفها ومبتغى كلمها، قالت بصوت من يحدّث نفسه والدموع تعصر العين والقلب تعصره الحسرة:

- إنّ في قصّتي لعبرة لمن يعتبر..

ارتبكت آستر، كانت تقصد الإشادة بقلب أُحُد فلم تنتبه أنّ الحدّ الآخر لسيف قولها كان استنكار قلب صديقتها.. استدركت:

- وفي قصّتي وفي كلّ قصّة، وفي كلّ الحياة عبرة لمن يعتبر..

ألسنا نخرج منها مجرّدين عراة من كلّ ما منحتنا يوما إلّا من عبرة نسرقها؟

تنهّدتا في نفس الوقت.. ثمّ أضافت آستر:

- تعرفين ما بيت الداء في جسد العلاقات العاطفيّة؟

لم تنتظر إجابة احتجزها الصمت، ردّت على نفسها:

-إنّ كلّ شيء من حولنا يغلّط في تعريف الحبّ أجمل ما قد يحصل معنا على الإطلاق، هكذا ودون شروط على حصوله أن يستوفيها مسبقا. وتداول الناس هذا الخطأ الشائع كما تداولوا يوما الخرافات والأساطير حتّى صدّقوها وآمنوا بها، والفضل كلّ الفضل في انتشار هذا اللّاوعي يعود إلى نوعيّة الغذاء الذي يقدّمه شطر من القنوات الفضائية لعقولنا، كلّ هذه الدعاوى الصريحة والخفيّة إلى تقديس الجسد البشري على أنّه قالب الحبّ، من قصص حبّ وهميّة وملتهبة حكر على عارضي الأزياء والعارضات وحتّى برامج الثقافة الصحية. لا بأس فهمنا أنّ العقل السليم في الجسم السليم، لكن ماذا عن «العقل السليم لجسم سليم»؟ من يروّج لها هذه؟ ما فائدة أن نغذّي أجسادنا بالطعام الصحي وكلّ ما هو «بيو»، عندما يغذّون عقولنا بالسموم؟ للأسف.. إنّه زمن «يا منمّق الواجهة كيف حال البضاعة؟».

بدا الحديث كأنّه استقطب اهتمام جوري، فتابعت آستر:

- اليوم وقد عاد إليّ صوابي بعد أن عاد عقلي استقرّ بعد

أن عـاد قلـبي إلى سـكونه وهدوئـه الأوّل، عـادت لي بـكل أولئـك العُـوَّد المرحّـب بهـنّ القـدرة عـلى أن أزن الأمـور بالقسـطاس المسـتقيم، أخـيرا.. وبعـد طـول انتظـار، عـادت. وبعودتهـا حمـدا لله عـلى عودتهـا سـالمة غانمـة، عـدتُ أرى كلّ شيء في مكانـه وبحجمـه وألوانـه، وكـم ذهلـت أوّل مـرة أزحـت فيهـا بعـد سـنوات نظّـارة الحـب عـن عينـي! إنّـه يعمـل عمـل المـرآة الجانبيّـة مـن جهـة السـائق للسـيارات، حيـث منقـوش عليهـا: «الأجسـام الـتي تراهـا أصغـر وأبعـد ممّـا تبـدو عليـه في الواقـع»، فعـلا.. في آخـر المطـاف، مـن هـو نيـل؟ لقـد كـذب عـليّ الحـبّ طويـلا أنّـه أكـبر وأقـرب، في حـين مـا كان في الواقـع إلّا أصغـر وأبعـد.. والحـبّ لا يشـوّش الرؤيـة عـلى العـين فحسـب، بـل التفكـير عـلى العقـل كذلـك.. أيّـة حمقـاء كنـتُ وأنـا أعجـز أن أفهـم أنّ إدبـار الرجـل معنـاه ببسـاطة.. أنّـه غـير مهتـمّ! وأيّـة خرقـاء وأنـا لا أسـتوعب أنّ انتقالـه المبـاشر إلى علاقـة أخـرى بـل رسـميّة مفـاده بأبسـط مـن البسـاطة الأولى أنّـني في عمليّـة المقارنـة، هـذا لـو كانـت هنـاك عمليّـة مقارنة أساسـا، فلعـلّي كلّي عـلى بعـضي مـا ارتقـى شـأني إلى مـا يسـتحق أن أدخـل بـه مرحلـة التصفيـات، فلـو فرضـا كنـت مـن المشـتركين النهائيـين، فالأكيـد أنّي مـا فـزت باللقـب.

نطقت جوري أخيرا:

- فـإذن وافقتـني واختلفـتِ، الإنسـان لا يدنـو مـن ارتبـاط مصـيري بـلا حـدّ أدنى مـن الألفـة؟

تبعثرت آستر بين رأييها المتناقضين:

- لازلت أصرّ أن ليس بالضرورة، لكن بعد مراجعة التّقارير لعلّها تتبدّى الحالة الأعمّ والأكثر انتشارا.

تيقّظ طرف جوري من الحوار:

- هل تعتبين عليه؟

خرجت زفرة آستر صائتة، ثمّ قالت وهي شاردة تسبح في بحر الأفكار وتغوص تنقّب عن جواب ما خطر لها سؤاله قبلا:

- هل أعتب عليه؟.. الجواب معقّد لو أنّ السؤال بسيط، أختي. الجنس البشري على غرار الأجناس الأخرى جنس متنوّع مزركش مبرقش، متشعّب متشبّع بالألوان، ولا أقصد من حيث أشكالنا فقط، فعوالمنا الداخليّة هي المسؤولة الأولى عن هذا الفضاء الرحب من الاحتمالات في الفوارق الخارجيّة، ولهذا صعب، صعب جدّا أن تحكمي على إنسان أو سلوكه.. عنّي أنا، ابتداء من اللّحظة التي نقرّر فيها أنّنا منتقلون بإعجابنا من مرحلة الخواطر إلى مرحلة الإشهار بأيّة طريقة كانت، فإنّنا لو أصحاب ضمائر نعدّنا ملتزمين فملزمين بكلّ ما يترتّب عن ذلك الالتزام الذي ألزمنا به أنفسنا، لأنّنا ما عدنا وحدنا، بل دخل اللّعبة شخص آخر، شخص لا يقلّ إنسانيّة عنّا، شخص لعلّنا مرَن استدعاه، فماذا نكون لو لبّى وانصرفنا؟ حتّى أنّنا في ديننا غير مؤاخذين بما يجول في رؤوسنا من أفكار ونوايا، على عكس ما تجرح حواسنا من أبسط الأقوال وأهون الأفعال.. خذي مثلا مجرّد

النظـرة، هـذه الـتي يسـتهين بهـا أغلـب النـاس، هـذه كالكلبـة، ولسـت أهـين لـو أنّ النـاس تسـتهين، ترويضهـا يمكّـن صاحبهـا مـن السـيطرة عليهـا فالسـير بهـا في الأماكـن العامّـة والمكتظّـة لأنّهـا مسـالمة أليفـة، أمّـا لـو هـي مروّضـة صاحبهـا وسـائقته، فسـتجرّه إلى المـآزق والآخريـن إلى المهالـك، حيـث سـتنفلت لا محالـة وتهاجـم، وقـد تنقـضّ وقـد تعـضّ وقـد تقتـل!

تهكّمت ملامحها في فترة استراحة ثمّ واصلت:

- مـن أحـدّث أنـا؟ ومـن يسـمعني أنـا؟ إنّ أهـمّ مـا انجـرّت عنـه مـآسي البـشر هـو أنانيّـة البـشر.. كلّ واحـد مشـغول بنفسـه كيـف يسـعدها وكيـف يرضيهـا وليـت شـعري كانـت تـرضى، ثـمّ بعـده لِيُرسـل عـلى البقيّـة حاصـب أو لِتُخسـف بهـم الأرض! شـعار جحـا لمّـا سُـئل عـن موعـد السـاعة، قـال: «يـوم أمـوت أنـا».. هكـذا تنسـينا لحظـات الهنـاءة عندمـا تتوهّـج أحـزان النـاس الـتي لا تنطفـئ، تُغَيِّـب عـن أذهاننـا أنّنـا ربمـا وراء أحـزان بعـض النـاس، تُغَيِّـب عـن أذهاننـا ولا يغيـب عـن أذهانهـم.. ولا نغيـب.

كان الجـواب أطـول مـن أن يكـون واضحـا، فكـرّرت جـوري السـؤال بصيغـة لا تحتمـل مواربـة:

- أفهم من كلامك أنّك تعتبين عليه؟

ابتسمت آستر لشعور بأنّها اطمأنّت إلى جواب:

- لا.. ليـس حقّـا، ربّمـا قليـلا في جزئيّـة أنّـه أوهمـني بـه يحمـل

لي شيئا ما كان يحمل لي منه شيئا، فبلاني وكان له أن يعفيني، ومع هذا لست أحمل له في صدري ملامة عظمى، إذ لا أعتقد أنّه تعمّد ضرّي، ثمّ الضّار اسم من أسماء الله الحسنى والإنسان أضعف من أن يضرّ، ولكن أعتقد وأميل بشدّة إلى هذا الاعتقاد، أنّه ولأنّه تجاوزني بيسر فخالني تجاوزته بنفس اليسر، كما عجزتُ عن التصديق أنّه تجاوزني بكلّ ذلك اليسر لأنّني عجزت عن تجاوزه لا باليسر ولا بالعسر، وهنا نعود إلى قضيّة الأنانيّة، كلّ واحد فينا يرى بعينيه طوال الوقت، وهذا طبيعي ومنطقي، لكنّه أنانيّ أيضا.

أكبرتها جوري:

- لله أنتِ من قلب يا صاحبتي! وأنا التي كدّست له في قلبي العداوة والبغضاء غيرة عليكِ، تجلّيت أنتِ سامحتيه..

استخفّت عبارات وجه آستر:

- سامحته صيغة مبالغة، بياض ناصع.. فيما قصدت أنّه لا سواد لي تجاهه، يعني أنّني أراه بعين رماديّة. حسنا، لا أنكر أنّني رأيته يوما ملكا ويوما آخر شيطانا، لكنّني اليوم أراه إنسانا، وذاك الكلام وهذا السلام.

اندهشت جوري:

- لا، عدنا والعود أحمد!

تقنّع وجه آستر بالذكاء، ثمّ قالت ولم تنزع عنها ذاك القناع:

-للحبّ خيال الأطفال وتلفيق المفترين، يريك كلّ ليلة فيلما مختلفا فيه أنتِ السيدة والحبيب مسود، ولأنّنا نستمتع بهذه الأفلام التي لا أبطال لها سوانا وكاتب السيناريو هوانا، فإنّنا لا نتوقف عن مشاهدتها آناء الليل وأطراف النهار، خاصّة وأنّها لا تكلّف شيئا، فشاشة التصوّرات الذهنية كلمح البصر فتحها، والتصوّرات الذهنية كحاتم الطائي الخيال يجود بها، وهكذا حتّى الوقوع في الفخّ، فخّ الإدمان، فخّ المالانهاية، ويصير أقصى المنى عندها.. هو النهاية. وطريق الشفاء قبل النهاية طويل، حتّى تستقبل ملوّحة رايات اللّامبالاة.. نعم، اللامبالاة. يسعدني حدّ النّشوة أن أشعر اليوم بأنّني ما عدتُ أكترث.. هل أخطأ في حقّي؟ أم كان من حقّه؟ هل أحبّني فعلا؟ أم لم يحبّني كافيا؟ هل أحبّها فعلا؟ أم أحبّها كافيا؟ هل أحبّها أم ناسبته؟ هل لم يحبّني أم لم أناسبه؟ كلّ هذه التساؤلات التي ملأت رأسي بالإلكترونات والنيترونات زمنا ما عادت تعنيني ولا أبحث لها عن إجابات كما كنت، فلتمكث لو أحبّت الطواف حول عقلي، فلتمكث، أو لترحل لو شاءت، باب الكعبة لن يُفتح مجدّدا، ولست أبالي بها إلّا كما تبالي الكعبة بالحمام الحائم حولها!

انبهرت جوري لكنها لم تقل شيئا واكتفت بالابتسام، أمّا آستر فانتهت من التحمية وتلقّفت التمرين:

- إنّ في مستوصف الانتظار لإبلالا من تبعيّة الحبّ الهارب، فالانتظار مخلوق من وقت، والوقت يمنح فرصة للتفكير. كنتُ أريد نيل، وأنا أعلم أنّني وإيّاه مختلفان وغير

متشـابهين وطريقـان مسـتقيمان لا يلتقيـان. أردتـه وفقـط، لا خطّـة ولا مـشروع ولا يصلـح ولا لا يصلـح، إرادة مغلـوب عـليّ في أمرهـا، مـا كنـتُ فكّـرت في عمـق الأمـر، لتسـارع الأحـداث مـن جهـة وعنـد تسـاقط الأحـداث يضيـق الوقـت، فنحـن لا نعـي جيّـدا وقائـع اللّحظـة الراهنـة حـتّى تمـرّ، وفي اسـتذكارها تتبـدّى لنـا أمـور كثـيرة مـا كنّـا انتبهنـا لهـا خـلال حصولهـا، ومـن جهـة أخـرى لأنّ الحـبّ يقيّـد التفكـير ويضـني الإنسـان بحاجـة جديـدة كان في غـنى عنهـا وصـار لا غـنى لـه عنهـا، كمـا يوجـب مـرض الربـو بخّاختـه وداء السـكري حقـن الأنسـولين. كنـت أريـده لأنّي كنـت أحتاجـه، حاجـة المدخّـن إلى سـيجارته، يشـقّ عليـه الاسـتغناء عـن أذاهـا ومـع هـذا ليـس راضيـا عنهـا ولا سـعيدا بهـا، وكـم يـودّ أن تخـرج مـن حياتـه، وكـم حولـق عليهـا مـن سـاعة أدخلتهـا حياتـه! كنـت أريـده كمـا يتوسّـل المدمنـون مخدّراتهـم.. وليـس كمـا أرق مـن مثـل هـذه الرغبـة.

كانـت جـوري تنظـر إليهـا وكلّهـا آذان صاغيـة، لقـد تعلّمـت آسـتر الكثـير وصقلتهـا تلـك الخيبـة العاطفيّـة.. الإنسـان الناجـح يعـرف كيـف يسـتخدم كلّ مـا يقـع بـين يديـه لأجـل أن يسـتفيد منـه، كيـف يحـوّر أبسـط الأمـور لخدمـة مصلحـة خاصّـة أو عامّـة، حـتّى الفشـل لا يسـلم مـن طاقتـه الإيجابيّـة، تـراه لا يـزال يقلّبـه بـين يديـه إلى أن يصنـع مـن عجينـه تحفـة مـا.. قالـت جـوري:

- بماذا تشعرين اليوم؟.. أقصد بعد الحبّ؟

سُرّت آسـتر أنّهـا أفلحـت في اسـتدراج اهتمامهـا وإبعـاده عـن

حزنها قليلا، فشجّعها ذلك على مزيد من الخطاب، تأهّبت كمن على وشك أن يدلي بتصريحات هامّة ثمّ قالت:

- عشت قبل الحب وعايشت أثناءه، وها أنا ذي أشهد ما بعده، فأنا كمن عاش السلام ثمّ عانى ويلات الحرب، وأخيرا كان محظوظا بأن لقيه النصر على المحتلّ لا يزال على قيد الحياة.

انتقلت إلى نبرة أكثر شاعرية:

إنّي أصبحت حسبي من الحياة غناي عمّن استغنى عنّي.. ما لي وللحبّ أنا؟ نجوت من الحبّ أنا! ها أنا من جديد سيدة نفسي أمة ربّي لا غير، في غنى بربّي عن كلّ من سوى نفسي، قسما إنّه لكاذب من قال عن الحبّ أنّه غير داء، وما أكذب منه إلّا من قال عن غيابه أنّه غير هناء، كاذبان.. أو جاهلان.

هل كنتُ إلّا أسحق الأزهار وأرتطم بالأشجار؟ فإنّي اليوم أحيّيها زهرة زهرة، وشجرة شجرة..

وهل كان ليلي إلّا الأرق؟ وبات النّجوم وبات القمر، فما رأيي في الحبّ ختما إلّا يرادف: أعوذ، أعوذ بربّ الفلق!

أومأت جوري برأسها دليلا على عدم الاعتراض على القول، وقالت:

- معكِ حقّ، إنّه محض رِقّ ولا يُجنى منه شيء إلّا الشوك والضنك.

ثمّ أضافت بعد أن خطر لها تذكّر صرف وجهها تلقاء

البحـر، وصـارت الموارِبـة تُقـرأ بوضـوح في عينهـا:

- عقبـال أقـوام أن يطولهـم الفـرج حـتّى تتنفّـس قدورهـم بدورهـا الصّعـداء زافـرة انشراحهـا: «هكـذا كنّـا مـن قبـل فمـنّ اللـه علينـا».

قرأت آستر بين السطور وفهمت، لكنّها مع ذلك استفهمت:

- من تريدين؟

تكدّرت جوري:

- من يا لهفي عليه لا أعثر من حظّه بك إلّا حظّ أخيه بي!

انتقلـت عـدوى الكـدر إلى آسـتر فانحـنى رأسـها، وذبلـت ولـم تعلّـق.

أحنت جوري صوتها لخَور صديقتها:

-قولي لي حبيبتي، ماذا ينقصه أوراس؟

لقطت آستر نظرها وقذفت به إلى عرض البحر:

- أنـت تعجّزينـني بسـؤال لا جـواب لـه، كان الأصحّ أن تسـأليني مـاذا ينقصـني أنا؟

- لا أعلـم بـك بعـد خالقـك مـنّي، لا ينقصـك سـوى نتفـة روح مغامـرة، أفهـم الحـرص، أمّـا أن يتطـوّر إلى رهـاب فهـذا مـا لا ينبغـي أن نسـمح بحصولـه.. أوراس يسـتحق يـا حبيبـتي، يسـتحق.

هاجت آستر:

- فلأنّه يستحق!

ماجت جوري:

- وأنتِ تستحقّين!

هدأت آستر:

- ولأنّني أستحقّ..

هدأت جوري:

- فليلتئم جرح الاستحقاق إذن.. أمَا آن له أن يلتئم؟

شجنت آستر:

- إنّما يصير جرحا لو التأم.. لقد قرأت لكوليت خوري مقطعا أحببتها لأجله لشدّة ما طابقت أفكاره أفكاري، قالت: «أريد رجلا يحبّني لأنّ روحي امتزجت وروحه، ولأنّ أفكاري طابقت أفكاره».

هل ترين بأنّي لا أرى يا رفيقة عمري؟ أم تشعرين بأنّي لا أشعر؟ فاطمئنّي ولا ينشغل لك بال، لأنّي أرى وأشعر، وما أقوى حواسّي وإحساسي. أوراس رجل جبل، رجل حلم، لكنّه رجل من هذا المجتمع ومن هذه البيئة وبهذه الأفكار التي تتصادم وأفكاري، وأنا امرأة غير عموم النساء، مختلفة اختلافا لا أحسبهم عندنا يعتبرونه تميّزا، فأنا لا أحلم بذاك البيت الذي لي في كلّ شبر منه مسؤوليّة أخرى، أفضّل الحريّة،

إنّها مشبّعة أكسجين، وهكذا على الأقلّ أضمن أنّني لن أموت اختناقا.

- هل تكلّمت معه بهذه الشفافيّة التي تخصّينني بها الآن؟ هل سبق أن حدّثتيه بصراحة أن هذه النقاط على الحروف، فماذا تقرأ؟ أم أنّك كالعادة تفكّرين بدلا عن المعنيّ بالأمر ومن ثمّ تخمّنين ردّة فعله؟ اسمعي منّي واسمعي منه وحدّثيه، اقذفي بأوراقك على الطاولة والعبي لعبة مكشوفة تكونين قد حدّدتِ قواعدها بالأسود على الأبيض، فمن رضي بعد ذلك فله الرضا، ومن لم يرض فعليه منّا السلام.

- سيرضى، جوري..

-فاللهم بارك!

- سيرضى لأنّه يحبّني لا لأنّه موافق.

- ما الفرق؟ ما دامت كلّ الطرق تؤدّي إلى روما.

- الإنسان لا يجني من حب شخص لا يشبهه سوى التضحيات والتنازلات والمزيد منها، فالحب بلا مباركة العقل جشع طمّاع لئيم، على قدر ما أكرمته أهانك، ولا يقلع عنك إلّا وقد حوّلك إلى أرض جرداء كأنّه الجراد حلّ بها.. أعدّني محظوظة حقّا أن خرج نيل من حياتي، أنا التي كنت مستعدّة لهدّ كياني لأجل أن يستقرّ كيانه مكانه، وهذا ما لن أرضاه لأوراس، أيّة زيجة هذه التي لا بدّ من أن تمحي أحد الزوجين حتّى تحمي الآخر؟ لا.. لعلّها جريمة لا يعاقب عليها

القانـون، لكنّـني لـن أرتكبهـا.

- تريديـن مـنّي أن أرحمـه مـن حرمـان تفترضينـه واقعـا بـه لأجـل حرمـان هـو واقـع فيـه؟ هـل هـذا مـا تطلبـين؟

- حسـنا، تعـالي نسـقط الأقنعـة ونكشـف الحجـب ونصـارح أنفسـنا قبـل أن تصارحنـا حقائـق الأمـور، لأنّ وقـع صراحتهـا هـذه يشـبه فرقعـة الكـفّ عـلى الخـدّ، بالدرجـة الأولى.. مـاذا الرجـل للمـرأة في مجتمعاتنـا غـير سـيّد تخدمـه وحاكـم لا تخـرج عـن طوعـه؟ الـزواج عندنـا صفقـة يبيعـون المـرأة فيهـا دينـارا بكيـس مـن القطـع الذهبيّـة، تدفعـين طائـلا وبصراحـة لا أدري مـاذا تكسـبين بالمقابـل عـدا وسـام التضحيـة يعلّقونـه عـلى صـدرك، ومعنويّـا طبعـا لا حسـيّا. أنانيّـة، نرجسـيّة، سـمّني مـا شـئتِ إلّا كبـش الفـداء! لمـاذا عـليّ أن أرتبـط بـأوراس أو غـيره ممّـن أنـا في غـنى عنهـم؟ لمـاذا عـليّ أن أتـزوّج مـا دمـت لا أشـعر بحيـاتي ينقصهـا شيء أو تشـكو خطبـا؟ فقـط لأنّ كلّ النـاس يفعلـون هـذا فـلا يجـوز أن أخـرج عـن القاعـدة؟ أم لأنّـني امـرأة فلـن آمـن نبـذ المجتمـع إلّا وأنـا زوجـة وأمّ؟ فلينبـذوني إذن! خـير لي مـن أن أنبـذ نفـسي، لقـد وجـدت نفـسي يـوم أغمضـت عينـيّ وسـددت بيـديّ أذنيّ، هنـاك شـعرت بالسـلام كهبّـة نسـيم لعوبـة تمـتزج وروحـي، ومـذ ذاك قطعـت وعـدا عـلى نفـسي ألّا أقلّـد دون تفكـير، أن أقـف كالسـدّ الأخـضر في وجـه الانجـراف، لا أريـد أن أشـعر وأنـا عـلى فـراش مـوتي أنّـني مـا عشـت إلّا حيـاة غـيري، حيـاة عياريّـة لسـت أدري مـن صمّمهـا وهـذى أنّهـا تناسـب كلّ المقاسـات، بـل أريـد أن أفتخـر بجـرأتي عـلى المـضيّ

عكسا طاعة لإرشادات أفكاري وقناعاتي، نعيش الحياة مرّة واحدة، فهي ورقة الأوساخ وهي ورقة الإجابة أعلم، يبقى أنّه جبنٌ لو ردعنا هذا عن المرح بالأقلام عليها حتّى الجنون، أنا لا أخشى التجارب الجديدة التي لم يخضها أحد قبلي، ولكنّي أخشى بل أرهب التجارب المهترئة التي أبلاها الناس لشدّة ما خاضوها قبلي، لأنّني أجهل نتائج الأولى ويغريني فضول الاستكشاف، فيما تسبّبت لي في عقدة نفسيّة كارثيّة نتائج الثانية.

استعارت عرمرما من الهواء ثمّ ردّته، ثمّ زادت:

- سأرحل، جوري..

انتفضت جوري:

- ماذا؟

- سأرحل يا رفيقة عمري، سأرحل.

قامت قيامة جوري:

- كيف ترحلين هكذا؟ إلى أين؟ هل هو قرار وليد اللّحظة دفّقه سياق الكلام؟

ابتسمت آستر في حزن مطمئن، كانت واثقة أنّه القرار الصائب مهما كلّفها من ثمن:

- فوق هذه الأرض ما عادت لي حياة تختلف كثيرا عن حياة من هم تحتها، وأنا لديّ أحلام وطموحات غير معترف بها

هنـا، فـأن تولـدي إنسـانة معقّـدة في بيئـة بسـيطة.. هـذا أمـر معقّـد ببسـاطة!

أدركـت جـوري أنّ ذاك كان اعترافـا لا صرف قـرار أرسـلته الحماسـة:

- إلى أين؟

-لسـتُ أدري بعـد.. أفكّـر في العـودة إلى السـعودية، فقـد نسـجت بعـض العلاقـات هنـاك لمّـا اعتمرنـا.

صارت جوري تقاوم دموعها:

- كثيرا عليّ أن أفتقد جنونك بعد أن فقدت أُحُدا..

أخذتها آستر في حضنها:

- آه يـا رفيقـة عمـري الحبيبـة، هـذا لمصلحتنـا جميعـا، بابتعـادي أكـون وضعـت أوراس أمـام الأمـر الواقـع تمامـا كمـا وضعـني نيـل أمامـه، إنّهـا أنجـح اسـتراتيجيّة شـفائيّة، ولـو أنّـه يحـزّ في نفـسي أن أتخـلّى عـن رجـل يحبّـني بصـدق برهـن عليـه، إلّا أنّـني أثبّـت تزعـزع نفـسي للفكـرة مقنعـة إيّاهـا أنّـه شـعور سـيّئ لأجـل غايـة جيّـدة. إنّـني أتـوق إلى بدايـة جديـدة، أو كمـا يقولـون بالإنجليزيّـة «!starting fresh»، هـذا مـا أنـا في أمـسّ الحاجـة إليـه، ثـمّ مـن قـال بأنّـني أنـا القـادرة عـلى فـراق حـتّى الافتقـاد؟ أرتّـب أمـوري وتلحقـين بي مـع والـديّ، فمـا أحوجـك مثـلي إلى التغيـير حبيبـتي، التغيـير هـو النسـيان.

«النسيان»؟

هل كانت ترمي إلى نسيان أُحُد؟

لـم تنبـس جـوري ببنـت شـفة، لقـد رجعـت إلى الصفـر.. إلى نقطـة الانطـلاق.

بعد...

نقطة الوصول

أقبح ما في الحياة هو نفسه أجمل ما فيها..

ألَّا شيء يدوم فيها.

فتح باب البيت، ولج، ردّه ثمّ نادى:

- جوري!

لـم يحـظ بـردّ فـزاد صوتُـه عُـلًى لنـداء ثـان وهـو يتقـدّم في البيـت:

- جوري!

هناك أطلّت من الطابق الأول عندما كان هو بلغ أدراجه:

- عدت مبكّرا حبيبي.

مقسّـما عـدد حـروف الـردّ عـلى عـدد الدرجـات نحوهـا، قـال أثنـاء صعـوده إليهـا:

- أمضيـت يومـي مشـغول البـال، منقبـض الصـدر، قلَقـا عـلى أمّي.. هـل لا تـزال نائمـة؟

ابتسـمت جـوري لـه، انتهـى مـن الدرجـات، تبسّـم مـن ورائـه مفاجـأة سـارّة، رحّبـت بـه، صـار أمامهـا بقبلـة عـلى خـدّه، ثـمّ بشّرتـه في حماسـة تتوقّـع وقـع الخـبر السـار عليـه:

- بـل اسـتيقظت وطلبـت أن تـشرب وتـأكل وتقـوم وتمـشي وتـنزل إلى الحديقـة، وهـي الآن عـادت إلى غرفتهـا وتكتـب!

انقلـع مـن مكانـه وهـرع يصـدح حمـده لله ويعيـده حـتّى أدرك بـاب الغرفـة في أقـصى نقطـة مـن الطابـق الأوّل، كاد يدفعـه لـولا

تمالـك نفسـه في آخـر ثانيـة لاحتمـال داهمـه: لعلّهـا عـادت إلى النوم ؟

كانـت تدهـورت حالتهـا الصحيّـة في الأشـهر القلائـل الماضيـة.. الحقيقـة أنّـه مـذ وعـى عليهـا وهـي تشـكو بعـض متاعـب قلبهـا وتتابعـه ببعـض الأدويـة الخفيفـة، كانـت دائمـا تقـول أنّ داء قلبهـا لا دواء كيميـائيّ لـه، ثـمّ هـي مـا كانـت تحـبّ الأدويـة أصـلا، أو لعلّهـا مـا كانـت تؤمـن بفوائدهـا إيمانهـا بأضرارهـا، كانـت تـردّد أنّـه يكفـي قـراءة النـشرة الدوائيـة لأي عقّـار كيميـائي حـتّى نفهـم أنّـه ربّمـا وُجـد لإصـلاح عطـب لكنّـه هنـاك قطعـا لإحـداث أعطـاب، وأنّ الشـفاء الحقيقـي يتوسّـد قلبـا يؤمـن بـالله ويسـقّفه عقـل لا يبـالي بالحيـاة.

طـرق البـاب طرقتـين خفيفتـين قبـل أن يفتحـه ويرسـل برأسـه مـن ورائـه يأتيـه بالخـبر اليقـين:

- أمّي؟

سـأل ظهـر كرسـيها الهـزّاز يتأرجـح في مواجهـة بـاب شرفتهـا المفتـوح عـلى مصراعيـه..

توقّـف اهـتزاز الكـرسي وطلـع رأسـها عـن مخبئـه مشرقـا لصوتـه فصورتـه:

- أُحُد! حبيبي الصغير تعال إليّ أمّي، أقبِل.

دخـل مبتهجـا ضاحـكا لرؤيتهـا تحسّـنت ولنعتها إيّـاه بالصغير، جثـا عـلى ركبتيـه بـين يديهـا، قبّلهمـا وهـي تجهـر رضـا قلبهـا

عليـه وتدعـو رضـا ربّهـا إليـه:

- أسعدك ربّي حبيبي كما كنت بي برّا.

- اشرحي لي صدري أمّاه، كيف تشعرين؟

رجعت تتأرجح بكرسيّها:

- لا ضـاق صـدرك حبيـبي، لا ضـاق صـدرك.. إنّمـا أنـا صـارت خلفـي بعيـدة في الخلـف أيّـام كان لي حـقّ معاتبتهـا عـلى نقصـان في القـوّة، اليـوم هـذا أقـصى حقّـي مـن العافيـة أراني اسـتوفيته.

قاطعتهما جوري:

- أحسـب أمّـي قادمـة، خالـتي، فقـد أعلمتهـا بأنّك قمـت، وفور ذلـك قطعـت اتّصـالي بهـا وهـي تسـتعجل لسـانها بكلمـات لـم ألتقطهـا كلّهـا، لكنّـني فهمـت أنّهـا قادمـة عـلى عجـل.. تعرفينهـا.

ضحكـوا ثلاثتهـم وانضـمّ جـرس الـدار الكبـيرة يشـاطرهم حبورهــم.

استأذنت جوري قبل أن تخرج مسرعة:

- هذه حتما هي وصلت.

قـام أُحُـد أفـضى الكـرسيّ الـذي كان جلـس عليـه مقابـلا أمّـه، هيّـأه للمقبلـة، لمّـا عـادت جـوري مرفوقـة بالزائـرة الـتي مـا لبثـت نطقـت:

- أخـيرا اسـتيقظت أيتهـا العجـوز الكسـول، كـم أقلقتـني فـوق

متاعـب شـيخوختي!

قهقهـت، تحاملـت عـن كرسـيّها حـتّى تواقفـت بمسـاعدة مـن أُحُـد ترحيبـا بالوافـدة عليهـا وتلـك تشـير عليهـا بالعـودة إلى وضعيّـة الجلـوس مناشـدة إيّاهـا أن تبقـى مسـتريحة، والأخـرى تـأبى إلّا أن تضمّهـا وتتبـادلان القبـلات الحـارّة:

- أيّتها العجوز النشيطة، وأنا كم اشتقت إليك.

وصارتـا تضحـكان، وعـادت الأولى إلى كرسـيّها لمّـا جلسـت الثانيـة عـلى الآخـر المهـيّئ لهـا، وتواريـا أُحُـد وجـوري، مخلّفـين العجوزتـين كأنّـه دهـر لا شـهر الفاصـل بـين هـذا الحديـث وآخـر حديـث.

***

تبـدّى اليـوم مودّعـا، يـنزع عنـه ثيابـه الفاتحـة وينزلـق هادئـا في منامتـه القاتمـة، والحديـث إلى الأحبّـة لـولا يُنهـى لا ينتهـي، ومجالسـتهم.. يـا ليتهـا كانـت لا تنتهـي.

قامـت الحاجّـة أمّ جـوري رغمـا عـن محاباتهـا، رغمـا عـن مـنى خليلتهـا وصفيّتهـا الحاجّـة أمّ أُحُـد الـتي رجتهـا أن تبيـت عندهـم تتسـامران وتراجعـان سـويّة مجلّـد ذكريـات حافـل. فالحـاجّ أبـو جـوري وحـده في البيـت، ولا تحـبّ أن تتركـه ينـام وحـده في البيـت، إنّهـا تحمـل لهـذا الشـيخ الموقّـر شـعورا لا يوصـف، تقديـرا لا يقـدّر، وعاطفـة ثقيلـة جمعـت قناطيرهـا

المقنطرة على مرّ السنوات كالنملة الدؤوب لا تبرح المشغلة حتّى تفيض المؤونة عن الدار، أو كصنبور تنفلت عنه قطرة كلّ حين، لا يُقضى أجل إلّا وملأ دلوا أسفل منه حتّى ينضح.

اصطحب أُحُد حماته إلى بيتها الذي لا يبعد عن بيتهم شيئا يُذكر، كانت نهاية أمسية خريفيّة برودة، يبعث صَباها الشبم الحياة من جديد في كلّ حريق.

جوري حضّرت لحماتها عشاء خفيفا إذ تعرفها لا تقرب الثقيل من الطعام، وقدّمته لها قبل أوان العشاء، إذ تعرفها كذلك عوّدت نفسها على شيء كصيام عكسي، فلا تأكل بعد مغيب الشمس وحتّى الفجر.

كما اعتادت وعوّدت، غابت شمس ذاك اليوم أيضا، هل من يوم لا تغيب شمسه.. على الحاجّة أمّ أُحُد على سجّادتها تعطي ألحانا لقراءتها أذكار المساء، وعلى الحاجّة أمّ جوري تعدّ لزوجها حساء كما يحبّه، وهو معها يساعدها في بعض التقشير ثمّ في بعض الترتيب، قاصّا عليها حينا، سامعا منها تارة، باسما إليها مرّة، جذلا بتبسّمها أخرى، حتّى نضج عشاؤهما فجلسا رأسا لرأس وبينهما صحن مشترك سكبا فيه ممّا أعدّا، وراحا يقتاتان ويتحدّثان، ولا نهاية للحديث، فالحديث إلى الأحبّة لا ينتهي، كما لا نهاية للحبّ الحقيقي.

قاما مؤجّلين غسل صحنهما والقدر، مستعجلين بدل ذلك غسل أسنانهما، كي يمضيا بعد يوم آخر شاهد على تآلفهما وتحالفهما ضدّ خشونة الحياة، إلى غرفتهما. أعانته على تغيير

ملابسه، ملأت كأسه له ماء لأجل حبّة دوائه استودعها لسانه وأسقته إيّاه بيدها، استلقى فجلست إلى جانبه كي تدهن له صدره بـ«الفكس»، فقد كان للانقلاب الجوّي المفاجئ أثر عليه مبالغ في تبريده. كانت لمستها ترخي كلّ عضلاته، تفتّت دفعة واحدة كلّ مقت للحياة قد اعتراه يوما، ولو أنّها كانت تحبّذ النوم على صفحة كتابها، فهو كان لا أرهب إلى أرقه من صفحة وجهها، بقي نظره معلّقا ببسمتها تعلّق روحه بلمستها، لم تتغيّر كثيرا.. فقط قليلا، لقد صارت أجمل بقليل فقط، لكن.. «كيف استطاعت أن تخترق كمال الجمال أصلا؟»، تساءل قبل أن يغطّ في نوم عميق.

غطّته، قبّلت جبينه، ثمّ دلفت لشأنها، حان دور نفسها أن تهتمّ بها.

غيّرت ملابسها وجلست على طاولة الزينة تواجه وجهها، كانت إنارة الغرفة متوسّطة عقب أنّها طمست نور السقف، عقب أنّها وهّجت قنديل المنضدة الموالي لها دون الموالي لزوجها، الذي ما عاد يصدر عنه من صوت عدا ذاك الذي سببه احتقان الهواء في مجراه التنفّسي وبعض الشخير المتقطّع، وكلّها أعراض حلّت ضيفا ثقيلا على جملة طباعه المعهودة.

طريق الحياة طريق سريع، لا ممهّل عليه، وعليه مصفوفة أوراق لعب تنتظر الإشعار بالوصول..

لهبّة الوصول تميل الأولى ميلة تهوي بها على الثانية،

تهـوي الثانيـة عـلى الثالثـة، الثالثـة عـلى الرابعـة، الرابعـة عـلى الخامسـة! وهكـذا دواليـك.. حـتّى تقعـن كلّهن صريعـات.. أوراق الحيـاة عـلى ميـدان الزمـن، ومـا كلّ زمـن الوقـوع بزمـن غـير زمـن الوقعـة الأولى.

شـعرت بـأنّ الوقـت توقّـف، حـطّ رحالـه عنـد مرآتهـا، بـرك يسـتريح تحـت ظـلّ انعـكاس صورتهـا.. أحبّـت صـورة لهـا التقطتهـا روح الظـلام الـتي كانـت تتجـوّل في الغرفـة، الظـلام يخفـي العيـوب.. مـا عـادت جليّـة آثـار سـير عجـلات عربـات الزمـن عـلى وجههـا، تذكّـرت بـذاك الوجـه المختبئ وجهـا آخـر، وجهـا كان لهـا، وجهـا جميـلا، لزمـن جميـل. حـرّرت شـعرها، فانبثـق وكاد أن يطـأ بأطرافـه القرمزيـة أديـم كتفيهـا، أخـذت تسرّحـه، ترشـف خطـوات المشـط تتخلّلـه، تصـدّق ثنـاء مـرآة تعلمـه كاذبـا، وتطـرب للوقـت غفـا.. تحـت الظـلّ.

الوقت لا ينام طويلا، سِنة لا سَنة..

تركـت المشـط وابتعـدت عـن المـرآة، جـاورت المسـتريح وأنفاسـه في كبـد، تحسّسـت خـدّه بالظهـر مـن يدهـا فجبينـه بالبطـن، مـا كان محمومـا، لذلـك انشرحـت تنظـر إليـه نائمـا، مشـفقة عـلى كلّ شـهيق جديـد مـن ذاك الـزكام العنيد، مسـحت عـلى رأسـه مـرّة، كي تعلـق عـلى وجهـه الحبيـب القريـب، إنّ هـذا رفيـق نصـف دربهـا.

عندمـا بلغـت الخامسـة والثلاثـين، كادت تتأكّـد أنهـا سـتمضي البـاقي مـن العمـر كمـا أمضـت الفائـت.. وحدهـا.

والمُتوقَّع لم يزعجها ولا أسفت له أو ساورها ندم حيال قرارات أدّت إليه، كانت مشغولة، دائمة الانشغال بأفكارها، منبهرة مكتفية بعالمها، سعيدة بحريّتها، هانئة بالنافذة العالية التي كانت تطلّ منها على سوق الارتباطات وما يتصاعد منها من دخان كالزوابع لشديد ما يصدر عنها من جلبة وفوضى، ولصرف المشاهدة أحيانا متعة فاتت من هم في رجّة الموقف. فلمّا تبقّى على تمام بناء جدار الأربعين غير لبنة واحدة، تأكّدت من الذي كانت بالأمس على وشك أن تتأكّد منه، وما اغتمّت للأمر إلّا لو كانت اغتمّت له أوّل مرّة، فقد كانت أنفقت تلك السنوات القيّمات من شبابها على ما أحبّت ورأته قيّما صائبا، على تحصيلها العلمي وهواياتها الأدبيّة وميولاتها الفنيّة، فكان حسبها من ذاك الجود أنّها سمعت من قناعاتها وصمّت عن التقليد.

لكنّها الحياة.. أكثر عشوائية من أن تتطلّب امتحاناتها آلة حاسبة، أغرب من أن تستجيب للمنطق طوارئها، وأعجب من أن تصدق التكهّنات حول قادمها، تكفي الرغبة في شيء حتّى الموت حتّى يتبدّد، كما يكفي الزهد في شيء حتّى النوم، حتّى يتجسّد.

الحبّ قد يكون أدبا وأشعارا، ورومانسيّات روايات وأغاني وورودا وشيكولاتة، وأفلاما وأحلاما وأوهاما، لكنّه حتما.. مواقف وبراهين.

«الانتظار».. بولي‌جراف المشاعر.

لا يصمد في قاعة الانتظار إلّا العاشقون، الآخرون يتفرّقون وينتشرون، فلا وقت لديهم ولا صبر لديهم.. هذان عدّة العاشقين.

لا ينتظرك إلّا من تعمّقت فيه، ولا ينصرف عنك إلّا من طفوت على سطحه، ثمّ لا غصت ولا تعمّقت..

والحبّ والانتظار يتعاضدان على الولهان حتّى يريانه من الخيالات والسرابات، ما تتلاشى به الأزمنة وتمّحي به المسافات، كي يغدو أغلب الواقع وهما، ووحدها صورة الحبيب حقّا. إنّه قريب مهما ابتعد، مغفور له مهما جار، سام مهما سفل، مبرّأٌ من كلّ عيب.. مهما نقص.

بشجب حالات الهزل والطمع والمصلحة، من يتّخذ له زوجة هي الأولى والأخيرة امرأة أربعينيّة، إلّا من رجلين اثنين: واحد ذي نظرة عميقة وفكر حرّ جريء، أو آخر أحبّها بقلبه لا بحاجاته.. والحبّ سيّد التّنازل.

عادت إلى الوطن إذن، يسوقانها الشوق عن اليمين وعن اليسار الحنين، قرّرت أنّها ستكون زيارة طويلة، تعود فيها الأهل والأحبّة، وتمكث أسابيعَ، بل تشهد أهلّة.

ما كانت رأته منذ سنوات عديدة، ولا حافظت إبّانها على حياة التواصل بينهما، ما تركت له شيئا إلّا ذكرى صورتها، آمرة إيّاه بذلك أن يجعل لها قبرا منسيّا في ذاكرته.. ويقبرها فيه.

لكـن كيـف.. وكان سـلك بهـا الحـبّ سـبلا وفجاجـا، وانحـدر وانعطـف ومـال وطـار وحـطّ؟

كيـف تجاهلـت مـا بـات في رصيدهـا المعـرفي حقيقـة علميّـة كـدوران الأرض حـول نفسـها وحـول الشـمس، أنّ ذكـرى الصـورة كافيـة لحيـاة الحـبّ؟

يقـول مثـل يونـاني قديـم: «العشّـاق يعيشـون عـلى المـاء البـارد والقبلـة».

لعـلّ ذاك حـال العشّـاق المترفـين، الأقـلّ ترفـا يعيشـون عـلى المـاء البـارد والصـورة.

أمّـا الحـبّ فيعيـش عـلى الأمـل، والأمـل يعيـش عـلى الرجـاء، والرجـاء يعيـش عـلى الأحـلام، والأحـلام تعيـش عـلى الأوهـام.. فالحـبّ إذن يسـتمدّ طاقتـه الـتي يبقـى بهـا عـلى قيـد الحيـاة مـن الأوهـام، ويؤمـن بهـا لأنّـه لا يناديهـا باسـمها أنْ يـا أوهـام، إنّمـا يكنّيهـا بأسـماء دلـع لا تنطفئ بهـا نشـوته. بهـذه الطريقـة تُمنـح أسـباب وتُختلـق أعـذار وتُلفّـق أكاذيـب وتؤلّـف قصـص، وتصطبـغ السـماء بالـوردي بـدل الأزرق وسـحابها بالأصفـر بـدل الرمـادي، وتُصفّـد أجنحـة الطيـور قاطبـة، وهـا هـو المغـروم أو الموهـوم يـضرب بجناحـين مـن جنـون ويضطـرب عـلى فـراغ سـمائه الورديـة عـلى صفـار، حـتى تلـوح لـه حـدود الرقيـع.

هكـذا تقريبـا يعيـش الحـب ولا يختنـق داخـل صنـدوق القلـب المتروك..

كلّ تلك السنوات لم تحقّق شيئا.. كان مرتبكا داخل مركبته، تنتظر زهرته المستلقية على الكرسي بجانبه أن يحسم أمره وأمرها، فإمّا يبقيان في الداخل ويصمتان بعد ذلك إلى الأبد، أو يخرج وبها يقول ما لديه، لمن تكبّدا عناء الطريق حتّى المطار، لا لشيء غير بنيّ عيونها.

شعر بتوتّر الامتحانات المصيرية، بخوف من ردّة فعلها.. ماذا ستقول؟ ماذا سيقول؟ تدرّب كثيرا على ما هيّأه من كلمات منتقيات وحركات راقيات لبقات، ثمّ وقد صار في قلب الحدث، كلّ تلك الباقة المنتخبة بين كلمة وحركة أمست تبدو مثيرة للسخرية، ببعض الحظ يسعفه أقصى ما يمكنها تحصيله من تجاوب.. هو الشفقة.

أدار مفتاح المحرّك بنيّة الفرار بماء الوجه، الوفاء لمن خانك ولو مع الخواء ضعف، كما البقاء على عهد من استبدلك ولو بالهواء ذلّ، احتقر نفسه وكاد أن يهينها: «ألا تسمعين بشيء يدعى الكرامة أنتِ؟»، حينها ردّت عليه بأن خرجت به إلى صورة لمحتها وشبّهتها.. نفس الطول، نفس البنية الجسديّة، نفس المشية، غير أنّ هذه أكثر تعقيدا، امرأة في أناقة سوداء، كأنّها عنوان للرقي بمعطف أنيق، آخر طوله آخر الركبتين، وأوّله يغطّي الرأس بريش يحيط الوجه، بنطلون واسع، حذاء لامع، تحمل على كتفها اليسرى حقيبة كبيرة طويلة الحاملين نسبيّا، مصنوعة من الجلد ومبرقشة بألوان خافتة، وتجرّ باليد اليمنى حقيبة أكبر، كانت تمشي وتبحث بعينيها كأنّها تترقّب مترقّبا، ثمّ فجأة.. توقّفت.

كانـت خطواتهـا السريعـة قلّصـت المسـافة الفاصلـة، أرسـلت قبّعـة معطفهـا إلى الـوراء بيدهـا اليـسرى يلفّهـا قفّـاز أسـود، فتجلّى وجههـا أوحـد مـا خصّتـه منهـا بالبيـاض يحـدق بـه، كان مشرقـا، منتعشـا بالهـواء البـارد، تغـيّرت بمـا مرادفـه تطـوّرت.. امـرأة ناضجـة، جمـال ناضـج.

حان وقت قطاف زهرة أفخم، أيّتها الزهرة المستلقية!

قطـف زهرتـه مـن عـلى كرسـيّها وسـار عازمـا، لا مـتردّدا ولا وجـلا، فلتقـل مـا تشـاء! ولتحكـم عـلى زهرتـه كمـا تريـد! ظلمـا وجـورا، أو عـدلا وإنصافـا! أحبّهـا بصـدق، فـإن تـرى في هـذا مـا لـن يـسرّ خاطـره أن تصارحـه بـه، فهـي حـرّة! ولتعجـب لحالـه ولترثيـه، أو لا تعجـب ولا تشـفق! مـا عـاد يهمّـه أن تتلقّـاه كمـا حلمـت أمانيـه مطـوّلا، إنّـه مقبـل إقبـالا لا يحتمـل إدبـارا، ليقرئهـا سـلاما يعـدّه مدينـا بـه لعودتهـا، ويلقـي عليهـا عـبء ارتقابهـا الـذي حمّلتـه إيـاه مكرهـا مـذ فـرّت، سـيعود خفيفـا منـه، وتعـود بـه جاثمـا عـلى حقيبتهـا جثومـه الأوّل عـلى صـدره، تجـرّه مـع أثقـال متاعهـا!

تجمّـدت رقرقـة الحيـاة عـلى ملامـح وجههـا وتوطّـدت في مكانهـا أشـدّ يبوسـة مـن تمثـال صخـري، تعرّفـت عليـه دون جهـد اسـتذكار، مـا كان مختلفـا عمّـا كان، مـن سـوى شـابّات رأسـه.. اندسّـت بينهـنّ حزمـة متطفّـلات باهتـات.

اسـتقرّ أمامهـا وقاطـع ضـوء عينيهـا بضـوء عينيه، فخـار وذاب جمودها:

-ألا ترجعين عن بعض كلّ هذا الرونق، فأعزّي نفسي في فواتك ويهون عليها فقدك؟ ألا يمضي بك الزمن أنتِ؟ أم أنّك غير النساء والناس؟ متمرّدة حتّى عليه؟ فلا تنحني شارتك ولا تتواضع نضارتك؟

قال ويمدّ الزهرة لها.

قبلتها، قرّبتها من تنشّقها، ابتسمت للحبّ واستسلمت لمراسه:

- ألا ترجع عن بعض كلّ هذا القلب، فترحمني نفسي ولا تقيم عليّ كل أنواع الحدود؟ ألا يمضي بك الزمن أنت؟ أم أنّك غير الرجال والناس؟ جلد حتى عليه؟ فلا مللت ولا تكلّ؟

تهلّل أن تلقّته كما حلمت أمانيه:

- بالمناسبة.. إنّها زهرة الآستر، ها؟

لم تتعجّب.. أدعى إلى العجب من زهرته أنّ جاء بها، صموده وشموخه، ولو أن هذه روح الجبل لا تخفى على أحد.

- لعلّها الريح حملت بذرتها وجابت بها من أرجاء العالم، ثمّ لم تجد لها ربعا من الربوع تأمنه على انفلاقها، خيرا من الأوراس المهيب..

ووقّع الاحتضار على صحيفة الانتظار.

أطفأت آستر نور قنديلها وبقيت جالسة في ظلام لا يكاد يجدي معه نفعا نور البصر، لولا معروف إنارة الطرقات، قيام ليلها إطعام النوافذ الجائعة.

اللّيل مريح للأعصاب..

بوقاره وطول صمته، بسمائه السوداء ونجومها الماسيّة.. ولو صادف أن أنار غرفة الكون بمصباحه الذي يملأ السقف ويغدق الأرض، فتلك ليلة فيها موعد. موعد للمتأمّلين والمتألّمين، للشعراء والعشّاق، للفنّانين والحالمين، للفارّين من أيّام الحياة الخالية من الجمال والهناءة.. ليلة مثلها، منتظرة المفكّرين ومرتقبة المتفكّرين.

يبقى أنّ شهود موعد كهذا قد يتسبّب في غياب مواعيد أخرى، أقلّ رومانسيّة وأكثر جدوى.

الحياة تهوى المقلوب.. الآن تهواه لأنّه يغيظ البشر أم لأنّه طبيعتها، وحده الله يعلم.

عادة لا تسهر كل هذا القدر، أمّا اللّيلة وتنتظرها ندوة الغد التي ما كانت فرغت من التحضير لها عندما اتصلت جوري الصغيرة أبلغتها أنّ جوري الكبيرة تحسّنت، فها هي تعدّ النجوم مستسلمة لسحر الليل مسلّمة أفكارها له يلهو بها، على كلٍّ.. ستتدبّر أمرها، «الحبّ الأفلاطوني» هذا ليس ما تجهل، بعد أن كان يوما موضوع رسالة الدكتوراه خاصّتها، لذلك لا داعي للقلق، سترتجل.

«جـوري الصغـيرة» و«أُحُـد الصغـير».. حـتّى زواجهمـا لـم يعـد عليهمـا بترقيـة مـن ذينـك منصـبي الصغيريـن. جـوري الصغـيرة، أو «زينـة».. بنيّتهـا الـتي لـم تنجبهـا.

بعـد مـرور سـنتين عـلى زواجهـا مـن أوراس دون إنجـاب، اتّخـذت وإيّـاه قـرارا اسـتلهماه مـن صنيـع جـوري..

***

فقـط ٧ ملايـين طفـل تتـمّ رعايتهـم مـن بـين ١٥٣ مليـون يتيـم حـول العالم.

أكثر من ١٥٪ من الأيتام ينتحرون قبل سنّ الرّشد.

٦٠٪ مـن الفتيـات اليتيمـات يتّجهـن للبغـاء وأكـثر مـن ٧٠٪ مـن الفتيـان يصبحـون مجرمـين.

١،٢ مليون يتيم يتمّ اختطافهم كلّ سنة.

- عن مبادرة «رفقاء» القطرية الخيرية للأيتام-

بغـضّ النظـر عـن أنّهـم إثـم مَـن؟ مِـن البـشر، أو جـرم مَـن؟ مِـن الخطـوب..

مسؤوليّة من؟ هؤلاء الأطفال.

مسـؤوليّة مجتمـع تكاثـريّ بامتيـاز؟ فيـه كلّ فـرد لا يقنـع بأقـلّ مـن ثـلاث أو أربـع نسـخ عنـه؟ فـلا مـكان بعدهـا لمـن يسـمّيه

«غير ولدك»، على أنّه «يا مربي في غير ولدك يا باني في غير ملكك».

المنطق المادّي السخيف.. لأنّ الإنسان والجدار شيء واحد.

ما الذي حصل حتّى انقلبت الموازين كل هذا الانقلاب؟

الأمّة الإسلامية الموعودة بالجنّة مقابل طفل واحد مكفول تتّخذ هذه الفضيلة مهجورة، عندما تتبنّاها الدول الغربية ويتهافت عليها مشاهيرهم قبل مواطنيهم حسبهم منها أنّها عمل إنسانيّ.

الخطأ عندنا في المفاهيم..

سموّ الأمومة يتخطّى استدارة البطن واتساع عنق الرحم، كما هناك فرق بين صرف علاقة جنسيّة أثمرت ورفعة الأبوّة، لأنّ الأمومة والأبوّة في الحقيقة تنشئة قبل أن تكون محض إنشاء.

الجميع مستغرقون في استدعاء أطفال جدد، فيمنحهم الإطلال على مهودهم نشوة انعكاس صورهم، دونما أدنى مبالاة بأطفال بلا سند تعجّ بأسرّتهم وتضجّ ببكائهم الملاجئ. لماذا لا يمكننا أن نحبّ ببساطة.. دون أن ننتظر على الدوام شيئا بالمقابل؟

لماذا لا يمكننا أن نحبّ طفلا إلّا لو كان يحمل لقبنا وجيناتنا وصورتنا وزمرتنا الدموية أيضا ربما؟

ثمّ بهذا المنطق، فالإنسان يحبّ نفسه لا أبناءه، لأنّ

الحبّ الحقيقي حبّ غير مشروط ولا ببنود منوط. والغريب أنّهم يتشبّثون بشكليّات قد تفلتهم.. أليس الرجل يحبّ ابنه وما حمله ولا وضعه؟ وهنا الخطاب موجّه للمرأة، والمرأة تحبّ ابنها حتّى وهو ليس فيه منها شيء من شبه أو غيره؟ والخطاب هنا نخصّ به الرّجل.. هل كلّ ما يسعى إليه الرجل من خلف الخلفة إذن أن يطمئنّ بأنّ هذا الذي ينمو من خيره يحمل جيناته؟ وكلّ ما تبغي المرأة منها أن تتأكّد بأنّ هذا الذي ينمو، ينمو داخلها وسيخرج منها؟.. لماذا كلّ هذا التشبّث بالمادّة؟ كلّ هذا التقديس لِـ «حمأ مسنون»؟ فهذه المادّة للتّذكير لا تلبث تحت الأرض زمنا يستحق تقديسها وتضمحلّ، كي لا تبقى من الجينات والصور والزمر الدموية غير الأرواح، فلماذا لا ينزل الأيتام على الأسر كأبناء للأرواح؟ وعندها قد يُفضّلون على أبناء الجسد، بما أنّ الرّوح من السماء وإليها فيما الجسد يبتدئ نجاسة وينتهي دودا.. لقد آن للعقول أن تنفض الغبار عن زرابيها.

من حقّ كلّ إنسان أن يتكاثر لو قادر وراغب، ولكنّه بات واجبا على كلّ إنسان أن يفكّر ببعض المسؤولية وكلّ الجدية عندما يتعلّق الأمر بمزيد من التكاثر.

لن تنجم أضرارعن شجب مشروع إنجاب ثالث مثلا، بل لعلّ تحديد النّسل في المجتمعات السائرة في طريق النّمو أمر محمود أو صار لا بدّ منه، إذ لا يمكنها احتواء أزماتها والحدّ منها وهي تتكاثر بلا ضبط ولا وعي، في هذه الحالة رقّع من هنا يتمزّق من هنا وهناك! لمّا كفى به إنجازا

إنقـاذ طفـل وحيـد ومحـروم. ثـمّ الأطفـال بـلا مـأوى ثـروة مهـدورة، والمنطـق يمـلي أن لـو مائـدة مترعـة رزقـا طيّبـا بـين اليديـن، فـالأوْلى إكـرام النعمـة واسـتعمالها بـدل نبذهـا خلـف الظهـر أو كبّهـا في الزبالـة واسـتقدام مائـدة أخـرى. لا تسـعد بنفسـك يـوم تشـتري جديـدا برّاقـا، إنّمـا يـوم تصلـح مهمـلا أقـدم، وتلمّعـه.. رأس العطـاء ليـس أن تكـرم امتـداد نفسـك في أجسـاد صغـيرة أخـرى، إنّمـا أن تلتقـط طفـلا مـن جانـب قمامـة، مـن تحـت جـسر أو سـوط، وتمنحـه بيتـا وحبّـا وعطفـا وعائلـة، عندهـا كلّ لقمـة، كلّ بسـمة، كلّ مسـحة، سـتصبّ في صنـدوق احتيـاط وتوفـير خـاصّ بـك ومـن نـوع خـاصّ.. نِعـم الاسـتثمار ذاك الـذي يعـدّ مـا أعطيـت، لا مـا لـم تعـط.

يقولـون إن الإنجـاب هـو منـح الحيـاة -بمرّهـا قبـل حلوهـا- وقياسـا عـلى ذلـك فـإنّ كفالـة يتيـم هي منـح حيـاة للحيـاة.

في الذكـرى الثانيـة لوفـاة أُحُـد، شـعرت جـوري بـأنّ نصيـب زوجهـا المتـوفّى مـن قلبهـا حـبّ متوهّـج ميـؤوس مـن أن يخفـت، حبّـا يفجّـر قلبهـا كلّ يـوم مـرّة عـلى الأقـلّ دون أن يـودي بحياتها ويخلّصهـا، فاهتـدت إلى أنّ الخـلاص قـد تجـده في سـبل الخـير لـو تسـيرها وأبوابـه لـو تطرقهـا والأشـقياء والبائسـين لـو تبـذل لهـم ولا تدّخـر.

لـم تكـن عاملـة، ليـس اختيـارا للبطالـة إنّمـا حصـارا منهـا، والفـراغ وقبعـة البيـت لا يسـلّيان الإنسـان عـن همومـه، بـل يقدّمانـه لغولهـا في ماعـون يفتـح الشـهيّة عليـه.

الفـراغ داء أقـرب إسـقاط لـه عـلى معلـم الأدواء الجسـديّة مـرض نقـص المناعـة المكتسـبة، فهـذا الأخـير يصنـع مـن الجسـد المصـاب بـه أسـهل طريـدة للفيروسـات الأخـرى. ثـمّ كمـا أنّ لـلأرض محـورا وهميّـا تـدور حولـه، بالمثـل حيـاة الإنسـان بحاجـة إلى محـور حقيقـي تحـوم حولـه، لأنّ العيـش دون اهتمامـات يلقـي بالإنسـان عـلى هامـش الحيـاة، كمـا يتطهّر البحـر مـن خفائـف الأغـراض عـلى سـواحله.

فـإذا كنّـا غـير قادريـن عـلى أن نشـغل أنفسـنا بمـا يعـود علينـا بمنفعـة حسـيّة، فلـمَ لا نشـغلها بمـا يعـود علينـا بمنفعـة وجدانيّـة وعـلى الآخريـن بمنفعـة حسـيّة؟

انخرطـت جـوري في جمعيّـة لحمايـة الطفولـة والشـيخوخة، أيـن اسـتطاعت أخـيرا أن تـصرف الفائـض مـن طاقـة الشـباب والحـب الـتي كانـت داخلهـا كتسـونامي جائـر لا يلبـث يطغـى عـلى نفسـيّتها ومزاجهـا، نحـو سـدود وآبـار جافّـة، والفيزيـاء تقـرّ بـأنّ جسـما يعـاني فرطـا في الشـحنات بحاجـة إلى جسـم يشـكو نقصـا كي يسـتقرّ المزيـد والمنقـوص.

في يـوم ذي باكـورة عاديـة لا توحـي بـأنّ مسـتجدّا في طريقـه إلى حياتهـا بعجـلات مسـتعجلات ليحـدث فرقـا عـلى المديـين القريـب والبعيـد، مضـت جـوري إلى أعمالهـا التطوّعيّـة بقلـب منـشرح انشراحـا لا يعرفـه سـوى أصحـاب الأيـادي البيضـاء بعـد أنّهـم زرعـوا بسـمة، أو اقتلعـوا شـوكة. ولعلّهـا شـعرت بإضـافيّ مـن الانـشراح طفـح صدرهـا، إحسـاس غريـب كحـدس قـوي أنّهـا اليـوم سـتلقى مـا يسرّهـا، وتعـود ظافـرة.

إسهامها في الجمعيّة كان يتمثّل في أنّها كانت تعطي دروسا للدعم لتلاميذ ينتسبون إلى فئة الطفولة المسعفة، مضافا إليهم عددا من التلاميذ المنحدرين عن عائلات فقيرة، وكان ما تقدّمه في حصّتها أقرب إلى المراجعات العامّة ودروس تحسين المستوى العام من كونه دروسا خاصّة بمادّة أو مقيّدة بمنهاج، وذلك مراعاة لتفاوت أعمار التلاميذ وبالتالي اختلاف مستوياتهم. كانت تركّز على القراءة والكتابة، تحرص على ألّا يتعثّر قارئ في قراءته، ولا يزلّ كاتب في إملائها، كما كانت تخصّص بعض الوقت لأبجديّات الحساب كالأرقام والعمليّات الحسابية الأربع ومسائل بسيطة كانت تعدّها ضروريّة لتنمية فطنة الطفل وتهيئته لعالم المعاملات الحسابية بأنواعها من بيع وشراء وغيرهما، فالرياضيات لا غنى عنها في الحياة، ثمّ في الأخير لو يسمح الوقت، يقرؤون جميعا دعاء تهديه إلى روح زوجها وكلّها بشر بالاستجابة، ما داموا ملائكة أولئك الذين كانوا يؤمّنون.

لمّا صارت هناك وسارت إلى القسم، تصادفت مع زميلة لها مهمّتها قراءة القصص والحكايات لأطفال الروضة، وهي تأخذ بيد طفل صغير لا يخمّن مخمّن بشأن سنّه أنّه قد يتجاوز الأربع سنوات، وتمشي به في اتجاه ينتهي بمتّبعه عند مكتب الإدارة، لا غير.

توقّفت لها جوري حيّتها بعد أن أثار فضولَها أمرُ السائقة والمسوق وذلك الاتّجاه، فسألتها إن كان هناك خطب ما وإلى أين، هناك أطلعتها تلك أنّها شبه متأكّدة أنّ الطفل

يعاني من اضطراب ما خلف حركيّته الزائدة عن الحدّ على حدّ قولها، لذا الأحسن له والآمن للأطفال الآخرين والأريح لها أن تنظر الإدارة في أمره، وستنصح بنقله إلى جهة أكثر اختصاصا لها أن تتعامل مع مثل هذه الحالات.

وبينما حُلّت عقدة من لسان زميلتها واسترسلت في الحديث عن خبرتها بالأطفال التي أكسبتها إحاطة بخبايا أنفسهم الصغيرة من خلال سلوكاتهم عدائيّة كانت أم مسالمة، كانت جوري تتأمّل الطفل، هي ما كانت لديها مثل تلك الخبرة، لكنّها كانت تمتلك إحساسا قويّا ونظرة جارحة تخترق ظاهر الأمور، فما رأت في وقوفه المذعن بيده داخل يد الأخرى وعبثه بقدمه في حركات طفوليّة بحتة ما ينمّ عن طفل له احتياجات خاصّة، ولو أنّه كان عاجزا عن التعبير عمّا يختلج في نفسه، فنظراته الحزينة كانت صفحة ماء صافية تعكس دوّامات عنيفة تتخبّط فيها روحه الصغيرة الضعيفة، حدّ التيه.

لم يكن طفلا مضطربا، لقد كان طفلا حزينا ببساطة.

ترجّتها جوري أن تفوّض أمره إليها كأوّل إجراء قبل إقحام الإدارة وتعظيم أمر لعلّه أبسط من ذلك، ناشدتها أن تسمح لها به ينزل ضيفا على حصّتها وبعدها تنظران، وزادتها لإقناعها وصرفها عمّا مقدمة على فعله، أنّها بحاجة إلى رأي من جنس رأيها صادر عن شخص غيرها تعزّز به النتيجة التي توصّلت إليها وتحوز به على معتبر من المصداقيّة. فأقنعت حجّة جوري وتنازلت المربّية، وانتقلت يد «أيّوب»

إلى يدها، وصار يسير رفقتها في الاتّجاه المعاكس للذي كان يسير فيه قبل يسير.

وهكذا القدر، همسه زوبعة تقلب الحياة رأسا على عقب.

أعطته ورقة مزّقتها من كرّاستها التي تسجّل عليها ملاحظات متابعتها للأطفال، مع كلّ أقلامها الملوّنة استلّتها له من أغطيتها الواحد تلو الآخر، ثمّ بطريقة تغري فضول الأطفال سألته أنّه لو رسم رسمة جميلة فله بها هديّة، وكانت تلك زلفى الهديّة وُصلتها في التعامل مع الأطفال، خاصّة لتقويم سلوك من هم أصعب مراسا بدل سياسة الضرب والتخويف والإهانة والإقصاء، هذه ما كانت تعتقد بأنّها قد تجدي نفعا كأن تصلح أو ترقّع، بالعكس لطالما عدّتها كزيادة الطين بلّة، وقد تُفقد إلى الأبد ما كان من الممكن جدّا كسبه إلى الأبد.

ألم تكن الشمس آخر من ضحك بعد رهانها مع الريح على معطف رابض على ظهر رجل، من منهما تنزله؟ فكانت الكلمة الأخيرة لرفق الدفء دون عنف الهبيب.

العنف ليس آخر الحلول، العنف ليس حلّا أبدا.

بعد انتهاء الحصّة خرجت جوري من القسم بالطفل وبنتيجة مضادّة لنتيجة المدّعية، أنّه لو يعاني ويرهق فلأنّه دخيل على ذاك قسم الروضة، ومشكلته أميل إلى كونها نبوغا من كونها اضطرابا، ما حاولت بشتّى الأساليب أن تشرحه لزميلتها، من سوى أنّ تلك اعتذرت أنّها ما عادت

قـادرة عـلى مجـاراة جموحـه، وأنّـه وحـده يتطلّـب منهـا مثلمـا يتطلّـب كلّ البقيّـة مـن مجهـود حـرص وحراسـة، الأمـر الـذي كاد يتسـبّب لهـا في ورطـة يـوم انشـغلت بـه فسـهت عـن طفـل آخـر ولـم تنتبـه لـه وهـو يخـرج مـن الغرفـة لـولا أن عـاد بـه متطـوّع مثلهمـا وحذّرهـا مـن عواقـب السـهو عليهـا وعـلى الجمعيـة، لذلـك تقـدّر أيّوبـا مسـؤوليّة أثقـل مـن طاقتهـا، وإنّمـا هـي تطلـب تحويلـه حرصـا عليـه ولمصلحتـه، وإلّا فمـاذا تجـني هـي مـن كلّ هـذا؟ إنْ أجرهـا إلّا عـلى الله.

أطرقـت جـوري ثـمّ طأطـأت رأسـها أسـفا أنّـه غـير مسـموح لهـا بنقلـه نهائيّـا إلى قسـمها ولا نجحـت في إبقائـه عـلى مقربـة، وأكـثر مـن الأسـف قلقـا عـلى مصـير الصغـير، هـي مـن أعلـم النـاس بهـذه الحيـاة إلى أيّـة درجـة قـد لا ترحـم، هـي مـن أعلـم النـاس بحـدود لؤمهـا.. أنّـه لا حـدود لـه.

كيـف تبـلي ذرّتـه عـلى سـهل عالـم لا يقـلّ تعقيـده ضراوة عـن قسـوة الحيـاة؟ بـدءا بوالديـن يحمّـلان رضيعهمـا جرمهمـا ويفـرّان، تاركـين لـه عارهمـا ولا لقـب.. إلّا لقـب لقيـط.

غـير ملومـة مربّيـة غريبـة لـو ضاقـت بـه ذرعـا عندمـا أوّل مـن طـرده بعيـدا عـن حضنـه.. أمّـه، ثـمّ أبـوه.

لكنّ الحياة بخير ما دامت لن تُعدم القلوب الرحيمة..

حوّلـوه أم أبقـوه، في الحالتـين لـن تكـون الحيـاة التي يسـتحقّها طفـل طاهـر جُـرّ إلى هـذا العالـم العفـن جرّا!

ولحظـة ذروة جنـون أم لحظـة قمّـة عقـل لـم تـدر كثـيرا، غـير أنّهـا في اللّحظـة التاليـة مبـاشرة كانـت تحملـه وتسـأل عـن إجـراءات الكفـل.

ولأنّهـا معروفـة الجميـع هنـاك وأمينتهـم، مـا سُـئلت عـن غـير مصـدر رزقهـا، فلمّـا أعلمـت بأنّهـا تعيـش عـلى دخـل زوجهـا الرّاحـل، يُحـوّل إليهـا كلّ شـهر مـن فرنسـا، مُنِحتـه والإذن باصطحابـه عـلى الفـور، في انتظـار أن تجهـز الوثائـق القانونيّـة الـتي تضمـن حقوقهـا كوصيّـة شرعيّـة عليـه.

عـادت بـه إلى بيتهـم نائمـا، يتوسّـد رأسـه كتفهـا، فأهلهـا تعجّبـوا لكنّهـم لاحقـا بعـد أن زال عنهـم الشـده رحّبـوا، وأخذته إلى غرفتهـا، ووضعتـه عـلى سريرهـا، وجلسـت إلى جانبـه تتأمّلـه، سـعيدة بدخولـه المفاجـئ حياتهـا، قريـرة العـين أن ظفـرت بـه كمـا اسـتبشرت.

ومنذ تلك اللّيلة لم يعد هناك من أيّوب، ولكن.. «أُحُد».

وكمـا للـشر نحسـه فـإنّ للخـير بركتـه، وهكـذا بمجـرّد مـا ضمّـت جـوري أُحُـدا الصغـير تحـت جناحهـا، كأنّـه فتـحٌ مـن الله نـزل بسـاحتها، فجاءهـا ذات مسـاء شـهاب -وكان موظّفـا في مديريّـة الثقافـة- بمنصـب عمـل قـال إنّـه مسـتحدث وبـدوام جـزئي، الأمـر الـذي وقـع عـلى مشـيئتها كشربـة عسـل عـلى حلـق متقـرّح، فالوظائـف ذات الـدوام الكامـل تمتـصّ الأيـام كمـا تتـشرّب الإسـفنجة المـاء، ولا تُبقـي للإنسـان مـن وقتـه إلّا مـا يُـزدرى، هـي الـتي أضحـت مسـؤولة عـن طفـل صغـير فبأمـسّ

الحاجة إلى الوقت، ولو أنّه من الأساس، هل للإنسان من رأس مال أثمن من وقته؟ أو بتعبير أدقّ.. هل الإنسان إلّا وقته؟

فأصبحت إذن تعمل في الفترة الصباحيّة من الساعة التاسعة وحتّى الواحدة، كمرشدة سياحيّة لمنطقة أثريّة، وزاد شغفها بعملها الجديد يوم اكتشفت أنّ كلّ الآثار التي هي معنيّة بتعريفها والسرد عنها ما هي إلّا آثار رومانيّة، هي الحاصلة على ماجستير تخصص فلسفة رومانية، أيّ عمل من شأنه ملاءمتها أكثر؟ فشعرت تلك السمكة بأنّها ألقيت في البحر من جديد، بعد سنوات الحوض.

ومن ثَمّ..

جسد الزمن كأجساد البشر وحده الخمول يُثقله، بينما يفقد من وزنه بسهولة فيخفّ.. لمّا يهرول به صاحبه.

***

نام الأوّل فأستيقظ أوراس هو الأوّل، توضّأ للصلاة، ثمّ أيقظ آستر فقامت متعبة، هي التي وقع اختيار شهريار الأرق على خواطرها في تلك الليلة الفارطة، أن يكنّ شهرزاداته.

لا أجمل من بداية اليوم إلّا نهايته.. يظهر كأنّ الدنيا تتجدّد مع مطلع كلّ يوم جديد، تماما كما تنبعث الأجساد

مـن مراقدهـا، وقـد نسـيت عنـاء اليـوم المنـصرم.

كانـت لديهـا ندوتهـا وهـو كالعـادة لديـه أرضـه، تلـك الوحيـدة الـتي كانـت تشـعر بأنّهـا تنازعهـا مكانتهـا عـلى قلبـه.. هـل يمكـن أن يتعلّـق رجـل إلى هـذه الدرجـة بقطعـة أرض كمـا لـو كانـت قطعـة مـن حسـن في قالـب امـرأة؟

عندمـا يكـون رجـلا بمعـنى إنسـانا فـإنّ التعدّديـة الفكريـة تـورّث تعدديـة عاطفيـة.

في الحقيقـة لـم تـأذن الأقـدار الماضيـات بظعـن آسـتر صـوب أراضي المملكـة العربيّـة السـعوديّة، فخابـت خيبـة مـن جنـس خيبـة نيـل، هـي الـتي ظلّـت بعـد العمـرة تـردّد أن كلّ مـدن العالـم مدينـة إلّا المدينـة المنـورة. لحسـن الحـظّ لـم تستسـلم وسـخّرت اسـتعار الخيبـات لاسـتواء الملَـكات، ولأنّـه «مـن الجـرح يولـد الأدب» كمـا تقـول أحـلام مسـتغانمي، فـإنّ المثابـرة لـم تسـتغرق مـا يقـرب الانتظـار وتكلّلـت همّتهـا برحلـة إلى أرض الكنانـة ضمـن بعثـة ثقافيـة، بعـد أن باضتهـا قصّـة حبّهـا لنيـل عـلى سـماء الإبـداع الكلمـي نجمـة قطبيّـة.. أو نجمـة أدبيّـة. وهـي «بـشرة خـير» فعـلا أن تـشرق شـمس الانطـلاق مـن أمّ الدّنيـا وبلـد الأدبـاء، فحظيـت بنجـاح لـم تحلـم بـه أشـدّ أحلامهـا إسـكارا عـلى تلـك الأرض الخـيّرة الطيّبـة ووسـط شـعب لسـانه مـن شـهد وقلبـه مـن إيمـان، ولـو أنّهـا انتـوت أن تظـلّ هنـاك طـول العمـر تسـمع مـن خفـرع تـارة وتلـوّح لمنقـرع مـرّة وتُكْـبِر خوفـو أخـرى ثـمّ تدنـو مـن نيـل يشـطف بحنـوّ جمالـه وهيبـة امتـداده إجحـاف أوّل نيـل، فـإنّ الأقـدار تدخّلـت ثانيـة

ونصبت أوراسا منعطفا مباغتا، كي يغيّر مشاريعها وينحرف له خط حياتها. ومن هناك تأثّثت عودتها بزواجها فعودتها إلى الدراسة فكفالة جوري الصغيرة. وكانت أشارت على جوري بأن تتقدّم معها لمسابقة الدكتوراه بملفّ ترشّح، خاصّة وأنّ أُحُدا الصغير ما عاد صغيرا، غير أنّ تلك استسمحتها أنّ هذا المشروع بالنسبة لها مات في فرنسا مع بقيّة المشاريع الفرنسيّة، يوم مات أُحُد.

وضعت إبريق الشاي على النار، وجلست تنتظر أن تموج البحار داخله بلون أخضر زيتي وقد طفت الطحالب على سطحها المحتدم وتصاعدت عنه أبخرة عشبية عطرة.

لا أجمل من نهاية الشتاء إلّا نهاية الصيف، فلا أحلى من الربيع إلّا الخريف..

لأيّام الخريف نكهة خاصّة، مذاق لا قاعديّ ولا حامضيّ، حضور بعيد عن التطرف، سماء تصمّ أذناها بسحبها عن ثرثرة لهيب الشمس.. والشمس لا تحبّ الخريف، فهو دائما من يوقعها عن عرشها كي يجلس عليه ويأمر بخطّة بديلة، لا مزيد من الصحاري، المهمّة الجديدة للسماء هي.. الماء!

أن يتوقّف الحبّ عن إيلامنا لا يعني أنّنا تصالحنا معه.

بعد الكوارث الطبيعيّة يعمّ الهدوء، هدوء هو أكثر هدوءا من أي هدوء يعقب هدوء..

لكنّ الخراب ناطق صامت.. وشاهد حاضر.

إنّنا نتعوّد، لا ننسى..

ونتقبّل، لا نقبل..

وليس قبل كمال إعراض.. نزهد.

كما يقولون، الحبّ شيء والنصيب شيء آخر.. في نفس الوقت، لا تجفّ آبار الحبّ لحرارة النّصيب بالضّرورة، كما لا يضمن فأس النّصيب أن يفجّر عيون الحبّ.

إنّ هناك فرقا.. فرقا شاسعا بين ما نعتقد وما نشعر..

ليست كلّ معتقداتنا تحظى بمباركة مشاعرنا، ولا كلّ مشاعرنا تنعم برضا قناعاتنا..

بحسب الظروف تكون الغلبة لإحدى الطائفتين منّا..

السلام حلم بعيد المنال عن مضامينا.

تعرّج امرأة على متجر للأحذية، تريد أن تبتاع لها واحدا.

هناك أشكال كثيرة، كثيرة جدّا.. وألوان أكثر.

والعين فطريّا تثب على الأشكال المعقّدة والألوان الصاخبة، تفضّلها وتشتهيها..

بين غنج حذاء مدبّب ذي كعب عال وفتور حذاء رياضي، الاختيار السطحي لا يكاد يتطلّب شيئا من تفكير.

ولكن..

بـين متعـة لحظيّـة وراحـة دائمـة، الاختيـار المتوغّـل.. لا يتطلّـب شـيئا مـن تفكـير.

تبتـاع لأنّهـا تفكّـر الحـذاء الريـاضي.. إلّا أنّ اشـتهاء الحـذاء الفاتـن، يبقـى في القلـب.

أوراس فكرها، نيل كان قلبها.

وهـي تعتـبر نفسـها محظوظـة حـظ الناجـين مـن سـفينة التايتانـك أنّهـا تحقّـق فكرهـا، رغمـا عنهـا وعـن قلبهـا..

الحـب رائـع فقـط لـو وافـق منطقنـا، وعـدا ذلـك فإنّـه يجتاحنا بنيّـة الإبـادة، والقـوّة أن تتغلّـب بمنطـق فكـرك عـلى عبثيّـة شـعورك، بعـد ذلـك أن يتجـاوز قلبـك أو لا يتجـاوز، أمـر لـن يشـغل تفكـيرك لا كثـيرا ولا طويـلا.. مـا دمـت تجـاوزت أنـت، فموكـب الحيـاة اسـتأنف المسـير.

أتى أوراس لأجـل أن يفطـرا سـويّة كالعـادة قبـل أن ينتـشرا كلّ منهمـا إلى مشـاغله، سـكبت لهمـا كوبـين مـن الشـاي وأغرقـت في كلّ كـوب حجريـن مـن السـكر تركتهمـا ينصهـران، انصهـار أوراس في حركاتهـا.

لقـد عـاش معهـا حيـاة تربـت لهـا يـداه، مـا راوده شـبح شـكّ خـلال سـنواتها لثانيـة، أنّهـا انتهـت مـن تلـك القبلـة القديمـة وولّـت وجـه قلبهـا شـطر وجـه قلبـه، فحـلال زلال كل دينـار انتظـار وكل درهـم شـوق أنفقهـا في سـبيلها يومـا.

مسافات فلكيّة تلك التي بين المظاهر وحقائق الأمور.

الحيـاة ضيّقـة، والنـاس بضيـق أفكارهـم وانحصـار عقولهـم يزيدونهـا ضيقـا إلى ضيقهـا وانحصـارا عـلى انحصارهـا.. مـن قـال بـأنّ للـزواج تاريخـا يستحسـن اسـتهلاكه قبلـه؟

لأن تـتزوّج في السّـبعين مـن زوج في الثّمانـين، تعيشـان يـوم مـودّة واحـد ثـمّ تموتـان سـوية خـير مـن زيجـة عمرهـا نصـف قـرن.. مـن الهـمّ والغـمّ.

مـن قـال بـأنّ الغـرض الوحيـد والأوحـد مـن وراء هـذا الميثاق الغليـظ والرابطـة الأكـثر قدسـية عـلى الإطـلاق هـو التناسـل لا غـير؟ مـاذا عـن الاسـتقرار النفـسي؟

الـزواج السـعيد هـو الذي يجعلك تشـفق عـلى أيّـام العزوبيّة، لا تحـنّ إليهـا.. تشـعر بالازدهـار، لا بالتقهقـر.. بأنّـك في أحسـن حالاتـك، لا كان مـن الممكـن أن تكـون أفضـل.

كُل طيّبا وإلّا املأ معدتك ماء واضطجع.

غـادر أوراس قبلهـا متّجهـا نحـو روضتـه الـتي صيّرهـا بتفانيـه وإحسـانه غنّـاء، وقـد انضـمّ إليـه صهـره أُحُـد منـذ سـنوات الآن، مـن قبـل أن يصـير صهـره حـتّى.

واسـتقلّت آسـتر الحافلـة للـنزول إلى المدينـة، فالنـدوة مقرّهـا الجامعـة، ولقـد كان في وسـعها أن تسـتعير سـيّارة زوجهـا كـون سـيّارتها تربـض عنـد الميكانيـكي منـذ أيّـام، غـير أنّهـا وجدتهـا فرصـة مناسـبة كي تعاودهـا الذكريـات المليحـات أيّـام الحافـلات، حـين كانـت تركبهـا لنفـس الوجهـة لكـن بصفتهـا

طالبـة، لا أسـتاذة محـاضرة.

***

الحياة قصيرة.. لكنها طويلة أيضا.

أقـصر مـن أن تحتمـل مشـاريع جـادّة، أطـول مـن ألا تثقـل عـلى متنهـا الروتينيّـات..

إنّهـا لا تبـدو طويلـة إلّا في مواجهـة الروتينيّـات، كمـا لا تبـدو جميلـة إلّا نـادرا..

لكلّ بداية نهاية..

لكلّ قصّة، لكل غصّة..

لكلّ أمنية، لكلّ أغنية

لكلّ يوم.. لكلّ عمر.

كانـت جـوري جالسـة عـلى كرسـيّها، يـروح ويجـيء بهـا في مواجهـة المطـر يشـطف بـإصرار وجـه الأرض وتتنـدّى لـه روح الجـوّ.

غريـب أن تنظـر فجـأة إلى هـذه الدنيـا الـتي اسـتيقظت عليهـا ولا تعـرف غيرهـا ومكثـت فيهـا مـن عمـرك، كلّ عمـرك..

ونمَـوْت ونمّيـت وحلمـت وشـيّدت ورجـوت وخشـيت وعاهدت ووفيـت وأقسـمت ونكثـت وصدقـت وكذبـت وتبـت وعـدت

وعـدت تبـت...

وناضلـت واستسـلمت وجـسرت وجبنـت وقعـدت وقمـت وأكلت وجعـت وأحببـت وأبغضـت وعفـوت وانتقمـت وانتظـرت ونلـت ومـا نلـت و...

غريـب أن تنظـر إليهـا نظـر مـن فـرغ مـن أشـغاله فجـأة عليهـا.

غريـب أن تنظـر إليـك بنظـرة مـن أحالـك إلى التقاعـد واسـتغنى عـن كلّ خدماتك.

غريـب أن تشـعر أنّ الأيّـام تلـك الـتي كنـت تبسـط يـدك كلّ البسـط في إنفاقهـا.. أنّهـا فجـأة صـارت ثمينـة.

غريـب أن تشـعر أنّ شـمس الأصيـل تطـير بـك!.. نحـو المغيـب.

غريب.. أن يلوح الشفق الأحمر.

أجندتها لا تفارقها، وقلمها لا يفارق أجندتها..

المذكّـرات هـي كلّ مـا ننجـو بـه دليـلا عـلى أنّنـا كنّـا فعـلا، وكانـت تلـك الأيّـام وكانـت تلـك الأحـداث، وأنّـه كلّ ذاك، لا.. لـم يكـن حلمـا، ولا كان سرابـا.

حياتنا لن تحظى بمؤرّخين أبرع منّا.

أفـكار وذكريـات عصفـت ببالهـا واهتاجـت لهـا عواطفهـا، فأثـارت والمطـر فيهـا حالـة كزوبعـة نفسـيّة تتطايـر لها الأشـجان

كما كانت لتلك عاصفة الخريف تتطاير الأوراق من الأشجار..

الحياة كالرواية.

يوم تشرع فيها يبدو لك كأنّك لن تنتهي منها عمّا قريب..

ثمّ يوم توشك على أن تنتهي منها، يبدو لك كأنّك ما عبرتها يوما، ولا اتّصلت أخبارك بأخبار أبطالها، ولا خضت في مغامراتها، وأنّها المسافة بين أوّل يوم وآخر يوم.. لا تعظم عن يوم.

ما دام القدر لا يخطئ، فهل كان خطئي؟ أم كان خطؤك الذي أدّى إلى كلّ هذا الفراق؟

أم أنّ الفواجع لا تنجم بالضرورة عن أخطاء.. حبيبي؟

لعلّه كان حلما، مجرّد حلم أملاه يأس مذعور كما أكّد الجميع، ولكنّني عشت طوال السنوات الماضيات

أرعى حروق الصبر بدهن ذكراه، وفي قلبي صوت يهمس تحت الهمس بشعور أقوى من جلجلة الرّعد.. أنّه كان حقّا.

أمّا الخيال أثير القلب، فكم تخيّلتُ..

كنتُ أتخيّل بأنّنا سنمضي في شبابنا حتّى يسلّمنا لكهولتنا حتّى تسلّمنا لشيخوختنا، وكلّ ذاك نشهده سويّة..

كنتُ أتخيّل بأنّنا سنصوم معا أعواما عديدة ونخرج معا للعيد، فألقاك عند باب المسجد بانتظاري بقميص ناصع وتهنئة حلوة كطعم أوّل قطعة من الكعك بعد شهر من

الصّـوم..

كنـت أتخيّـل بأنّنـا سـنقصد البحـر كلّ صيـف، بأنّـك سـتعلّمني السـباحة، ثـمّ تنصـب لنـا مظلّـة كبـيرة نجلـس تحتهـا ريثمـا ننهـي وجبـة صغـيرة..

كنـت أتخيّـل بأنّـني سأسـمع العواصـف يهـدّدن سـكون الليـل وأشـعر بالأمـان، فتحـت خـدّي وسـادتك وفـوق كلّي غطـاؤك، ومسـند إلى ظهـري.. ظهـرك.

كنـت أتخيّـل بأنّـني سـآكل مـن صحنـك وتـشرب مـن كأسي، بأنّنـا سـنراجع الفلسـفة ونلعـب الشّـطرنج..

كنـت أتخيّـل بأنّنـا سنتشـاجر كثـيرا ونتصالـح أكـثر، بأنّنـا سـنختلف أوّلا ونتّفـق أخـيرا، بأنّـك سـتجعلني أسـوق السّـيارة وأجعلـك تقـلي البطاطـا، بأنّـك سـتتذكّر عيـد زواجنـا كلّ سـنة وأرتّـب ربطـة عنقـك كلّ صبـاح، بأنّنـا بنفـس الإنـاء مـن الفشـار بيننـا سنشـاهد فيلمـا كلّ أسـبوع، وبسـبابتك سـأعدّ النّجـوم كلّ ليلـة.. بأنّنـا سـنبني ميتمـا، كمـا حلمنـا.

كنـت أتخيّـل بأنّـك سـتغفو عـلى فخـذي وتحـت تهويـدتي وأبـكي عـلى صـدرك فـوق حجـم تكـدّري، بأنّـك سـتكون صديقـي الحميـم قبـل أن تكـون زوجـي، وبأنّـك سـتظلّ حبيـبي فـوق أنّـك صرت قريـبي..

كنت أتخيّل.. وما كان شيء من خيالي.

لقـد كنـتَ في حيـاتي بمثابـة الحلـم الوردي مـن الليلة السـوداء،

بمثابة لحظة ابتسام من يوم عابس، أو كرشّة عطر في قلب ذفر، لا أدري.. ربّما كان عليّ أن أدري بأنّ الأزواج لا يبقون سويّة إلّا لو انتوى الأوّل استنزاف جسد الثّانية، أو عزمت الثانية على إفساد عقل الأوّل، بأنّ هذا العالم خفّاش دميم لا يحتمل أن تسطع عليه أنوار الحبّ، لذلك يمتص دماء القلوب حتّى تجفّ في الصّدور، بأنّ السعادة لو وُلدت فلكي تنطفئ، بأنّها لا تعيش أطول من ذبابة مايو، بأنّ الدهر ماكر وخبير، ونحن ساذجون نبدأ ومبتدئون نبقى..

لا بأس حبيبي.. هذا العالم لا يستحقّ شيئا من دموع أو أسى.

هذا العالم الذي يرسل بالشمس وأسراب الطيور كلّ صباح ويسترجعها كلّ مساء، ولا كأنّه ينطوي على كلّ هذا الكمّ من المعاناة.. أحكام مؤبّدة بالسواد والسكوت، والصمت والسّكون، والفقر والجنون، وأسقام وشجون، وهذا جميل بلا تعب، وذاك قبيح بلا ذنب، وهذا سعيد وكلّه شرّ، وذاك شقي وجلّه خير، وهذا يعيش حتّى يموت، وذاك يموت قبل الحياة..

لقد فهمت هذا العالم مذ تفطّنت إلى فوائد الخلّ وأضرار السّكر.. نحن لسنا هنا كي نستمتع بالحلاوة، نحن هنا كي نتجرّع المرارة، فإن أطعنا الحلو وعصينا المرّ، فإنّ العاقبة لن تسرّ.

لذا ما عاد يمضّني بعد هذا الفهم شيء، ولا حتّى أنّنا

افترقنا.. وبخصوص أنّي أمسيتُ على يقين، أنّه اللقاء.. دنا من أن يحين..

***

في البيت الآخر، انبعثت آستر من أريكة غفوتها شاحبة مبعثرة النفس، احتوت رأسها بيديها زمنا قبل أن تقوم صوب المطبخ، أين كان أوراس يطلي شريحة خبزه ببعض الجبن.

- حبيبتي ألم أكن نهيتك عن نومة العصر هذه؟

جلست دون أن تقول شيئا ولا يزال وجهها شاحبا وأمارات بعثرة النفس متفرّقة على محيّاها، فترك أوراس من يديه وهبّ إليها:

- هل أنتِ بخير؟

بدأت الكلمات تنزل والدموع تغسل:

- رأيتني ألج قاعة كبيرة قد نُصبت فيها الموائد، وما على موائدها من طعام يليق بالمحافل، وما كان فيها غير رجال سود الملاحف، فانقبضت لمنظرهم واستوحشت منهم وفورا التفتت إلى الباب أطلب الفرار، فإذا به اختفى.. فاضطربت وهلعت أكثر، وصرت أقلّب بصري بين ذلك النفر المفرّق على القاعة من الرجال الواجمين قد تلهّوا عن بعضهم وانصرفوا عن كلّ ما سواي بأبصارهم شاخصة

إليّ، وبين جدران القاعة وقد صمّت عن مخرج أو منفذ.. ثمّ جزعت أتحرّك كالمشوّشة، أركض وأتوقّف وأتلفّت وأدور وأتحسّس الجدران، وقلبي داخلي اعتراه ممّا اعتراني ويفعل مثلما أفعل، فصارت تتعثّر أنفاسي وأنا أصرخ: «ألا يوجد باب؟».. هناك انقشع جمع منهم عن رجل مميّز عنهم بجسده الأوضح وهندامه الوضّاح، وصار يمشي نحوي في خطى متأنّية والصدى يعظّم وقع نعليه، فما شعرت بركبتيّ إلّا تزلزلتا لفرط ما خفت، وما شعرت بجسدي بعد زلزالهما إلّا اندكّ، فلملمت شمل نفسي وانكمشت عليها وقد ضممت ركبتيّ المرتعشتين إلى صدري ورحت أهوّن عليهما عجزهما عن الوقوف بي، فهان عليهما الرضوخ وما هان عليّ، فغرست رأسي بينهما وانتظرت أمر ربّي وأنا أتمتم توسّلاتي، ثمّ وأنا كذلك وإذا بصوت ما عرفته وما أنكرته يقول لي في لطف وقد استقرّ أمامي:

- ما كلّ هذه الجلبة التي أحدثتيها آستر؟

أبعدت رأسي عن ركبتيّ ثمّ رفعته وجلة، فإذا هو أُحُد رحمة الله عليه يبتسم.

تلاشت لرؤيته كلّ مخاوفي، وصرت أحتمي بصورته من كلّ الصور الأخرى التي كانت تجمّع ما تلاشى من خوفي، وتبثّ رعبا ينفخ كالريح على رقعة روحي فتصطكّ له كلّ عظمة من عظام هيكلي، قلت له في هوشة لا يتخللها هدوء:

- علينا أن نخرج أُحُد، علينا أن نهرب، إنّني لا أتفرّس في

هـؤلاء خـيرا!

ضحـك ضحكتـه الهادئـة الـتي لا يتخلّلهـا هـوش قبـل أن يقـول:

- هؤلاء ضيوفي آستر، وهذا عرسي..

فصمـتُّ وأنزلـت رأسي كي أبتعـد بنظـري المشـمئزّ عـن نظراتـه المسـتبشرة، وقـد أصابـني عتـب وتفشّى في غضـب تأجّـج فأخمد كلّ خـوفي، أردت أن أقـول لـه ألـم تكـن تزوّجـت جـوري؟! لكنّـني لـم أقـل، فبـادرني وقـال نيابـة عـنّي مـا لـم أقلـه، أظنّـه قـرأه في عيـني قبـل أن تنـصرف عـن عينـه ككلمـات واضحـة لحـروف معهـودة بمـداد قاتـم عـلى ورق ناصـع:

- وعروسي ليست حبيبتي وحدي.

ثـمّ أشـار عـلى نفـس التجمّـع ففسـحوا عـن هيئـة امـرأة أبهمنيهـا برنوسـها الأبيـض المسـدل غطـاء رأسـه عـلى وجههـا كمـا مسـدل هـو عـلى طـول جسـمها، سـلكت مـا سـلك أُحـد نحـوي، فانتهـى بهـا المسـلك كمـا انتهـى بـه عنـدي، وأنـا أنظـر ذاهلـة مترقّبـة، أنزلـت غطاءهـا عـن رأسـها إذ صـارت جاثيـة بـين يـديّ وابتسـمت لي تبسّـم مـن عـلى يقـين أنّـه مفاجـأة سـارّة لـك، فـإذا هـي.. جـوري! وقـد عـادت إلى عهـد شـبابها، عـلى نفـس تلـك الصـورة الـتي كانـت عليهـا يـوم عرسـها وأُحُـد، فانقضضـت عليهـا أضمّهـا وأقبّلهـا وهـي تضمّـني وتقبّلـني، ثـمّ أمسـكت بيـدي ووقفـت وأوقفتـني وسـارت بي فـإذا بالجـدار ابتسـم بـباب فُـرج لطلّتهـا سـلّمتني لعتبتـه، فهممـت أن أجرّهـا معـي

فامتنعت وقالت مشرقة الوجه متلألئة العين والبسمة:

- فارق ما شئت فإنّك لاحق..

ثمّ ترقرقت في عينها دمعة ودّعتني ودفعتني بها قائلة:

- وأحبب ما شئت فإنّك مفارقه.

وصرت خارج القاعة، وصُمّ الباب.

***

أيّ نداء خفيّ لبّاه حتى وجد نفسه داخل سيّارته؟ ثمّ وجدها كالمأمورة تسير به ولا تركن إلّا عند باب المقبرة، في تلك الأمسية العاصفة وضوء النهار لا يزال يتراجع نحو الاضمحلال.

نزل عنها بمطّاريّته في يده واخترق بوّابة المدينة الصامتة فإذا بصوت رجل ينادي عليه من ناحية اليمين:

- إلى أين يا عمّ؟ أما وجدت لزيارتك غير هذا الوقت الطامس من هذا اليوم الساخط؟!

- لن أتأخر!

اكتفى نيل بذلك الرد، وواصل سيره تحت مطّاريّته.

المقبرة هي المكان الوحيد الذي يعرّي الحياة ويجرّدها من كلّ قطعة زينة عليها..

أين أنتِ أيّتها الوجوه المزهرة؟

أين أنتِ أيّتها الأجساد الهرعة؟

أيــن أنــتِ أيّتهــا الكســوات الزاهيــة والنظــارات الشمســية والمجوهــرات الذهبيّــة والعطــورات الأصليّــة؟

أيّتهـا المبـاني المتطاولـة الـتي تشرئـبّ أعناقهـا طمعـا في قبلـة سـماويّة؟

أيّتها الأفراح والأغاني الصاخبة؟

أيّتها الولائم والرقصات المنتشية؟

أيّتها الضحكات العالية؟

أيّتها البهجة الكاذبة..

أين أنتِ أيّتها الحياة؟

قـام نيـل عنـد قـبر أُحُـد، وانفجـر يهطـل عليـه هطول السـماء عـلى مظلّتـه.. تـراه قطـع كلّ هـذه المسـافة لأجلهـا لا غـير، هـذه الجملـة الـتي عنـد أعتـاب شـفتيه تدفـع كجنـين انتهـت إقامتـه في بطـن أمّـه؟

- «حلمـتَ وحقّقـتَ ثـمّ مـتَّ، ولا حلمـتُ ولا حقّقـتُ ولا مـتُّ.. مـن منّـا أكـثر موتـا مـن الثـاني؟».

كمـا وحدهـا المقـبرة تفضـح الحيـاة، وحدهـا الشـيخوخة تفضـح الهفـوات.

يقول هوجو: «أسوأ الملل، أن تتواجد دون أن تعيش»..

كم نسبة الذين خطر على بالهم سؤال: «لماذا أعيش؟».

ألأنّ والـداي أنجبـاني؟ أم لأنّي أطمـح إلى منـبر العالـم أن أعتليـه وأقـول كلمـتي؟

بعـد طـول تفكـير، يجـدر الاعـتراف أنّ الحيـاة «العاديـة» تمنـح شـيئا كراحـة البـال.

جلابيّة محوكة، البس.. طريق معبّدة، أُسلك..

وفـوق ذاك حشـود النـاس يلبسـون مـا تلبـس ويسـلكون مـا تسـلك، فتشـعر بـشيء كالأمـان.

أمـان خاطـئ، أمـان «إن عمّـت خفّـت»، أمـان يجعلـك تتقبّـل الرسـوب الجماعـي.. ولا النجـاح الفـردي.

بالمقابـل، الحيـاة الفـذّة لبـاس ينتظـر تصميمـك وطريـق تنتظـر تعبيـدك، ولا عـلاوة مـن حقّـك مـن سـوى أنّـك.. لوحدك.

الرسـوب رسـوبك والنجـاح نجاحـك والكلمـة كلمتـك، تحيـا حيـاة تجعـل منـك ملـكا!

غير أنّه نهر الجرأة.. بين الملوك والعبيد.

والجـرأة هـذه فكـر يلبـس تهـوّرا وينتعـل جنونـا ويعتمـر لامبـالاة، لأنّ كلّ خـوض جديـد يحتمـل الإبـداع كمـا يحتمـل الفشـل الذريـع، وفي هـذه الحالـة الأخـيرة لـن يزيـد الجـريء عـلى أن يرفـع قبّعتـه ثـمّ ينحـني بهـا.. لمحاولتـه.

يبقى أنّ عموم الناس متحفّظون جدّا عندما يصير الأمر إلى المقامرة بالحياة، لمَ المجازفة عندما لا القمم تُهوى ولا الحفر تُجتوى؟

لكن..

في يوم ما، قد تنظر إلى القمّة كما الحفرة.. بحسرة.

نيل لم يكن حالة خاصّة، كان كزوجته وأولاده الأربعة وشهاب وشِفاء وحلا وغلا وهلا والمئات والآلاف والملايين والملايير: وُلدوا، أكلوا، شربوا، ناموا، تعلّموا وقليل منهم من عملوا وأقلّ من علموا، تزوّجوا وولدوا ثمّ في انتظار الموت يلقّنون من ولدوا فنون مهنة التقليد، هكذا لا تتوقّف هذه الحلقة الفارغة، ويظلّ الناس يطوفون.. حول الصفر.

أُحُد من كانها..الحالة الخاصة، أُحُد وأوراس وجوري وآستر.

عندما تقرّر بأنّ أحلامك تستحقّ أن تتحقّق ولو بعد حين، فأنت جريء.

عندما لا ترضى بأنصاف الحلول وبدائل عن الخيار الأوّل مهما كلّفك ذلك، فأنت جريء.

عندما تغتنم حرارة الألم كما تُغتنم طاقة الشّمس، فأنت جريء.

عندما تسبح عكس التيار قناعة لا انجرافا.. فأنت حتما جريء.

لا، الجـرأة ليسـت أهـمّ مـا يميّزنـا، فليـس عندنـا أيـن سـتجد إنسـانا يكـرّس حياتـه جمعـاء!.. لدراسـة الدببـة الشـهباء. نحـن مجتمـع مازلنـا نـرى في شـوارعه امـرأة تسـير خلـف زوجهـا، ونسـمع رجـلا ينعـت زوجتـه بـ«الـدّار».. تلـك الـتي تحمـل كلّ الـدّار عـلى ظهرهـا.

إليـك هـذه النصيحـة أيّهـا الطائـر الـشرقيّ، انقرهـا كمـا تنقـر قمحـك، عسـاك تصنـع بهـا يومـا قمحـك:

هما رِجلان لا سير دونهما، وجناحان لا تحليق لولاهما.

لا يوجـد شيء يسـمّى رِجـل تتّـكئ عـلى حامـل داخـل قفـص وأخـرى تثـب خـارج القفـص، ولا شيء يسـمّى جنـاح تلمّـع القفـص والأخـرى تطـير عـن القفـص، فإمّـا أن تـوزّع ثقلـك عـلى رِجليـك حـتّى تهـون وثبتـك، ثـمّ تنـشر جناحيـك كي يتيـسّر إقلاعـك.. أو لا تحملـق في السـماء بعـد اليـوم.

رأته كما تعوّدت..

بنفـس البدلـة البيضـاء الناصعـة، بنفـس البـشرة الأنصـع مـن بدلتـه، بنفـس الابتسـامة الأنصـع مـن بشرتـه، بنفـس الـوردة الزبرجديـة في يـده..

لـم تركـض إليـه هـذه المـرّة خشـية أن يبتعـد كمـا عوّدهـا أيضـا، بقيـت واقفـة دون حـراك، حسـبها صورتـه..

وإذا به.. يسير نحوها

خطـت باتجاهـه خطـوة واحـدة وجلـة مرتعـدة كيـدٍ تبـني

قلعــة مــن الأوراق..

فإذا به.. لا يحجم عنها.

خطت خطوة أخرى أكثر رجاء أقلّ جرأة.

فـإذا بـه يـسرع نحوهـا وقـد ألقـى بوردتـه الزبرجديـة كأنّـه عـلى اسـتعداد لجـني وردة أبديّة!

وانطلقـت نحـوه كظبيـة أسروهـا ثـمّ أطلقوهـا، وانطلـق عـلى كلا جانبيهـا وخلفهـا يعـدو عدوهـا وقـد اضطـرم مـن جديـد شـعرها الأصهـب، سـمعت صوتـا قادمـا مـن بعيـد، كأنّـه صـوت قــادم مــن عالــم آخــر، لكنّــه صــوت حبيــب آخــر، فكيــف تتجاهلــه؟

توقّفت لبرهة متردّدة بين أُحُدين..

ثـمّ انطلقـت مـن جديـد، كيـف تتمالـك روحـا هـا هـو إفطارها بعـد طـول صيـام؟ هـا هـو أجرهـا بعـد طـول صبر!

ارتطمــت روحهــا بروحــه ارتطــام جســدها آنفــا بــالأرض، طوّقـت عنقـه كمـا لا أمـل أن تفلتـه، آه لارتطـام شربـة المـاء البــارد بالريــق الملتهــب بعــد طــول غليــل!

-أنا أشعر بك، أشعر بك حبيبي، أشعر بك!

اخـترق بنظراتـه الرّؤوفـة نظراتهـا الملهوفـة، وضـع كفّـه عـلى خدّهــا، فوضعــت كفّهــا عــلى خــدّه، وراح كلّ منهمــا ترتجــل خطــوات أناملــه في أشــكال رســومها وهمــا لا تخطــئ نظراتهــا

نظراتـه، ولا نظراتـه نظراتهـا، ابتسـم لهـا فضحكـت لـه، بشّرهـا:

- ذلك أنّنا صرنا سويّة مجدّدا، حبيبتي..

انطلقـت ضحكتهـا في السـماء ترنيمـة أطلّـت لهـا وبشّـت كلّ ملائكـة السـماء، ونـادى منـاد: «أن حـيّ عـلى الثـواب لقـد فـني العـذاب»، وتعانقـت الأرواح، امتزجـت في عالـم يتصـادق فيـه الذئـب والحمـل، وتتحقّـق الخرافـات الجميلـة، عالـم حيـث الوصـال.. قطعـا، بـلا انفصـال.

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
أو زور موقعنا:
www.kayanpublishing.com
وللاتصال الهاتفي:
هاتف أرضي: **0235688678- 0235611772**
هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing
kayan_publishing
Kayanpublishing
kayanpublishing
+KayanPublishing
KayanPublishing